

T
186A

نمو طبقة الكتاب وتطور رسوم الكتابة الديموانيسية
حتى أوائل القرن الرابع الهجري

مؤلف: رويدة رفقه

رسالة للحول على شهادة الماجستير
في الآداب

المادة: أدب عربي

تشرين ١٩٨١

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis title:

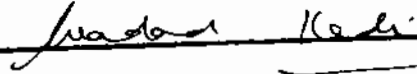
نمو طبقة الكتاب وتطور رسوم الكتابة الديوانية حتى اوائل القرن الرابع
الهجري

The Growth of the Class of the State's Scribes and the
Development of the Rules concerning Official Writing
until the Beginning of the Fourth Century A.H.

By

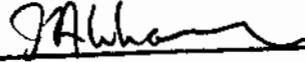
Ruwaydah Rifkah

Dr. Wadad Kadi



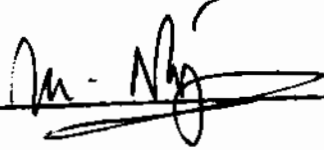
Advisor

Dr. Ihsan Abbas



Member

Dr. Muhammad Najm



Member

Date: October 1981.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Release Form

I, Ruwaida Rifka..

_____ authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.

✓ _____ do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.

Signature: R. Rifka
Date: 26/10/81

نمو طبقة الكتاب وتطور رسوم الكتابة الديوانية حتى اوائل
القرن الرابع الهجرى.

نظرة في المصادر والمراجع

المراجع القديمة

تتناول هذه الدراسة التنظيم الديواني في العصرين الأموي والعباسي حتى مطلع القرن الرابع وحال الموظفين القائمين على هذا التنظيم أي كتبة الدواوين. وقد اعتمدت فيها على مصادر متعددة من أهمها : كتاب الوزراء والكتاب للجيشياري وان كان كل ما وصلنا منه يتوقف عند خلافة المأمون (٢١٨) مع ان الجيشياري ادرك خلافة المقتدر بالله (٢٩٦ - ٣١٨) . وقد رجعت الى نقول من كتاب الجيشياري جمعها الاستاذ ميخائيل عواد من المصادر القديمة واصدرها بعنوان : "نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب" .

ويتمتع كتاب الجيشياري بقيمة بالغة تميزه عن الكتب المؤلفة في هذا الموضوع ، ذلك ان المؤلف لا يسرد فيه الاحداث سردا اجماليا ، بل يبرز التفاصيل الخاصة بأفراد كان لهم دور تاريخي ، وبابتعاده عن السرد الجاف يدخل في خصوصيات اولئك الاشخاص موردا ما تتميز به سيرهم من أمور فريدة ، فكأنه معني بالتقاط صور من حياتهم اليومية ، وكيفية تصرفهم ازاء بعض ، اي ان تاريخ الجيشياري يدور حول "الشخصية التاريخية" اكثر مما يدور حول "الحدث التاريخي" ولكن هذا لا يعني ان الحدث التاريخي مهمل لدى الجيشياري وانما هو مصبوغ بصيغة شخصية .

ويحوى كتاب الجيشياري تفاصيل مهمة حول نشأة الدواوين الاسلامية والكتاب الذين احتلوا مناصب ادارية هامة في الفترة التي يؤرخها وفيه خصوص من رسائل هامة حول الكتاب انفسهم وحول فسيح الكتابة كرسالة عبد الحميد الكاتب ، الى الكتاب ، وهي مرجسح هام في تاريخ الكتابة الديوانية وفي تكوين الكاتب ثقافيا وسلوكيا في بداية تكوّن طبقة الكتاب ، واخر العصر الأموي وبداية العصر العباسي . كذلك يعطي الجيشياري لائحة كاملة بأسماء القائمين على الاعمال الادارية مع الاشارة الى الدواوين التي عملوا فيها ، ويروى علاقة العامل بالكتاب او الوزير ، وعلاقة كسبل منهم بما يصادب السلطان ، قاصدا اهتمامه في

معظم الاحيان على الادارة المركزية والاحداث التي تدور في مركزين الخلافة وفي دار الخلافة على وجه الخصوص وقد نفع احيانا في كِتساب الجهشيارى على قصص نشعر انها من نسج الخيال لكن هذه القصص بالذات لها دلالتها على تصور الجهشيارى للتاريخ ونظرتة العامة الى الامور.

اما المرجع الثاني الهام فهو كتاب الصابىء تحفة الامراء في تاريخ الوزراء . وهو يؤرخ للفترة الممتدة ما بين المعتضد وخلافة المقتدر (٢٧٩ - ٣١٩) مع التأكيد على اهم الوزارات التي قامت في خلافة المقتدر اى وزارات علي بن عيسى بن داود بن الجراح وابي الحسن بن القسرات ومحمد الخاقاني وغيرهم . وهناك جزء مفقود من الكتاب ، ولذلك فهسو ينتهي بصورة مفاجئة في خلافة المقتدر لينتقل الى الحديث عن العصر البويهي . وهذا يشكل القسم الاخير من تاريخ الصابىء .

وكتاب الصابىء غني بالمعلومات التاريخية ولا سيما بالنسبة للاحداث التي اعترضت خلافة المقتدر ، مثل تنامي نفوذ القادة العسكريين داخليا وتعاضم خطر القرامطة على السلطة المركزية . وفيه ايضا تفصيلات حول علو شأن الوزارة في الفترة المذكورة واطلاع الدواوين والوزراء والكتّاب ، كما ان فيه وصفا للمراتب التي كانوا عليها والمراتب التي كانوا يتقاضونها والعلاقات التي اقاموها مع صاحب السلطان والمشكلات الادارية التي واجهها الوزراء بالذات فيما يتعلق بتأمين الضريبة واقامة الرقابة على عمال النواحي والمسؤولون الاختلاس ومحاربة الرشوة في الادارة المركزية وتأمين ارزاق الكتّاب . ويتتبع الصابىء المشكلات الادارية السياسية التي كانت وراء نكسة خفة الوزارة ، ويروى بدقة كيف نكب الوزراء وكيف حوكموا لتسترد الاموال التي في حوزتهم ، وكيف كانوا في معظم الاحيان تحت رحمة اعدائهم اصحاب النفوذ العسكري في دار الخلافة ، وذلك ما يميز كتاب الصابىء عن كتاب الجهشيارى . ولكن اسلوب الصابىء ليس في خفة اسلوب الجهشيارى وان كان شبيها به من حيث اعطائه لشخصية الوزراء والكتّاب والخلفاء بعدا فرديا مميّزا .

وهناك مصادر أخرى ذات أهمية بالغة في مقدمتها كتاب الذراخ وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر (٣٣٧) . ويحتوي هذا الكتاب - حساب قول المستشرق كلود كاهن - معلومات أساسية في الموضوع ولكن لم ينشر منه سوى المنزلة السادسة تحقيق المستشرق الهولندي دي خويه ونشره مع كتاب المسالك والممالك "لابن خرداذبه" . كذلك نشر بن شمس المنزلة السابعة من هذا الكتاب وترجم النص الى الانجليزية (ليدن ١٩٦٥) وحقق الدكتور احمد مكي (١٩٥١) المنزلة الخامسة ، لكنه لم ينشرها ولسو توفر هذا الكتاب كاملا بين ايدينا لسد - فيما اقدر - كثيرا مسن الفجوات الموجودة في هذه الدراسة .

هذا بالنسبة للكتب التاريخية التي تناولت موضوع التنظيم الديواني . اما بالنسبة للكتب التي تتعلق بكتاب الديوان فنذكر من بينها رسالة الجاحظ في ذم اخلاق الكتاب وفيها معلومات عن طبقة الكتاب ومراتبهم وارزاقهم ، والجزء الاهم فيها يدور حول نفسية الكتاب وحبهم للكتب وطمعهم في الربح وتحاسدهم ومحاولتهم الاساءة الى نظرائهم . ويطرح الجاحظ ايضا في رسالته موضوع "ثقافة" الكاتب وانكبابه على الكتب المترجمة عن الفارسية واهماله القرآن والعلوم الدينية . وتعتبر هذه الرسالة فريدة من نوعها من بين المصادر التي تناولت موضوع كتاب الديوان ، اذ هي لا تعالج هذا الموضوع تاريخيا لانها تعبير عن رأى الجاحظ الشخصي ، ولكن فيها في الوقت نفسه معلومات تاريخية افدت منها في هذه الدراسة .

ومن الكتب التي تدور حول اصول صناعة الكتابة كتاب الكتاب وصفة الدواة والقلم للبغدادي (٢٥٥) والكتاب ليس كاملا بين ايدينا وقد حقق دومينيك سورديل جزءا منه ، وهو اقدم مرجع نملكه حول اصول الصناعة وطريقة الكتابة واصول الخط والتحرير واختيار القلم والمحو والتطيين والتدريب وغيرها من الامور المتعلقة بالكتابة . ويتضمن الكتاب لائحة بأسماء الكتابات الجوارى لا نقع عليها فسي مرجع آخر .

وتعد الرسالة العذراء التي تنسب لابن المدبر الكاتب (٢٧٩) شبيهة بكتاب البغدادي فهي - على قصرها - غنية بالمعلومات المتعلقة بصناعة الكتابة وسلوك الكاتب ، مما يتعلق بأعتناؤه بمظهره الخارجي والتزامه بأصول اللياقة . وفي الرسالة قول للجاحظ يمدح فيسسه الكتاب يناقض ما ورد في الرسالة التي خصها لديهم . وفي الرسالة أيضا نماذج من بلاغة الكتاب ورسائل منسوبة اليهم .

اما كتاب الصولي أدب الكتاب . ففيه معلومات قيمة وتعريف دقيق لادوات الكتابة وطريقة استعمالها . ولكن هذه المعلومات منسثورة دون ترتيب وممزوجة بالكثير من القصص ومن الشعر الذي رواه الصولي مما يضعف قيمة الكتاب احيانا .

وقد افدت في هذا البحث من مقدمة كتاب الاقتضاب في شرح ادب الكتاب للبطليوسي (٤٩٤) حيث عدّد المسؤول مراتب الكتاب حسب الاختصاص ، ولعله اكمل ما وصلنا في شرح مراتب الكتاب على انواعها .

المراجع الحديث

اهم هذه المراجع كتاب المستشرق دومينيك سورديل Le Vizirat Abbasside وهو يقع في جزئين ، ويدور حول " الوزارة " وتطورها منذ نشأتها حتى مطلع القرن الرابع الهجري اى حلول خطة امرة الامراء مع قسندوم البويهيين . وفي الكتاب معلومات وفيرة استقاها سورديل من المصادر القديمة وتتناول التأريخ للوزارات المتتالية في الفترة المذكورة ، ومن تولوها ، وبما تميزت فترات وزاراتهم ، وما هي السلطات التي تمتعوا بها او التي حرموها منها ، مع ذكراهم الانجازات التي حققوها في الحقل الادارى . وفي آخر الكتاب لائحة كاملة بأسماء الوزراء واصحاب الدواوين الذين تولوا رئاستها منذ العصر الاموى حتى مطلع القرن الرابع . واذا كان من مأخذ على هذا الكتاب فإنه يصيب طريقة

معالجته لمسألة الوزارة على مر العصور التاريخية ، وهذا امر سوف
افصل فيه القول لدى الكلام حول "المرتبة الثانية" .

واضيف الى كتاب سورديل اطروحة فرنسوا زبال المترجمة الى العربية
تحت عنوان تكوين الكتاب العربي . وتعالج الاطروحة موضوع نشأة الكتب
العربية الاولى ، ويدور القسم الاول منها حول نشأة السلطة الاسلامية
والادارة المركزية مع وصف لطبيعة السلطة الاسلامية العربية . وفي
الكتاب اشارة الى الكتاب الديوانيين وتحليل لدورهم في الفترة
الانتقالية ما بين السيطرة الفارسية والاسلامية .

أخيرا أشير الى كتاب كلود كاهن Islam I وهو يؤرخ للفترة مسا
بين الجاهلية والسيطرة العثمانية انما بشكل مقتضب . ويتميز
الكتاب بأبراز اهم النقاط المتعلقة بالنظام الادارى الاقتصادي
الضرائبي ، وقد عولت عليه في تفسير بعض "الانمساط" الاقتصادية
التي كانت سائدة ، لاسيما بالنسبة لتوزيع الضرائب واصول جبايتها
ودور السلطة المركزية في ذلك كله . وفي الكتاب فصل عن الكتاب
الديوانيين ، مع تحليل للفرق بين السلطة الادارية المتمثلة بهم
والسلطة الدينية المتمثلة بالقضاة .

هذه هي اهم الكتب التي عولت عليها وأرجو ان اكون احسنت النظر
فيها والأفادة منها .

الفصل الأول

=====

تكون الجهاز الإدارى فى الدولة الإسلامية
حتى نهاية العصر الأموى

الكتابة الديوانية هي الكتابة التي نشأت مع ظهور التنظيم الإداري المتمثل بالديوان وقد بدأ في خلافة عمر بن الخطاب . وتستخدم الكتابة في إطار الدواوين أداة تفي بأغراض إدارية اقتصادية اجتماعية سياسية دولية ، ويتم بفضلها تنظيم الإنتاج والاستهلاك ، وتسيير أمور الدولة ، وترتيب طبقات الناس وتمييز الفئات والمجموعات ، بالإضافة إلى تأمين المراسلات الدبلوماسية بين البلدان .

ولقد سبقت الكتابة بصفتها أداة لتنظيم المجتمع ديوان عمر ، إذ نراها ترقى إلى العصر النبوي ، وتتمثل بالكتابة في الحقل السياسي والاجتماعي والاقتصادي . وتتوزع الكتابة في العصر النبوي على ثلاثة حقول : حقل الكتابة إلى الملوك ، حقل كتابة المغانم ، حقل الكتابة بين القوم في قبائلهم وميادهم^١ ، وبمعنى آخر : حقل العلاقات الدبلوماسية وحقل تسجيل " الإنتاج " ، وحقل تسجيل أسماء القبائل والحكم بما يقنع عليها أو يصير لها . إذن نحن نقع في العصر النبوي على محاولة أولى لتنظيم المجتمع ، وإن كان ذلك قد تم دون توفر ديوان معين أو نظام إداري محدد . ولقد كان الكتاب آنذاك هم المكلفين القيام بالعمليات الكتابية إذ يحدثنا الجهشيارى أن معيقب بن أبي فاطمة كان يكتب المغانم^٢ . وكانت مسألة توزيع المغانم وجباية الزكاة وتوزيعها تتطلب ولا بد القيام بعمليات كتابية يتم بموجبها تحديد المجموعات وإقامة لوائح بأسماء الأشخاص والقبائل المختلفة ، وذلك كله يشير إلى أن ديوان عمر لم ينشأ من دون أي مهادت له ، بل إنه يمشى لتوجيهها للكتابة باتجاه الانجاز الإداري ، وذلك أمر أصبح تحقيقه ملحا مع الفتوحات^٣ .

^١ الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتّاب (تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الأيبارى ، عبد الحفيظ شلي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٣٨) ، ١٢ .

^٢ انظر المصدر السابق : ١٢ .

^٣ يشير الجهشيارى (المصدر السابق : ٢٨-٢٩) إلى وعي العرب ضرورة الكتابة لذلك روى عن بني العنبر تفضيلهم الكاتب على الأمي ، والمهاجر على الأعرابي وراكب الراحلة على راكب الحمار .

II - نشأة الادارة الاسلاميية

استطاع عمر ان يؤسس ادارة فعلية منظمة عندما أنشأ ديوان الجند. ويبدو ان عمر قرر تأسيس هذا الديوان، بعد ان كان قد رفض اقتراحا من هذا النوع واعتبره "فتنة" من قبل^١. ولا شك ان عمر وعى امسرا ماما، وهو ان تأسيس اركان الدولة لا يكون الا بتوفير ديوان تعتمد عليه في ضبط نفقاتها والمستفيدين منها. ويذكر العسكري ان عمر أول من أنشأ ديوان بيت المال مما يشير الى رغبة الخليفة بالاحتفاظ بمبلغ من المال يكون يتصرف السلطة^٢.

وديوان الجند يدخل في اطار النظم الاقتصادية التي تبنتها السلطة منذ ايام عمر، وهي تقضي بتوزيع المغانم على الفاتحين، مسن دون تقسيم الارض عليهم. وان ديوان عمر لهو خطوة اخرى نحو التمييز بين الفياء والغنيمة، اذ يصبح الفياء ملكا للدولة، والغنيمة خاصة بالفاتحين. لكن ديوان عمر لم يغير شيئا كثيرا

أيقول ابن الاثير، في كتاب الكامل (تحقيق تورنبرغ، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٥)، ٢: ٥٠٤: "قال له (اي لعمر بن الخطاب) قائل عند فرض العطاء: يا امير المؤمنين، لو شركت في بيوت الاموال عدة لكون ان كان، فقال: كلمة القاها الشيطان على فيك، وقاني الله شرها وهي فتنة لمن بعدى"، ويروى الطبري، في تاريخ الرسل والملسوك، (تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨)، ٤: ٢٠٩ كيف اقترح علي بن ابي طالب على عمر الاحتفاظ بمبلغ من الاموال المتحصلة دون توزيعها، تقول الرواية: "ان عمر رضي الله عنه استشار المسلمين في تدوين الدواوين، فقال له علي بن ابي طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال، فلا تمسك منه شيئا". والمال هنا لا يعني السيولة بل ما يقتني اجمالا ويدخل في ذلك المغانم.

^٢ انظر العسكري، كتاب الاوائل (تحقيق محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة، ١٩٦٦)، ١٢٣.

من حيث مبدأ/مداخيل الدولة على الفاتحين^١، بمعنى ان السلطة لم تبدأ في زمانه بأحتكار الاموال لصالحها. ومن المهمات التي لا بد ان ديوان عمر ادى اليها تقدير ميزانية عامة تضبط الواردات والنفقات وتقدر بموجبها مرتبات الجند وتقام لوائح باسماء هؤلاء حسب انتمائهم القبلي وسابقتهم في الاسلام^٢. وقد كان الديوان متوفرا في الاجناد^٣ وفي الثغور^٤، ويسمى الموظف الادارى القيم عليه العريف. والعريف كاتب، بمعنى انه كان يتولى تقدير الاعطيات وتوزيعها، الا انه كان مكلفا بمهمة اخرى وهي مراقبة المستفيدين من الاعطيات عن كثب^٥. ولقد استمر ديوان الجند على نمطه الاول الذى رسمه عمر حتى خلافة

^١ يقول ابو يوسف في كتاب الخراج (تحقيق محب الدين الخطيب، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٣٩٦هـ) ٢٦٠-٢٥٠: "حدثني بعض مشايخنا... ان عمر رضي الله عنه كتب الى سعد حين افتتح العراق: اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه ان الناس سألك ان تقسم بينهم مغانهم، وما افساء الله عليهم. فاذا اتاك كتابي هذا فأنظر ما اجلب الناس اليك به الى العسكر من كراع ومال، فأقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين، فأنت ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء". وانظر ايضا حول الموضوع

E. Tyan, Institutions du droit public musulman
(Harissa, imprimerie de St. Paul, 1954-56) p. 219.

^٢ انظر مقالة عبدالعزيز الدورى EI^٢, "Diwān", vol. II, p. 333.

^٣ الاجناد: معسكرات شبه مستقلة من حيث جباية الضريبة، تنفق منها على المقاتلة ويذهب الباقي الى بيت المال (انظر البلاذري، فتوح البلدان تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٠٧: ١٥٦).

^٤ انظر الماوردي، الاحكام السلطانية (مطبعة الوطن، مصر، ١٢٩٨هـ) ١٩٨.

^٥ انظر H. Lammens, Etudes sur le siècle des Ommayyades
(Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1930) p.127-128 .

عبد الملك بن مسروق^١.

ولقد قام عمر بأنجازات أخرى في الحقل الإداري، أهمها تبني مبدأ التأريخ في المراسلات، إذ يقول الجهشيارى: "كان عمر أول من قرر التأريخ من الهجرة لأن اباموسى (الاشعري) كتب اليه: انه يأتيها كتب ليس لها تاريخ"^٢.

كان الجهاز الإداري إذن يتكون من ديوانين أساسيين: ديوان الخراج وديوان الرسائل^٣. وديوان الخراج هو الجهاز المكلف بجباية ضريبة الأرض، ذلك ان ثمر الانتاج الزراعي أصبح هو الثمن السائد، بمعنى ان محصول الضريبة لم يعد يوزع بقسمه الأكبر على الفاتحين، بل تحتفظ الدولة به لنفسها في بيت المال.

ولقد أدى اعتماد نظام الضريبة على الزرع الى اضطراب السلطة التي توفر القوانين والاحكام الخاصة بجباية الضريبة، وبما ان الفاتحين من المسلمين لم يكونوا يعرفون النظم الاجتماعية الإدارية المعقدة، فقد اتجهت سلطتهم الجديدة نحو الاستعانة بالقوانين التي كان معمولاً بها في الامصار المفتوحة^٤. وان الاحتفاظ بهذه القوانين ليس لهو احدى السمات المميزة للفتوح الاسلامي، ذلك الفتح الذي وصل اليه بسلاط على مستوى عال من التعقيد

^١ يقول الجهشيارى (الوزراء: ٣٨): "ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان احدهما بالعربية لاحصاء الناس واعطياتهم، وهذا الذي كان قد رسمه وآخر لوجوه الاموال بالفارسية، وكان بالشام مثل ذلك، احدهمسا بالرومية والاخر بالعربية فجرى الامر على ذلك الى ايام عبد الملك بن مروان".

^٢ المصدر السابق: ٢٠.

^٣ المصدر السابق: ٢٤ و ^٢ EI, "Diwān", vol. II, p. 333.

^٤ يقول الماوردي (احكام: ١٦٧): "وكان السواد في أول ايام الفرس جارياً على المقاسمة الى ان مسحه ووضع الخراج عليه قباد بن فيروز... فكان الفرس على هذا في بقية ايامهم، وجاء الاسلام فأقره عمر بن الخطاب على المساحة والخراج...".

الحضارى والادارى معا. وتؤدى هجمة قبائل من البدو على هذا النوع من المجتمعات في كثير من الاحوال الى خراب هذه المجتمعات ويكون النهب والغنيمه هو الغرض الاول من الغزو، لكن العاملين اللذين حالا دون وقوع ذلك في حال الفتوحات الاسلاميه هما: قوة العقيدة الدينيه من ناحية، واستمرار الجهاز الادارى في العمل بصورة شبه طبيعيه في الامصار المفتوحة من ناحية اخرى. وقد ادت رغبة الفاتحين فسي الافادة من النظام الضريبي القائم في الامصار الى اعطاء ولاتهمسا المذتلفين مسؤوليات اداريه تضاف الى مسؤولياتهم العسكريه ضمانا لاستمرار عمل الجهاز الادارى. من هنا كان الوالي يسهر على جبايه الخراج، وان استمرت الشعوب المفتوحة تؤمن له - ومن ثمة للدولة - طاقم الجهاز الادارى، حتى لا يخضع هذا الجهاز لاي تغيير من شأنه ان يعرقل مسيره الامور.

ولقد كان هناك ديوان للخراج في جميع ولايات الدولة الاسلاميه، نذكر منها: ديوان الخسراج بالشام، وديوان الخسراج بالعسراق وديوان الخسراج بعمص، وديوان الخسراج بخراسان، وفيميسا بعد ديوان الخراج بفلسطين^٢. وكانت مهمه هذا الديوان تحديس

X. de Planhol, Fondements géographiques de l'histoire de l'Islam (Paris, Flammarion, 1968) p. 29.

^١ انظر

^٢ انظر الجهشيارى، الوزراء : ٢٤ - ٢٥ - ٢٧ .

ضريبة الخراج، وكانت الحسابات فيه تتم بالارقام الرومية في سوريا وفلسطين، وبالارقام الفهلوية في العراق وفارس، وبالارقام القبطية في مصر. وقد يشير هذا التقسيم الى ان الديوان كان يخضع لاحكام مختلفة، وان الدولة على الأرجح لم تعمل في البداية على صهر هذه الاحكام في بوتقة واحدة.

اما الديوان الأخرى ديوان الرسائل - فقد الخق به معاوية ديوان الخاتم^٢. وكانت لغة ديوان الرسائل هي العربية، ومهمته ربط الاطراف بالمركز، وكان متوفرا في جميع الولايات. وكان ديوان البريسد الذي احدثه معاوية أيضا يؤمن بنقل الرسائل والمعلومات من الاطراف الى المركز، ومن المركز الى الاطراف.

أ - كتابة الرسائل

وديوان الرسائل هو جهاز تنفيذي بحت، ينفذ قرارات الخليفة اووالي ويصرف الشؤون الادارية المتعلقة بمراسلة الاطراف - أو المركز - وانفاذ الأوامر. وفي هذا الديوان نشأت محاولات الكتابة النثرية باللغة العربية، ومن هنا اهميته من بعد، إذ ان في اطاره برزت اهمية حسن الصياغة وجمال الاسلوب في النثر العربي، وهذا ما دعا الى اطلاق الاسم الآخر عليه من بعد وهو "ديوان الانشاء". غير ان هذا التطور لم يتم دفعة واحدة، بل تدريجيا.

^١ يرى لامنس ان العرب حكموا مصر لكنهم لم يتولوا تسيير شؤونها الادارية في القرن الاول للهجرة. ولم يتغير هذا الواقع تغيرا جذريا فيما بعد، ولكن السلطة ظلت تحاول اقامة رقابة مستمرة على جهاز مصر الاداري

(انظر H. Lammens, Ommayyades, p. 309

نقلا عن C. Becker, Papyri Schott-Reinhardt, Heidelberg, 1906).

^٢ الجهشيارى، الوزراء: ٢٠.

^٣ يقول ابن الاثير (الكامل: ١٣) ان "... معاوية ... أول من وضع البريسد".

وفي العصر الراشدي كان كاتب الرسائل محدود الصلاحيات، اعني بذلك انه لم يكن مستقلا عن الخليفة او الوالي، بل كان مرتبطا بالواحد منهما او بالأخر ارتباطا وثيقا، يمكن ان يطلق عليه - بشيء مسن التجوز - تعبير "التبعية"، وتتجلى هذه "التبعية" في علاقة الكاتب بالمادة التي يتعامل معها من جهة، وبصاحبه من جهة اخرى. فالكاتب كان لا يستطيع ان يتحكم بمضمون الرسالة التي يكتبها ولا بشكلها، وهو يكتب في بتسجيل ما يملى عليه حرفيا، وتلك ظاهرة اشسار الجهشيارى الى وجودها في قوله: " كان عمر (بن الخطاب) يملسي على كاتب بين يديه، فكتب الكاتب غير ما قال عمر، فقال زياد(بن ابي سفيان): يا امير المؤمنين، قد كتب غير ما قلت، فنظر في الكتاب فكان كما قال زياد، فقال عمر اتى علمت هذا؟ قال: رأيت رجع فيك وخطه، فرأيت ما احارت كفه غير ما رجعت به شفتيك^١. وهذه الرواية قد تكون غير مؤشقة تاريخيا، الا ان دلالتها هامة، اذ هي تشير الى ان الكاتب لا يمكن ان يقوم بتحويل المادة التي تملى عليه. فالكاتب اذن لا يتصرف بالمادة المكتوبة، وهو يخاف من حدوث اى مبادرة تشوّه النص الاصيل المملى عليه.

ان الملكية المطلقة للرسالة اذن تعود للمملي لا للكاتب وجل ما يقوم به الكاتب هو مضاعفة مقال المملي بآلة مختلفة هي آلة الكتابة بحيث يكون المكتوب صورة من المنطوق،

^١ الجهشيارى، الوزراء: ١٩٠.

لا اثر فيه لصياغة مستحدثة ، ومن هنا التأكيد على علاقة الاملاء التي تربط الخليفة او الوالي بالكاتب .

غير ان الكاتب كان مقيدا بشكل آخر ، اذ لم يكن يحق له ، في العادة انفذ الرسائل وتلقيها . فهو فيما يبدو - في العصر الاموي - لا يتسلم الرسائل ولا يطلع على مضمونها ومن هنا جاء مثل قبضة بسن ذؤيب - كاتب عبد الملك - استثناء على القاعدة اذ يروي الجهمشياري انه بلغ من لطافة محله (اى قبضة) منه (اى عبد الملك) ان كان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل ان يقرأها عبد الملك^١ . فالأرجح اذن ان الخليفة هو الذى يتسلم الرسائل عادة ويقرأها ، فاذا شاء كلف الكاتب بفتحها وتلاوتها . وقد حدث انه عندما ورد كتاب وفاة عبد العزيز اخي عبد الملك ابن مروان لعبد الملك "قرأ قبضة الكتاب قبل عبد الملك على عاداته في امثاله وعزاه بأخيه عبد العزيز"^٢ ملخصا بذلك مضمون الرسالة فارضا نفسه حلقة وصل بينها وبين الخليفة ، الا ان فعل قبضة ومكانته بسند حسنة في الكتابة الرسائلية .

ان علاقة الكاتب بمضمون الرسالة من جهة ، وبصاحبه من جهة اخرى ، هي التي حددت منزلة كاتب الرسائل وجعلتها دون مرتبة كاتب الخراج ، اذ ان كاتب الخراج كان يتمتع بمنزلة مرموقة وصلاحيات اوسع . غير ان مثل قبضة بسن ذؤيب قد يدلنا على بعض المحاولات التي كان الكاتب يقوم بها لتوسيع صلاحياته ، وتلك محاولات سوف تؤدى الى توصل الكتاب مع الزمن - كما سوف نرى من بعد - الى صياغة المقال المكتوب ، فيعتمد الخليفة على كاتبه ويكتفي باعلامه بالمضمون العام للرسالة ، على ان هذه قد تكون قضية معقدة ، العوامل المؤثرة فيها متعددة ، ولكنها دون شك حدثت في العصر الاموي ، وأول اشارة اليها نجدها في كتاب الجهمشياري الذي قال ان الصبيح بسن المشنى ، وقد كتب مرة عن عمر ابن^{عبد} العزيز الى عياض بن المشنى ، قال في آخر الكتاب : "فكتب الصباح بن المشنى يوم الخميس

^١ المصدر السابق : ٣٤ .

^٢ المصدر السابق : ٣٤ .

لاربع خلون من ذى الحجة سنة تسع وتسعين^١ . واذا كانت هذه الرواية غير قاطعة الدلالة ، فإن في كتاب الجهشيارى رواية اخرى اشديبائسا منها لاستقلال الكاتب في صياغة الرسالة الصادرة عن الخليفة ، وهي ترقى الى النصف الثاني من الخلافة الاموية وقد حدثت مع سالم الكاتب ، كاتب هشام بن عبد الملك اذ قال له هشام : " اكتب الى يوسف بن عمر - بشيء امره به - واعرض الكتاب عليّ . فمضى سالم ليكتب ما امر به . . . وحضر سالم بالكتاب الذى كتبه ، فعرضه عليه . (اى على هشام)^٢ . هناك رواية ثالثة ترقى الى آخر العصر الاموى حدثت مع عبد الحميد الكاتب كاتب مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني امية ، فقد قال له الخليفة مروان : " اكتب اليه (اى لعامل له اهداه غلاما اسود) فأذمم فعله "^٣ ملخصا بذلك مضمون الرسالة ، وتاركها للكاتب حرية انشاء الشكل المناسب ولا يذكر الجهشيارى ان عبد الحميد عرض الكتاب على الخليفة ، ولكننا لا نتصور ان عبد الحميد لم يعرضه على الخليفة ، وكان على الخليفة على اى حال ان يوقعه .

ب- كتابسة الخراج

كان كاتب الخراج في صدر الاسلام كما سبق ان اشرت يؤمن استمرار السياسة الضريبية التي كانت قائمة في الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية ، والتي كانت غريبة الى حد بعيد عن الفاتحين الجدد ، فكاتب الخراج مالك للادوات التي تتطلبها منه مهمته ، وهي بشكسل رئيسي الحساب ، فهو يملك من شمم المعرفة التي تسمح له بتحديد مبلغ الضريبة في الاحوال المختلفة وكانت هسسه المعرفة هي التي تضمن له الاستمرار في وظيفته قبل مرحلة التعريب .

^١ الجهشيارى ، الوزراء : ٥٤ .

^٢ المصدر السابق : ٦٢ .

^٣ المصدر السابق : ٨١ .

ولقد وضع معظم الكتاب الساسانيين معرفتهم الضريبية بتصرف الفاتحين، وعملوا في كنفهم، قال زاذان فروخ الكاتب، وهو يعني الحجساج واليه: "فأنه اجوج اليّ مني اليه... ولا يجد من يكفيه الحسساب^١، وبمساعدة كتاب الخراج المحليين، أصبح الفاتحون قادرين على تأمين جباية الضريبة، ومن ثمّ على بسط سيطرتهم وتشبث نفوذهم. لقد انقطع الكتاب عن خدمة السلطة الساسانية بطبيعة الامر وتحالفوا مع الفاتحين الجدد، وهذا التحالف هو نوع من انواع ولاء الموالات وليس ولاء عتق او خدمة^٢، لأن الكتاب لدى الساسانيين

^١ الجهشيارى، الوزراء: ٣٨. وليس الكاتب المولى وحده يملك معرفة يحتاج اليها الفاتحون الجدد. فأن الدهقان كذلك كان يعرف كيفية تدبير امور الولاية فيحاول الوالي الجديد ان يفيد من هذه المعرفة. ويورد الجهشيارى (المصدر السابق: ٤١) رواية بهذا الصدد ان سؤال عامل الفلوجتين عند ورودها: "هل هنا دهقان يعاش برأيه فقيل له: جميل بن بصبهرى... فقصده وقال له جميل: احفظ عني خلا، لا يختلف حلمك على رعيتك... ولا تتخذن حاجبا ليرد عليك الوارد مسن اهل عملك على ثقة من الوصول اليك، وأظل الجلوس لاهل عملك يتهيبك عمالك...، ولا تقبل الهدية...". ان هذه النصيحة التي يدلي بها الدهقان هنا نصيحة سياسية لا علاقة لها بكيفية جباية الخراج او كيفية مسح الاض، لكنها تعالج موضوع التعامل مع العمال. ونذكر ان الفاتحين كانوا حذرين جدا في التعامل مع الدهاقين فيما يتعلق بمسح الأرض وتقدير الخراج، يذكر ابو يوسف (الخراج: ٤١) ان عمر بن الخطاب طلب بعض الدهاقين كي يمسحوا له سواد العراق فرفض مساحتهم مما ادى الى خراب الارض ونستطيع ان نتساءل ما اذا كان الكتاب الموالي موضع ثقة الفاتحين الجدد اكثر من الدهاقين فيما يتعلق بتقرير ضريبة الخراج.

^٢ ولاء الموالات اى التحالف يختلف عن ولاء العتاقة الذى يتم بعد اعتاق السيد لرقيق له. ويسمى هذا الولاى الاخير ايضا ولاء نعمة، انظر حول الموضوع كتاب محمد طيب النجار، الموالي في العصر الاموى (الطبعة الاولى، القاهرة، ١٩٤٨) ١٣.

ويذكر الجهشيارى - الى جانب سرجون - عددا من الكتاب الذين كانوا في بلاد الشام ، ويلفت انتباهنا فيما قاله ان معظمهم من النصارى الذين لم يتحولوا من ديانتهم مثلهم في ذلك مثل سرجون^١ .

يسبقى ان نعرف موقف السلطة الأموية من الاعتماد على كتبة من الفرس والروم ، يكتبون بلغة اعجمية في دواوينها ، وما هي الاجراءات التي سوف تتخذها ، لتصبح سيطرتها على الادارة كاملة لأن استمرار الموالي في كتابة الخراج يشكل استمرارا لهيمنة قديمة ستحاول السلطنة الجديدة التحرر منها بشتى الوسائل .

ج - التعريب

من المعلوم ان عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٥) اول من عرب الدواوين في الادارة الاسلامية وقد خضعت لعملية التعريب الدواوين التي ظلت تستخدم اللغة الرسمية الخاصة بكل بلد قبل الفتح الاسلامي . وأول الدواوين التي عربت دون شك دواوين الخراج . ويظهر من الروايات ان السلطة بدأت تتبرم من الكتاب الاعاجم الذين استمدوا من معرفتهم بقضايا الضريبة نفوذا يواجهون به نفوذ اصحاب السلطة في الدولة الاسلامية . وفي هذا الصدد يقول الجهشيارى : " كان يتقلد ديوان الشام بالرومية لعبد الملك ولمن تقدمه سرجون ابن منصور النصراني ، فنظره عبد الملك يوما بشيء ، فتشاقل عنه ، وتوانى فيه ، فعاد لطلبه ، وحدثه فيه ، فرأى منه تفريطا وتقصيرا ، فقال لعبد الملك لأبي شابت سليمان بن سعد الخثني - وكان يتقصد له ديسوان الرسمائل - : " امسا ترى ادلال مسرجون علينا واحسبته

أ يذكر الجهشيارى (الوزراء : ٢٧ ، ٦١) من بين الكتاب النصارى ابن اوشال النصراني ، كاتب خراج حمص ، وثاوري ابن اسطين النصراني ، كاتب هشام بن عبد الملك ، ويذكر البلاذري (فتوح : ١٧) البطريق بن النكا كاتب عبد الملك على الرملة .

قد رأى ان ضرورتنا اليه والى صناعته ، افما عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحوّلت الحساب الى العربية ، فقال : فأفعل ، فحوّله^١ . فالرواية تشير بوضوح الى ان السلطة الأموية ارادت ان تتحرر من استئثار الكتاب الموالي بالأمر في ناحية هامة من نواحي الادارة وهي الخراج .

من هنا يبدو اجراء التعريب لأول وهلة وكأنه ضربة موجهة الى الكتاب الفرس والروم ، وقد توجه امين سرجون بعد ان عرف ان التعريب اصبح واقعا الى الكتاب الروم قائلًا : " اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم " . وقد كانت ردة فعل الكتاب الفرس مشابهة لردة فعل الكتاب الروم اذ قال زاذان فروخ - وكان يتقلد ديوان الفارسية - لاصحابه : " التمسوا مسكننا غير هذا " .^٢ ولا بد ان يكون الكتاب الاعاجم قد حاولوا الحؤول دون عملية التعريب ، اذ يروى البلاذري انه " بذلت لصالح بن عبد الرحمن مائة الف درهم على ان يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك لكنه ابي ونقله ... " . هذه الروايات مجتمعة تشير الى الخوف الذى اعترى الكتاب الاعاجم من فقدان مناصبهم ، اذ لا بد ان تكون رافقت عملية التعريب اعادة تنظيم للبنية الادارية بمجملها ، مع ما يتطلبه ذلك من استبدال الكتاب الفرس بكتاب يتقنون اللغة العربية . لكن تلك العملية لم تتم دفعة واحدة على الأرجح - كما يقول فرانسوا زبال - اعتمادا على انه من الصعب استبدال الكتاب القدامى بكتاب جدد لا يملكون معرفة تقنية كافية يستغسرق تدريبهم واعدادهم وقتا طويلاً .^٣ فالتعريب -
- يقول زبال - " هو نقطة انطلاق لتحول بطيء ستستمر اثاره فسي

^١ الجهمشيارى ، الوزراء : ٤٠ .

^٢ الماوردى ، احكام : ١٩٢ .

^٣ ديوان الفارسية هو ديوان الخراج الذى كانت تتم الحسابات فيه بالارقام الفهلوية (انظر المصدر السابق : ٣٨) .

^٤ المصدر السابق : ٣٨ .

^٥ البلاذري ، فتوح : ٣٦٨ - ٣٦٩ .

^٦ انظر فرانسوا زبال ، تكوين الكتاب العربي (معهد الانماء العربي ، بيروت ، ١٩٧٧) : ٣٤ .

القرن الثاني للهجرة^١.

وفي الحقيقة ، فإنه من الواضح من استقراء كتاب الجهشيارى ان التعريب تم على مراحل : تمت المرحلة الاولى منه بتعريب العراق سنة ٧٨^٢ ثم بلاد الشام تليهما خراسان ومصر. وقد تأخر تعريب خراسان - حسب قول الجهشيارى - حتى مطلع القرن الثاني ، سنة ١٢٤ ، في خلافة هشام بن عبد الملك^٣ لكن اللغة القبطية استمرت في مصر لغة الادارة جنبا الى جنب مع اللغة العربية حتى القرن السادس الهجرى. وتشير المهارق - بحسب دراسة لامنس - الى ان المراسلة بين جهاز مصرس الادارى والمركز كانت تتم باللغتين العربية والقبطية ، غير ان النص الاصلى الرسمى كان بالعربية ، وكانت تلحق به ترجمة بالقبطية كذلك استمر الكتاب الاقباط واليهود في الكتابة على الدواويسن باللغة الاصلية الى جانب اللغة العربية^٤.

ولم تنحصر ظاهرة التعريب في نقل الحساب من اللغات المحلية المختلفة الى اللغة العربية بل نراها تتناول ادق التفاصيل ، ومنها "العلامات" التي في المهارق والتي من شأنها ان تثبت اصالة النسخة ، وكانت من قبل تكتب باليونانية ، يقول البلاذرى : "وكانت الاقباط تذكر المسيح في رؤوس الطوامير وتنسبه الى الربوبية ستعالى الله علوا كبيرا وتجعل

^١ انظر زبال ، تكسون : ٣٤ .

^٢ انظر الجهشيارى ، الوزراء : ٣٨ .

^٣ المصدر السابق : ٦٧ .

^٤ انظر لامنس H. Lammens, Ommayyades, pp.315-317.

ويستمد التعريب اهميته من كونه محاولة اولى لتبني كتابة عربية . ولقد تمت هذه المحاولة في اطار الجهاز الادارى ، بينما استمرت اللغتان الآرامية والسريانية في العصر الاموى قي سيطرتيهما على الكتابة الادبية في بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين ولو الى حين . اما المرحلة الثانية فتكن بتبني اللغة العربية في الكتابة الادبية . وهكذا يكون الاسلام قد انجز في المجال اللغوى ما لم تستطع انجازه بيزنطية او بلاد فارس الا وهو سيطرة لغة السلطة ، لا على الادارة فحسب بل على الانتاج العلمى والادبى عامة .

الصليب مكان بسم الله الرحمن الرحيم... فكان عبد الملك اول من
احدث الكتاب الذى يكتب في رؤوس الطوامير من: "قل هو الله احد".^١

ولا بد من الاشارة ايضا الى ان التعريب تخطى المادة اللغوية وتعداها
الى مجال السكّة - اى النقد - ويتجلى ذلك في تخلي السلطة الاموية
عن الدينار البيزنطي لصالح الدينار المنقوش، وعن الدرهم الساساني
لصالح الدرهم المسلم وربطها الاول بالثاني^٢، وهذا يعنى احداث ديوان
آخر هو ديوان السكّة^٣.

ولقد اصبحت اللغة العربية بعد التعريب هي لغة السلطة دون منازع،
ولا يمكن لأى صراع الا ان يتسلح بها، لذلك بادر الموالي الى تعلم
هذه اللغة وليس امرا غريبا ان نقع منذ خلافة عبد الملك على كتاب
رسائل هم من الموالي^٤، لقد ازال التعريب التقسيم الذى تولى بموجبه
الموالي كتابة الخراج، واصبحت هذه الوظيفة الادارية مباحة امام العرب

ولم يكن التعريب الذى قامت به السلطة الاموية كافيا للحد من سلطة
الكتاب القدامى، لذا رافقت ظاهرة التعريب اجراءات اخرى ضد الذين
ينتمون الى ديانة اخرى غير الاسلام. وملازمة عملية التعريب لظاهرة
التقييد الديني واضحة في رواية الجهشيارى اذ يقول: "كان اكشسر
كتاب خراسان اذ ذاك (في خلافة هشام بن عبد الملك) مجوس وكانست
الحسابات بالفارسية، فكتب يوسف بن عمر، وكان يتقلد العراق في
سنة اربع وعشرين ومئة، الى نصر بن سيار كتابا، انفذه مع رجل يعرف
بسليمان الطيار، يأمره الا يستعين بأحد من اهل الشرك في اعماله
وكتابه".^٥ واذا كان القيد قد وضع على "اهل الشرك" من الكتاب في العصر الاموى

^١ البلاذرى، فتوح: ٢٨٣ وانظر ايضا M. Lombard, Monnaie et histoire d'Alexandre à Mahomet (Paris, Mouton, 1971) p. 149.

^٢ يقول الماوردى (احكام: ١٤٨) "اول من ضرب الدراهم المنقوشة عبد
الملك بن مروان... سنة اربع وسبعين وقال المدائني: بل ضربها
الحجاج في آخر سنة خمس وسبعين... وكتب عليها: "الله احد الله
الصد".

^٣ انظر
^٤ انظر الجهشيارى، الوزراء: ٣٥.

^٥ المصدر السابق: ٦٧.

فأن هذا القيد قد امتدَّ حتى طال أهل الذمة في العصر العباسي من بعد، وهذا ما يمكن أن نستنتجه من رواية أوردها الجهشيارى، قال: "قلد المنصور حمادا التركي تعديل السواد وأمره أن ينزل الانبار ولا يدع أحدا من أهل الذمة يكتب لأحد من العمال على المسلمين الا قطع يده، فأخذ حماد ما هويه الواسطي جدَّ سليمان بن وهب فقطع يده^١."

على أن هذه الاجراءات لا تعني أن السلطة نجت في ابعساد أهل الذمة عن ممارسة صناعة الكتابة وتأمين جهاز ادارى مكون من المسلمين دون غيرهم. وسوف نرى - فيما يلي من هذه الرسالة - أن السلطنة اتجهت الى الاستعانة بالنصارى وغيرهم من أهل الذمة في الكتابة على الدواوين على مرَّ العصور وأن بصورة متفاوتة.

III - الوضع الاجتماعي السياسي للكتاب الديوانيين

لقد استعانت السلطة الاموية، كما سبق أن اشرنا، بعناصر اعجمية لا سيما في كتابة الخراج، وكانت العلاقة القائمة بينها وبين الكتاب الاعاجم تتخذ شكل الولاء. لقد دخل الموالي في نمط تحالفات السلطة الاموية وخصوماتها، ومن هنا كان طبيعيا الا يبنضوا جميعا تحت لواء سيطرة البيت الاموى والبيت المرواني بل منهم من تحالف مع القبائل المناوئة لهما. ولعل سيرة ابن المقفع يمكن أن تعتبر نموذجية من نواح كثيرة في عقده تحالفا مع بني هاشم^٢. فما هو موقف الكتاب الذين كان معظمهم من الموالي لدى انتقال الامر الى بني العباس؟

^١ المصدر السابق : ١٣٤ والارجح أن يكون ما هويه -كسائر عائلة وهب من النصارى (انظر (D. Sourdel, Vizirat Abbasside, Damas, 1959, vol. I, p. 312).

^٢ حول تحالف ابن المقفع مع بني هاشم، انظر الجهشيارى، الوزراء: ١٠٢ -

ان محور الصراع في هذه الفترة الانتقالية الحرجة لم يكن بالنسبة للكاتب يدور حول قضية "شرعية الخلافة"^١، اي هل الامويون احق بالخلافة ام العباسيون، وانما حول قضية لصيقة بالواقع، المسألة الكبرى فيها: من الذين تكون لهم الغلبة في الوصول الى السلطة. وحيث ان تعذر على المكاتب الاسترزاق في ظل السلطة الاموية منذ فترة ما بعد التعريب، فقد رأوا - فيما بعد - التحالف مع كتلتا اخرى قد تهيء لهم حيزا في الجهاز الادارى ومن هنا لا يظهر هناك لدى الكاتب من تعصب لجماعة دون اخرى، وانما همهم الاساسي محاولة استخدام هذه الجماعة او تلك لبلوغ غايتهم، وهي القيام بدور يرون انفسهم مؤهلين له في الجهاز الادارى للدولة الاسلامية. من هنا التقى موقف الكاتب المتحالفين مع السلطة الاموية^٢ /موقف الكاتب الذين تعذر عليهم العمل في كنفها، يطالب كلاهما باستقرار الوضع السياسي في ظل اي سلطة تضمن لهم مناصبهم ومرتباتهم، لأنهم فيما اقدر كانوا يتصورون انه ليس للكاتب موقع خارج السلطة وهذا - في رأبي - هو المنطوق الاساسي لأي تحليل يهدف الى تعيين موقع الكاتب من الصراعات القائمة عامة. ان ممارسة صناعة الكتابة تفترض محاذاة الكاتب للسلطة التي تتحكم بالجهاز الادارى، ومن ثم فان اقضاء الكاتب عن دواوين الادارة يحوله الى شبه عاطل عن العمل الاصيل فهو لذلك يشعر انه ملزم بالسعي لاسترجاع مكانته مهما كان الثمن. ومن هنا يجد الكاتب ان عليه ان يضع جانبا ميوله السياسية ليكون مؤهلا للعمل في ظل اي سلطة كانت، وذلك امر يؤكد الجهشيارى في رواية عن واقعة معينة تشير الى تحالف الكاتب مع السلطة التي تقبل به كاتباً في اجهزتهم^٣ يقسول: " وكان يكتب لعبد الله بن عيسى يوسف بن صبيح،

^١ انظر زبال ، تكوّن : ٣٨ .

^٢ من اعمام الخليفة ابي جعفر المنصور وقد ادعى الخلافة لنفسه لذلك انفذ ابو جعفر ابامسلم يقاتله فهزمه . فأتى الى البصرة واخذتاً عند اخيه سليمان سنة ١٣٧ (انظر الجهشيارى، الوزراء : ١٠٣ - ١٣١) .

مولى بني عجل، من ساكني سواد الكوفة. فذكر القاسم بن يوسف بسن صبيح ان ابيه حدثه : ان عبد الله بن علي (عم المنصور) لما استتر عند اخيه سليمان بالبصرة، وعلم انه لا وزر له من ابي جعفر، قال: فلم استتر وقصدت اصحابنا الكتاب، فصرت في ديوان ابي جعفر، واجرى لي في كل شهر عشرة دراهم... فقال لي (ابو جعفر): كأني بك يسا يوسف وانت تقول في نفسك : انا بالامس في ديوان الكوفة اكتب لبني امية، ثم مع عبد الله بن علي...^١ وتشير الرواية بوضوح الى ان مكان الكاتب هو الى جانب السلطة. فهزيمة صاحب الكاتب تجعله يطلق الصراع وينكفيء تحت لواء السلطة القائمة. فيكون عبد الله بن علي في الرواية المذكورة اعلاه - لا يشكل بالنسبة للكاتب اكثر من حليف مرحلي مرشح للخلافة، فليس غريبا ان يكون يوسف بن صبيح الكاتب قد انتقل من خدمة بني امية الى خدمة عبد الله بن عيسى لينتهي اخيرا في دواوين المنصور.^٢

غير اننا نقع - بالنسبة لموقف الكاتب - على حالات لم يلجأ فيها الكاتب الى السلطة الجديدة بل لازم صاحبه كما فعل عبد الحميد الكاتب. ولم يكن عداؤ عبد الحميد للعباسيين هو الذي حال دون انضمامه اليهم، بل كان السبب في ذلك تفانيه في الاخلاص لصاحبه مروان بن محمد - والخوف على سمعته من ان تلتطخ. فيكون الموقف الاخلاقي، لا الموقف السياسي، هو الذي املى على عبد الحميد تصرفه وذلك واضح في رواية الجهمياري اذ يقول: "لما قوى امر بني العباس وظهر، قال مروان لعبد الحميد: انا نجد في الكتاب ان هذا الامر زائل عنا لا محالة، وسيظطر اليك هؤلاء القوم، يعني ولد العباس،

^١ المصدر السابق : ١٣١ - ١٣٢ .

^٢ ان موقف الخليفة المنصور ايجابي في هذا المثل لانه قبل بيوسف بن صبيح كاتباً في ديوانه . لكن الكاتب (يوسف بن صبيح) لم يكن واثقاً من هذا الامر. ويشير الجهمياري (المصدر السابق : ١٣١) الى خوف يوسف بن صبيح عند التحاقه بديوان المنصور اذ انه لم يفتح عن هويته في بادئ الامر واستتر بالديوان ولم يرد الاحتكاك بالخليفة خوفاً من ان يكتشف هويته فيلحق به الأذى.

فصر اليهم فأني ارجو ان تتمكن منهم فتدفعني في مخلفي، وفي كثير من اسبابي، فقال له : وكيف لي بأن يعلم الناس جميعا ان هذا عن رأيك، وكلهم يقول اني غدرت بك وصرت الى عدوك^١. ان عبد الحميد مقتول لا محالة بسبب اعلانه الولاء لصاحبه بعد زوال امر هذا الاخير، ولا ينبغي ان يتصرف الكاتب قياسا الى ذلك . فالصناعة لا بد ان تستمر اياك انت السلطة، والاصول التي يفضلها تصان الصناعة شامطة لا تتغير مهما تغيرت الاحوال. وذلك واضح في رسالة عبد الحميد الى الكتاب في لهجة الكاتب المتحفظة وعدم تطرقه لهوية السلطة التي يعمل الكتاب في كنفها اموية كانت ام عباسية .

ان استمرار الصناعة رهن بالاستقرار السياسي، ولذلك قد يحاول الكاتب السعي من اجله . فيبادر - ان امكن - لحل التناقضات السياسية وهذا ما حاول عبد الحميد ان يقوم به . يقول الجهمشيارى : "وكان عبد الحميد ابن يحيى قال لمروان، حين رأى علو امر بني العباس : اتتهمني يا امير المؤمنين فيك قال : لا، فقال له : رأيت ابراهيم بن محمد بن علي، اليس ابن عمك قال : بلى، قال : فأني أرى اموره تنبغ عليك، فأنكحه وانكح اليه، فأن ظهر، كنت قد اعلقت بينك وبينه شيئا، وان كفيته لم تشن بصره^٢ فالكتاب يبدو هنا وكأنه يحاول ان يبعد المخاطر المترتبة بالذليفة وبالتالي بالخلافة .

غير ان مبادرة الكاتب لحل التناقضات السياسية لضمان الاستقرار السياسي لم تأخذ دائما شكل "المصالحة" التي ظهرت في المثل السابق بل نرى الكاتب يلجأ الى الديلة اذا امتنعت الوسائل الاخرى مسن مصالحة او امتناع . ولقد بلغ - مثلا - ابا ايوب، كاتب المنصور، عزم الذليفة على قتل ابي مسلم الخراساني فقال في نفسه : " انثاله وانثاليه

^١ المصدر السابق : ٧٩ .

^٢ الجهمشيارى، الوزراء : ٧٢ .

راجعون طلبت الكتابة حتى اذا بلغت غايتها، وصرت كاتباً للخليفة،
وقع بين الناس هذا التخليط. والله ما ارانا نسلم، وما احسب
اصحاب ابي مسلم يرضون ان قتل ان يدعوا هذا على الارض ولا احسب
من اسبابه"....^١ وكان ان احتال ابو ايوب لقتل ابي مسلم وهمسو
اعزل^٢.

ولا يدافع الكاتب في موقفه من الصراعات الا عن منصبه، ذلك
ان الانتماء المذهبي امر غريب عنه. ولا يعني ذلك انه لم تكسب
للكاتب ميول فكرية او سياسية او انتماءات دينية معينة، بسبب
تعني ان الكاتب يبذل جهده لكي لا تتناقض معتقداته مع منصبه،
اي مع معتقدات السلطة التي يعمل في كنفها. وهو يسعى دائماً
من اجل الحفاظ على مركزه بمصالحة السلطة القائمة، واضعاً
نفسه في تصرف السلطة الجديدة. فأذا لم تقبله هذه السلطة
للتواضع بالصبر واظهر طيبة خاطر حتى تغير السلطان
رأيها فيه. وهذا ما فعله كتاب الامويين بعد الثورة العباسية.
فقد روى الجهشيارى انهم جلسوا تحت شجرة تين وقالوا: "لسنا
اصبنا رجلاً له سلطان انقطعنا اليه وكنا في خدمته، يرزقنا
رزقاً نعود به على عيالنا، فقال بعضهم: عسى الله عز وجل

^١ المصدر السابق: ١١١ - ١١٢.

^٢ المصدر السابق: ١١٢.

ان يسبب ذلك لنا او لبعضنا فيفضل علينا^١ ، وهذا التصرف يعكس
حياد الكاتب وعدم لجوئه الى القوة لانتزاع حقه في ممارسة
صناعته . ان الصبر والرجاء والانتظار هي صفات مستسماة لا تهدد
السلطة فتطمئن هذه من ناحية الكاتب .

^١ الجهشيارى ، الوزراء : ٩٦ ، ويورد الجهشيارى (نصوص ضائعة في كتاب
الوزراء ، تحقيق ميخائيل عواد ، بيروت ، ١٩٦٤ : ٤٢ - ٤٣) رواية
اخرى تشير الى سعي الكاتب الى استرجاع مكانتهم بعد الاطاحنة
بالأمين . يقول : " . . . ان المؤمن لما قدم العراق خطر لـ
ان يقلد الاعمال الى السبعة الذين قدموا معه من خراسان . فطالست
عطلة كتاب السواد وعماله ، وكانوا يحضرون داره في كل يوم حتى
ساءت احوال اكثرهم " .

الفصل الثاني

=====

تطور الجهاز الادارى في العصر العباسي
وأثره في ظهور المردبة الثانية (الوزارة).

I - الدواوين الحادثة في العصر العباسي

١ - أتجاه الإدارة نحو المركزية

في بداية العصر العباسي برزت مسألة جعل السلطة مركزية عن طريق الإدارة ، وهو امر وجد العباسيون تحقيقه ملحا ، بسبب عامل يحدد المصلحة ويتعلق بالموارد التي تعتمد عليها ، وهو اختلاس اموال الضريبة الذي كان يقوم به في بعض الأحيان ولاة الاطراف في زمن الدولة الأموية ، يساعدهم على ذلك امران ، الاول : استقلالهم عن المركز واطلاق السلطة المركزية يدهم في الولايات ، والثاني : وجود عدد من الكتّاب الموالي واعتماد الولاة عليهم في جباية الضريبة على اكمل وجه ، بسبب اتقانهم ضروب الحساب ويعطي الجهشياري مثلا واحدا يحث الكاتب فيه السوالي على اختلاس اموال الفيء مع ضمانته سلامته يقول : " كان يكتب ليزيد بن المهلب المغيرة بن ابي قره - مولى سدوس - فكتب يزيد السيسى سليمان (بن عبد الملك) يخبره بفتح جرجان ، ويعظم عنده الامر وموقع الشعمة في ذلك ، ويعرفه انه قد حصل في يده من المال مما افاء الله على المسلمين . . .

لقد تمتعت بعض الولايات باستقلال واسع في ظل الدولة الاموية . وكان الولاة يتصرفون بأمر ولاياتهم في العراق مثلا بحرية كبيرة ، نذكر من بينهم : زياد بن ابي سفيان وابنه عبيدالله والحجاج . وقد حاولت السلطة الاموية الحد من سلطة الولاة بتقسيم السلطات المحلية فسي الولاية الواحدة الى عدة مسؤوليات ترديبط بها مباشرة ، وبتهيئسن المسؤولين من قبل الخليفة لالوالي . هذا ما فعله سليمان بن عبد الملك بيوسف بن عمر - والى العراق - اذ فرض عليه تولية قحدم بن سليم الكاتب الخراج والحكم بن ابي الصلت الحرب . (انظر الجهشياري ، الوزراء : ٦٥) .

سنة الاف درهم ، فقال له المغيرة كاتبه : لا تكذب بتسمية مال ، ودعه مجملا ، ولعل امير المؤمنين اذا لم يعرف مبلغه ان يسمح به لك ، واذا عرفه استكبره وامر بحمله ، وان امسك عنه بقي ذكر المال مذكرا في الديوان ١٠٠٠" ويعطي ابن الاثير امثلة حول خوف الخليفة من اقتطاع الولاية . اموال الضريبة وعدم تأديتهم مال الجباية الى الادارة المركزية . ومن هؤلاء الولاية زياد بن ابي سفيان الذي تولى فارس في خلافة معاوية وكان استودع ماله عبد الرحمن ابن ابي بكره و كان عبد الرحمن يلي ماله بالبصرة ، وبلغ معاوية ذلك فبعث المغيرة بن شعبة لينظر في اموال زياد" . ويعطي ابن الاثير مثلا آخر يشير الى خوف الخليفة من الولاية الذين لا يؤدون اموال الضريبة يقول : " واستعمل (معاوية) المغيرة (بن شعبة) على السكوفة . . . فدخسل (عبد الله بن عمرو بن العاص) على معاوية فقال : استعملت المغيرة على الخراج فيغتال المال ولا تستطيع ان تأخذه منه ، استعمل على الخراج رجلا

^١ الجهشيارى ، الوزراء : ٤٩ - ٥٠ يعرف الكاتب المولى ان الكتابة تخلد الحدث ، وكان مصيبا في رأيه اذ طالب عمر ابن عبد العزيز يزيد بالاموال بعد وفاة سليمان بن عبد الملك (انظر المصدر السابق : ٥٠) ، ولكننا نقع على حالات كان الوالي يقترح فيها الاختلاس ، يقول الجهشيارى (المصدر السابق : ٦١) : " كان قد تقبل ضياع هشام (بن عبد الملك) بشهر الرمان رجل يقال له فروخ ويكنى ابا المشنى ، فثقل على خالد (بن عبد الله القسرى والى العراق) امره ، فقال لحسان (النبطي كاتبه) : اخرج الى امير المؤمنين . وزد على فروخ في الضياع الف درهم على ان تستوفي حدودها" . والارجح ان يكون خالد راغبا في التصرف بضياع هشام فيحتاج له اقتطاع بعض اموالها .

^٢ ابن الاثير ، الكامل ٣ : ٤٢٢ . ويروى ابن الاثير (المصدر السابق : ٣ : ٤٢٤ - ٤١٥) ان معاوية ارسل الى زياد : " ان في يدك مالا من مال الله فأد ما عندك منه . فكتب اليه زياد : انه لم يبق عندي شيء ولقد صرفت ما كان عندي في وجهه ، واستودعت بعضه لنازلة ان نزلت ، وحملت ما فضل الى امير المؤمنين رحمة الله عليه" .

يخافسك ويتقيك. فعزله عن الخراج واستعمله على الصلاة"^١.

كان يحدث اذن في بعض الاحيان ان الاموال المجموعة من الاطراف لاتصل الى المركز. ولم تكن السلطة تملك دائما وسائل المراقبة كالتدقيق الحسابي والاشيات بالسجلات للحؤول دون تسرب الاموال لصالح الاطراف والولاة وكتابهم. وكانت الخطوة الاولى التي قامت بها بالنسبة للكتاب هي محاولة تفكيك الفئة المسيطرة على الجهاز الاداري بواسطة التعريب مع ما يرافق ذلك من اجراءات لا مباشرة ضد اهل الذمة من الكتاب^٢. لكن هذه الامور لم تكن لتكفي اولا بسبب ردة فعل الكتاب على هذه الاجراءات. اذ ان بعض هؤلاء لجأوا الى تعلم العربية والى اعتناق الاسلام لكي لا يذهبوا ضحية الاجراءات التي اتخذتها السلطة. واذا كان تعلم العربية يستغرق مدة غير قصيرة، فإن اعتناق الاسلام ليس امرا عسيرا. ومن النماذج على لجوء عدد من الكتاب الى اعتناق الاسلام ما ذكره الجهشيارى في قوله: " كان في ديوان العراق مع محمد بن المنتشر... من كتابه، رجل يقال له: حسن النبطي، فكتب هشام يأمر الا يستعان بذي، فقيل لحسان في ذلك، فأسلم على يدي محمد بن المنتشر". هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فإن الولاة احترموا البنين الاجتماعية السائدة في ولاياتهم ولم يعملوا على اعادة تنظيمها، ومن ضمنها طاقم الجهاز الاداري. اما المتضرر الاكبر هنا فهو السلطة المركزية. ذلك ان اى استيلاء على الاموال يقابله بالضرورة احتكار لجزء من السلطة. واذا كانت السلطة لم تقسّم مكتوفة الايدي امام ذلك، الا ان تدخلها في شؤون السولاية ظل " فوقيسسا"، يلجأ فيه الذليفة الى الاخضاع التام للولاة وعمالهم، وقد لا

^١ المصدر السابق ٣ : ٤١٣ .

^٢ انظر ما سبق ص : ١٥ .

^٣ الجهشيارى، السوزراء : ٦١ .

يتورع عن قتلهم وتعذيبهم ، وهذا ما حصل - مثلاً - لخالد بن عبد الله القسري والي العراق، فقد انفذ هشام بن عبد الملك اليه يوسف بن عمر والي اليمن ليعزله ويحل محله بعد ان يستخرج منه الاموال. يقول الجهشياري: " ووافاهم يوسف فمات طارق (بن ابي زياد من عمال خالد وكان على الكوفة) في العذاب، ولقي خالد وجميع عماله كل شيء ، ومات منهم في العذاب بشر كثير... وكان مبلغ ما استخرجه منهم تسعين ألف درهم".^١

ولم يكن هذا التدخل نافذ المفعول دائماً، وانما كان نافذا لبرهة وجيزة وحسب فقد يتوصل الخليفة - او مبعوث الخليفة - الى استخراج الاموال من معذبيه ، كما حصل في المثل المذكور اعلاه ، ولكن لا يمكنه الحؤول دون تسرب الاموال مرة اخرى . وقد ظل العزل - اي عزل الوالي عن ولايته - الاجراء الاكثر فعالية لمحاربة الاختلاس وكان غالباً ما يرافقه تعذيب الوالي . وهدف التعذيب التذكير بسأن الخليفة قادر على ان يطيح بمن يريد من عماله ساعة يشاء ، وان كل تطاول على سلطة يجرّ الهلاك على المتعمّد كما حصل لطارق بن ابي زياد عامل خالد على الكوفة . وبسبب عدم فعالية هذا الاجراء لجأت السلطنة العباسية - حسب ما يرى كلود كاهن - الى تقوية السلطة المركزية ، ولم يكن ذلك ليتم لها الا بتقوية الجهاز المركزي الاداري لكي تستطيع ان تخفض الاطراف للمركز عن طريق ربط الولايات بالحضرة مباشرة^٢ ، وبذلك لم يعد نفوذ السلطة المركزية قاصراً على تعيين الوالسي واقالته ، ولم تنحصر اساليبها في التدخل بشؤون الولاية لاستخراج الاموال

^١ المصدر السابق: ٦٣ - ٦٤ وكان مبدأ انفاذ الخليفة بعض ثقاته للنظر في اموال الولاة امراً شائعاً انظر ابن الاثير (الكامل ٣: ٤٢٢) .

التي جناها العامل بثقتي انواع التعذيب، صحيح انها تدخلت عن شيء من العنف والحدة في تعاملها مع الولاة، الا انها بالمقابل اقامت رقابة مستمرة امتت بها مواردها كما سوف نرى، وفي الوقت نفسه استمرت في اسلوب الاقالة والعزل. وفي هذا المجال يروى الجهشيارى ان الرشيد "كان ... قلد فرجا الرخجي الاهواز، فكثّر عليه عنده... وادعى عليه انه اقتطع مالا كثير من مال البلد فصرفه بمخلدبن ايان الانبارى في سنة اثنيتين وتسعين ومئة"^١. وتشير هذه الرواية الى ان السلطة لم تنجح كليا، على الأقل في خلافة الرشيد، في تلافي اقتطاع الاموال لصالح الولاة دون المركز.

ونستطيع ان نقول - مع كاهن - ان المحاولات التي قامت بها السلطة العباسية على مر العصور حتى مطلع القرن الرابع لم تبلغ الصورة المنشودة، لأن ارتباط الاطراف بالمركز ظل في تحول مستمر، وهذا شكّل عقبة تحول دون بسط السلطة سيطرتها على ارض الخلافة كافة، ان فسفي خراسان او مصر او المغرب او بلاد فارس.

^١ الجهشيارى، الوزراء: ٢٧١.

C. Cahen, Islam I, p. 85.

^٢ انظر

^٣ من اهم العوامل التي ادت الى استقلال الولايات مبادرة السلطة الى تولية قادة من الجيش ضاحية من النواحي يجبون خراجها وينفقونه على الجند وبالمقابل تبقى القوات العسكرية بتصرف السلطة المركزية تستعين بها عندما ترى ضرورة لذلك (انظر (C. Cahen, Islam I, p. 147.

ونستطيع ان نعطي مثلا على ذلك ما حصل في اواخر المنتصف الثاني من القرن الثالث للهجرة من تولية ابن طولون مصر (انظر ابن الاثير، الكامل ٧: ١٧٨) وتولية ابي المساج مقاطعة الاهواز (انظر المصمدر السابق ٧: ٢٧٦).

ب- تعداد الدواوين

أما الخطة العباسية في أول العصر العباسي ، ولا سيما ابتداء من خلافة المنصور ، فحكمت بأحداث جهاز إداري متشعب في المركز وفسى الأطراف بحيث تكون دواوين الأطراف نسخة مصغرة عن ديوان المركز . وقد كانت الدواوين الأساسية في العصر الأموي هي كما سبق وأشرنا دواوين الرسائل والخراج والجند والبريد . ولكن السلطة العباسية اتجهت نحو تقسيم الدواوين في مسؤوليات متعددة ومتخصصة معيماً . وبلغ الجهاز الإداري في كنف السلطة العباسية حجماً لم يبلغه في العصر الأموي وتعددت مجالات التوظيف بالنسبة للكتاب وتنوعت وسوف نأتي على ذكر الدواوين المختلفة التي أحدثها الخلفاء والوزراء بالتفصيل وتبعاً للتسلسل الزمني لتتبين اتجاه الكتابة الديوانية العام وطبيعة الطبقة الإدارية التي ارتبطت بها .

ونبدأ بخلافة المهدي الذي أحدث سنة ١٦٢ ديوان الأمانة والغرض منه مراقبة محصول الضريبة (أو القيمة المالية المتحصلة منها) إذا كان موافقاً للأصول أي للعمليات الحسابية التي يتم بموجبها تحديد الضريبة نظرياً . ويرجح الجهمشيارى أن يكون المهدي أحدث ديوان أمانة الأمانة وليس الأمانة إذ يقول : " وأحسب أن من ذكر أن المهدي أول من أحدث الأمانة إنما أراد أمانة على الأمانة^٣ ، مما يشير إلى أن الأمانة كان ملحقاً بكل ديوان على حسنة

أيري كاهن (Islam I, p. 84) أنه إذا كان الهدف الأول مسو
تحصيل الضريبة كاملة ، فإن الإجراءات التي يقتضيها سوف تحقق الهدف
الذي ينبغي تفاديه إلا وهو استقلال الولاية ، لأن توفر الجهاز الإداري
الفعال في الأطراف هو العامل وراء سعي الولاية من أجل استقلالها
من جديد ، فتعود المشكلة لتطرح ذاتها إنما من باب آخر .

D. Sourdel, Vizirat, vol. I, p. 113.

^٢ انظر

^٣ الجهمشيارى ، الوزراء : ١٦٦ .

الى ان اسس المهدي الديوان الجامع لها. ثم عادت الازمة لتتقسم مع مجالس الخراج، فيكون لكل مجلس زمامه اي زمام مجلس المشرق وزمام مجلس المغرب، وزمام مجلس السواد، اصبحت هذا التقسيم فاعلا في وزارة عبيد الله بن وهب للمعتضد بالله بين سنة ٢٧٩ و ٢٨٩^١. وقد الحقت بديوان الازمة، دواوين اخرى للهدف ذاته انما بمهمات خاصة، كديوان الاشراف مثلا الذي ظهر متأخرا اي في بداية القرن الثالث^٢، وهدف هذا الديوان هو تفادي اقتطاع الاموال من قبل العمال^٣.

اما التغييرات الاخرى التي طرأت على الجهاز الاداري فتكمن في احداث مجلس الدار، او ديوان الدار، بمبادرة من ابي العباس بن الفرات صاحب ديوان الخراج في خلافة المعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩). وديوان الدار هو الديوان الجامع لمجالس الخراج انما ليس بصورة مطلقة^٤ والارجح ان يكون احداث هذا الديوان هو رغبة بمراقبة مجالس الخراج. ويضاف الى مجالس الخراج مجلس الاسكدار حيث تصل الخرائط^٥ وتنفذ الرسائل. وتدخر عائدات الضريبة في بيت المال اذا كسبت نقسدا وفسسي

D. Sourdel, Vizirat, vol.II, p. 737.

^١ انظر

^٢ لا يميز بعض المصادر بين الازمة والاشراف والواقع ان الاشراف على مصر البعيدة كما يتم بصورة متقطعة قبل القرن الثالث بأشارة من الخليفة عندما يجد امر ما. يقول الجهشيارى (الوزراء: ٢١٧-٢١٨) "قال الرشيد ليحيى (البرمكي): اطلب لي رجلا كاتبا عفيفا، يكمل لمصر، ويستسر خبره، فلا يعلم موسى بن عيسى به حتى يفجأه! قال: قد وجدته، قال: من هو؟ قال: عمر بن مهران".

^٣ ذهب على بن عيسى، صاحب الاشراف على مصر في وزارة^١ علي الخاقاني للمقتدر سنة ٣٠٠، الى مصر ليحقق في مسألة انفاق مصر مبلغا مرتفعا من عائدات الضريبة. ويفاجأ بأن النفقة على جسر قارون هي عشرة دنانير بينما يحتسب العمال عنه على السلطان ستين الف دينار السنة (انظر الصابي، تحفة الامراء في تاريخ الوزراء، تحقيق امدرود، بيروت، ١٩٠٤: ٣١٩-٣٢٠).

^٤ انتزع عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد مجلس المغرب في ديوان الدار وقتله لعلي بن عيسى منفردا حوالي سنة ٢٨٦ (انظر المصدر السابق: ١٣٢).

^٥ الخريطة بمفرد خرائط وعاء مثل الكيس يستخدم لكتب العمال وللأموال

(انظر الجهشيارى، نصوص: ٣٣).

الخراج اذا كانت عيناً^١. ولم تكن الضريبة عادة تصل بمجموعها عيناً الى دار الخلافة وذلك بسبب دور الجهادية في تحويل المحصول السي نقود^٢. وقد اصبحت للجهادية في خلافة المقتدر ديوان هو ديوان الجهادية^٣. ويلحق بديوان الخراج الذي يجبي الضريبة الخاصة بأراضي الخراج ديوان الضياع اي الضياع الخاصة بالخليفة وهضم الاراضي التي صدرها من بعض المدين تكبيرهم ويرقى هذا الديوان الى خلافة ابي العباس السفاح^٤. اما ديوان الصدقات فهو الديوان المكلف بجباية العشر من الاراضي، وقد ذكر الجهشيارى هذا الديوان في خلافة هشام بن عبد الملك وكان يتولاه قبيلة بن ذؤيب^٥. وقد اختلف هذا الديوان فيما بعد - حسب ما يذكر ابو يوسف في كتاب الخراج - بجباية العشر على الماشية بينما تولى ديوان الخراج جبايتها عن الاراضي^٦. وحكم ذلك ربما في خلافة المهدي^٧. وهناك ايضا ديوان الصوافسي الخاص بالاراضي التي تملكها الدولة والتي تستطيع ان تصرفها

^١ انظر EI², "Diwān", vol. II, p. 334.

^١ انظر

^٢ الجهادية اذن من فئة الصيارفة ويأخذ اجرا على عمله وغالبا ما يتحمل الفلاح مال الجهادية (انظر D. Sourdel, Vizirat, vol. II, p. 527)، وكان الجهادية يخصص ما يتحصل لديه من اموال ومحاصيل زراعية في مشاريع تجارية قبل ان يؤديها الى السلطة المركزية، فيحقق ارباحا، ثم كان يحيل السلطة الى قبض الاموال من ممثليه في بغداد. (M. Lombard, Monnaie, p. 160)

^٣ انظر EI², "Diwān", vol. II, p. 334.

^٣ انظر

^٤ انظر المصدر السابق : p. 334.

^٥ انظر الجهشيارى، الوزراء : ٦٦، وانظر ايضا Cahen, Islam I, p. 84, EI², "Diwān", vol. II, p. 333.

^٥ انظر الجهشيارى، الوزراء : ٦٦، وانظر ايضا

^٦ انظر ابو يوسف، الخراج : ٨٧.

^٧ انظر EI², "Diwān", vol. II, p. 334.

^٧ انظر

من حيث اقطاعها لأحد اصحاب النعال والنقود^١. ويتولى دفع ارزاق الكتّاب وسائر من في البلاط ديوان النفقات ويرقى الى بداية العصر الامسوى واصبح هذا الديوان في اواخر القرن الرابع يهتم بنفقات دار الخلافة وكان لهذا الديوان زمامه الخاص به^٢. كما اصبح لكل ديوان مجلس يهتم بنفقاته^٣. اما الانفاق على الجند فكان يتم بصورة مستقلة ويتسولاه ديوان الاعطاء او العطاء، وهو الاسم الآخر لديوان الجند^٤، وكان يؤمن المراسلة بين المركز والاطراف ديوان الرسائل الذي انجز في خلافة معاوية^٥، وتلحق بديوان الرسائل مجالس عدة اهمها: مجلس الفص السدي يعنى بفرز الرسائل ونزع الخاتم عندها عند ورودها، ومجلس الخاتم الذي يعنى بختم الرسائل قبل انفاذها^٦، ثم ديوان السر^٧، وتكمن مهمته في توزيع الاوامر على الاقسام المتخصصة. وجمع مجلسا الفص والخاتم فسي ديوان واحد في مطلع القرن الرابع^٨، وكان ينقل الكتب الرسمية والخرائط ديوان البريد المسمى ايضا ديوان الخرائط^٩. ولا تنحصر مهمة هذا الديوان في ذلك بل اضيف اليها مهمة الاطلاع على اوضاع الامصار ورفع تقرير بها الى صاحب السلطان، لذلك يمثل صاحب البريد او المتولي للبريد في ناحية ما السلطة المركزية، وينقل المعلومات من الاطراف اليها.

ولا بد هنا من التمييز بين ديوان البريد وديوان الاشراف لكي لا يقسع الخلط بينهما. يقول الماوردي: "ان للمشرف منع العامل مما افسد فيه، وليس ذلك لصاحب البريد...، والمشرف لا يلزمه الاخبار بما فعله العامل من صحيح وفساد اذا انتهى اليه ويلزم صاحب البريد الاخبار بما فعله العامل من صحيح وفساد، لان خبر المشرف استعداء، وخبر صاحب البريد

^١ انظر الجهشيارى، الوزراء : ٢٧٧.

^٢ EI² , "Diwān", vol. II, p. 334.

انظر

^٣ EI² , "Diwān", vol. II, p. 333.

انظر

^٤ انظر الصابىء ، الوزراء : ١٣.

^٥ EI² , "Diwān", vol. II, p. 334.

انظر

^٦ EI² , "Diwān", vol. II, p. 334.

انظر

^٧ انظر الجهشيارى، الوزراء : ١٢٤ وايضا D. Sourdel, Vizirat, vol. II, p. 623.

^٨ EI² , "Diwān", vol. II, p. 334

انظر

^٩ انظر الصابىء ، الوزراء : ١٥٩.

صاحب البريد انهاء... وخبير الانهاء يشتمل على الفاسد والصحيح، وخبير الاستعداد مختص بالفاسد دون الصحيح^١.

وغالبا ما يتقلد ديوان البريد احد المقربين من الذليفة، وذلك فان هذا الديوان مستقل الى حد ما عن الدواوين الاخرى، واحيانا لم يسؤل عليه كاتب، ذلك انه لا يتطلب من متوليه التمرس بصناعة الكتابة، يقول قدامة بن جعفر: "والذي يحتاج اليه في صاحب هذا الديوان ان يكسب ثقة اما في نفسه او عند الذليفة القائم بالامر في وقته لان ليس هذا الديوان فيه من العمل ما يحتاج معه الى الكافي المتصفح وانما يحتاج الى الثقة المتحفظ"^٢.

اما ديوان المظالم فهو الديوان المكلف بالنظر في المظالم التي ترفع اليه والتي تكون السلطة قد الحقتها بأحد الرعايا^٣. فمهمته اذن هي في حماية الضعفاء عندما تتناول عليهم السلطات المحلية في بعض القضايا كجباية الخراج مثلا. وقد كان يحدث في العصر الامسوي ان ينظر الذليفة او احد عماله في المظالم الى خلافة عبد الملك بن مروان^٤. لكن النظر في المظالم بشكل منظم مكشفه يرقى الى العصر العباسي وذلك كما يقول الماوردي- بسبب كثرة الظلمات في ذلك العصر وانجز الديوان المكلف بذلك في خلافة المهدي حوالي سنة ١٦٣^٥. واصبح يخصص يوم في الجمعة للنظر فيهمسا في خلافة

^١ الماوردي، احكام: ٣٠١ - ٣٠٢. ويؤكد ذلك ما ذكرت من ان السلطة المركزية لم تعد تعتمد على العزل والتنكيل لاصلاح امر الولاية بل اصبح تدخلها في الولاية بناء. يتولى المشرف عادة مهمة مسالمة نرى مثلا ان عمر بن مهران المشرف على مصر في خلافة الرشيد فاجأ موسى بن عيسى الوالي الا انه لم يبادر الى خلعه بل جلس للمظالم وجسد في طلب الخراج واصلح امر مصر ثم قفل عائدا (انظر الجهشيارى، الوزراء: ٢١٩).

^٢ قدامة بن جعفر، كتاب الخراج وصناعة الكتابة وتحقيق دواخيه في كتاب المسالك والممالك لابن خردذبه، طبعة ليدن ١٣٠٦ هـ (١٨٥).

^٣ انظر ^٢ EI, "Diwān", vol. II, p. 334.

^٤ يقول الماوردي (احكام: ٧٤): "اول من افرد للظلمات يوما يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر عبد الملك بن مروان".

^٥ انظر المصدر السابق: ٧٤ - ٧٥.

^٦ انظر ^٢ EI, "Diwān", vol. II, p. 334.

المعتمد (٢٥٦-٢٧٩)^١ . كان تولي المظالم من امتياز الخليفة في العصر الاموي الا ان الخليفة كان يجلس لها لكي يحيلها الى القاضي، ما عدا عمر ابن العزيز الذي كان يعالجها شخصيا^٢ . ونحن نراه في رواية للجيشياري يشتكي من مراجعة عامل في الكوفة له في شأن المظالم^٤ . وفي العصر العباسي، كان الخليفة هو الذي يجلس للمظالم و ذلك حتى خلافة المهدي ، اذ تولى الوزير بعد ذلك هذه المهمة يعاونه فيها احيانا بعض المكاتب الذين يكلفهم بذلك^٦ . وكان يتولى المظالم احيانا القائد العسكري كما حصل مع بدر القائد سنة ٢٨٧^٧ .

وشبهه بديوان المظالم ديوان العرض على الخليفة وهو ديوان مستقل عن ديوان المظالم ، ومهمته عرض الرقاع التي ترد عليه لكي يوسع فيها فيما يراه مناسبا^٨ . وكان يتولى العرض احد المقربين من الخليفة^٩ . ويتولى ديوان المعاون ترتيب امور العامة وضبط التجاوزات

^١ انظر الجشياري، نصوص : ٨٥ واصبح هذا النهار هو الاحد في خلافة المقتدر (انظر الصابي، الوزراء : ١٠٧) .

^٢ انظر الماوردي، احكام : ٧٤ .

^٣ يقول الماوردي (احكام : ٧٤) : " اول من ندب نفسه للنظر في المظالم عمر ابن عبد العزيز" .

^٤ انظر الجشياري، الوزراء : ٥٥ .

^٥ انظر الماوردي، احكام : ٧٤ والصابي، الوزراء : ٢٢٢ .

^٦ انظر الصابي، الوزراء : ١٠٧ حيث يطلب ابن الفرات الوزير من صاحب ديوان الرسائل وصاحب المظالم الجلوس للمظالم في يوم اضطر لان يتغيب فيه

^٧ يقول الطبري (تاريخ : ١٠ : ٧٥) : " وفي يوم الاحد لعشر خلون من شهر ربيع الاخر قعد بدر مولى المعتضد في داره ونظر في امور الخاصة والعامة من الناس والخراج والضياع" .

^٨ يسمى هذا الديوان ايضا ديوان الرقاع (انظر ^٢ EI, "Diwān", vol. II, p. 334.

^٩ تولى هذا الديوان احيانا الحاجب لا الكاتب مثل الفضل بن الربيع مع الرشيد (انظر الجشياري، الوزراء : ٢٣٣، ٢٦٦) .

التي تحصل والتحقيق في الجنايات، وهو بمثابة الشرطة ويرتبسط
بديوان المظالم^١.

هذا الوصف العام للدواوين ينتمي تقريبا الى ما وصلت اليه البنية
الادارية قبل خلافة المقتدر اى حتى سنة ٢٩٥، الا ان انجاز هذا
الجهاز بدأ في بداية العصر العباسي وبالتحديد في خلافة ابي جعفر
المنصور، وقد خضع لتغيرات عدة قبل ان يبلغ هذا المستوى مسن
التعقيد والتشعب. ونذكر ان هنالك دواوين ظهرت لمدة معينة شسم
زالت كديوان الرقيق الذي ظهر في خلافة سليمان بن عبد الملك ثم لم
يعد له ذكر^٢، وديوان الشعر في خلافة الرشيد^٣. وديوان الغلمان
في خلافة المتوكل^٤. وتمثل خلافة المقتدر مرحلة اخرى تم فيها
احداث دواوين جديدة كديوان البر الذي احدثه على بن عيسى فسي
وزارته للمقتدر وخصص لحفر القنوات وترميم الابنية^٥ وديوانسي
المرافق والمصدرين، ويهتم ديوان المرافق بتحصيل فائض المسال
الذي يحدثه العمال لانفسهم، عن طريق التحقيق في الوثائق. اما
ديوان المصدرين فمهمته تدبير الاموال التي تكون السلطة قسود
صادرتها من بعض الكتاب او الوزراء^٦. ويرقى هذا الديوان السى
خلافة المنصور وكان اسمه ديوان المصادرة^٧. ونذكر انه فسي
بداية القرن الرابع الهجرى اصبح هنالك ديوان
خاص بالضيق المقبوضة عن ابنن الفسرات.

^١ انظر البطوسي، الاقتضاب في شرح ادب الكتاب (تحقيق عبد الله
البستاني، بيروت، ١٩٠١) ٥٩.

^٢ انظر الجهشيارى، الوزراء: ٤٩.

^٣ يقول الجهشيارى (المصدر السابق: ٢١١) عن ديوان الشعر "وكان يحيى
(البرمكي) قلده (ابى ايان بن عبد الحميد اللاحقى) ديوان الشعر...
فكان الشعراء يرفعون اليه اشعارهم في البرامكة، فيسقط ما يسرى
اسقاطه، ويعرض ما يرى عرضه...".

^٤ EI², "Diwān", vol II, p. 334.

^٥ انظر الصابى، الوزراء: ٢٨٦.

^٦ احدثه ابو حسن علي بن الفرات في وزارته الثانية للمقتدر سنة ٢٩٩
(انظر المصدر السابق: ٣١ وايضا D.Sourdel, Vizirat, Vol II, p. 408.)

^٧ انظر الصابى، الوزراء: ٣١١ وايضا D.Sourdel, Vizirat, Vol II, p. 741.

^٨ انظر EI², "Diwān", Vol II, p. 334.

^٩ انظر الصابى، الوزراء: ٤١ وايضا D.Sourdel, Vizirat, Vol II, p. 396.

ان تطور الجهاز الادارى يشير الى المرونة التي صار هذا الجهاز يتمتع بها في العصر العباسي وذلك بخاصة باستحداث المجالس والدواوين الجديدة تلبية للحاجة وطلباً للاختصاص الادق.

وكان الكُتّاب يتولون هذه الدواوين ويشير الى ان الكاتب كسسان يتولى احياناً اكثر من ديوان، وتأخذ على سبيل المثال صسورة الدواوين في نهاية القرن الثاني، في خلافة الرشيد، كما يعطينها الجهشيارى، يقول: "وتوفي الرشيد سنة اثنتين وتسعين ومثسسة، وعلى نفقاته وتدبير اموره الفضل بن الربيع، وعلى ديوان الرسائل، وديوان السر، وديوان الضياع، وديوان الصوافي، اسماعيل بن صبيح"^١. مما يشير الى تولي الكاتب اربعة دواوين دفعة واحدة. غير انه - بالمقابل - كان يحدث ان يشترك كاتبان في ديوان واحد اذ كان على ديوان الجند في خلافة الرشيد ابن الشخير الهذلي وعبد الله بن عبدة الطائي^٢.

ولم يتسم العمل في الدواوين بالفوضى، بل كان هناك دوام مسن المفروض ان يتقيد الكاتب به، ويرقى الالتزام بدوام معين السى العصر الاموى الى خلافة هشام بن عبد الملك^٣، غير اننا لا نعرف على الوجه الصحيح عدد ساعات العمل وما اذا كانت الدواوين ككل تخضع لدوام واحد ام ان الامر كان يختلف باختلاف الديوان والزمان، ولكننا نعرف ان العمل فسسي

^١ انظر الجهشيارى، الوزراء: ٢٧٧.

^٢ انظر المصدر السابق: ٢٧٧.

^٣ يقول الجهشيارى (المصدر السابق: ٦٤): "ان بعض كُتّاب يوسف بن عمر تأخر عن حضور ديوانه يوماً، فدعاه، فسأله عن تأخره، فعرفه ان مرضه ضرب عليه، فقلع له ضرسين". مما يشير الى ان رغبة الوالي بالالتزام الكاتب بالدوام بلغت حدّ القسوة، وان المرض لم يكن احياناً عذراً مقبولاً للتأخر او للتغيب.

الديوان كان منظماً بحيث سمح للكاتب بأخذ عطلة اسبوعية ، والجهشياري
يخبرنا انه في خلافة المهدي (١٥٨ - ١٦٩) جعل الخليفة يوم الخميس
عطلة للكاتب، ويوم الجمعة للصلاة^١ . ولكن المعتصم الغي هذا الرسم
واقترنت عطلة الكاتب على يوم الجمعة . غير ان الصابي^٢ ، يشير الى
ان الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩) ، جعل المخلصاء عطلة للكاتب بالاضافة
الى يوم الجمعة^٣ . لكن لا بد من التوضيح من ان العطلة لا تعني انه
لا يجوز الاستعانة بالكاتب ان جد امر ما ، فان الجهشياري يشير الى
ان موسى ابن ابي الزرقاء (والي فارس في خلافة المأمون) استدعى
كاتبه يوم الجمعة لحاجته اليه فلبى الكاتب طلبه^٤ .

ج - نماذج من ترتيب الديوان

لا بد بعد الفراغ من تعداد الدواوين من الاشارة الى طبيعة العمليات
الكتابية التي كان يقوم الكاتب بها ، وذلك لكي نعرف الموضوعات التي
تم اثباتها في سجلات الدواوين الرسمية وكيف خضعت للتقيد الكتابي
ونعول في هذا الفصل على الماوردي بخاصة ، وهو الذي افرد فصلاً كاملاً
في كتابه " الاحكام السلطانية " لترتيب الديوان .

يشتمل الديوان اولا على تفصيل كامل للاعمال . يقول الماوردي : " واما
القسم الثاني فيما اخص بالاعمال من رسوم وحقوق فيشتمل على ستسة
فصول : احدها تحديد العمل بما يتميز به من غيره ، وتفصيل نواحيه
التي تختلف احكامها ، فيجعل لكل بلد حدا لا يشاركه فيه غير
وتفصل نواحي كل بلد اذا اختلفت احكام نواحيه " ^٤ . ويشير الماوردي الى ان

-
- ١ انظر الجهشياري ، الوزراء : ١٦٦ .
 - ٢ انظر الصابي ، الوزراء : ٢٢ .
 - ٣ انظر الجهشياري ، الوزراء : ٣٠٢ .
 - ٤ الماوردي ، احكام : ١٩٦ .

الاعمال المتعلقة بجميع النواحي كانت متوفرة في ديوان السلطنة
اي في ديوان المركز. وبعد تفصيل النواحي يأتي تفصيل حكم
الاراضي الواقعة في ناحية من النواحي اذا كانت خاضعة
لحكم الخراج او لضريبة العشر. فإذا كان جميع الاراضي
اراضي عشر" . . . لم يلزم اثبات مسايحه لان العشر على
الزرع دون المساحة ويكون ما استؤنف زرع مرفوعا الى
ديوان العشر لا مستخرجاً منه".

نحن هنا اذن بأزاء نوعين من الكتابة : خراج الاحوال ، اي احوال
الارض ، اذا كانت ارض خراج او ارض عشر ، فيكون حكم الديوان
هو الشاهد على حال الارض، ولا يعول في ذلك على صاحب
الارض . فيعمد كاتب الديوان الى استخراج مسايح الارض فيمسحها
يتعلق بأرض الخراج وكذلك مبلغ المقاسمة . وثانياً : اثبات
الرفوع ، اي تسجيل ما يرفع الى الديوان من امور تتعلق
بالارض . ويتناول الاثبات بالنسبة لارض العشر انواع السزوع ،

وبالنسبة لارض الخراج مقادير الكيول بالنسبة للمقاسمة ، واجناس
الزروع اذا كان الخراج رزقا يذلف باختلاف الزروع .

ولا تقتصر مهمة الكاتب على ذلك بل يضيف اليها الماوردى اربعة
اشياء : يقول : " فالذى ندب له (كاتب الديوان) ستة اشياء :
حفظ القوانين ، واستيفاء الحقوق ، واشبات الرفسوسوع ،
ومحاسبات العمال ، واخراج الاحوال ، وتصفح
الظلمات " ^١ . اما حفظ القوانين فيكمن بالعمل على وصسوسول
حقوق بيت المال كاملة ، ويكون ذلك بأشبات حال الارض فسسوسي
ديوان الخادية ، وفي ديوان بيت المال . فيكسون اذن فسسي
ديوان المركز نسختان عن حال الارض . واما استيفساء
الحقوق فيكون على سبيل اقرار العمال بقبضها عن طريقسوسوق
العامليسن ^٢ . واشبات الرفسوسوع يكسون بمقارنة مسسا
يرفع الى ديوان الخراج من مساحة ومقارنتها بالاصول ، فاذا كانت

^١ انظر المصدر السابق : ٢٠٥ .

^٢ انظر تعريف العاملين (Collectors) في N.P. Aghnidès,
Mohammedan Theory of Finance (New York, 1916) p. 495.

موافقة لها اثبتت في الديوان، وان لم يكن لها اصول بالتحديد، بل كانت اصولها مقدرة، "عمل في اثباتها على قول رافعها"^١. امامحاسبة العمال فتم فيما يتعلق بأموال الخراج وليس بأموال العشر حسب مذهب الشافعي لان ابا حنيفة يرى محاسبتهم في اموال العشر. يرفع العامل الحساب اى القيمة المتحصلة من جباية الضريبة ويحم اثباتها في الديوان^٢. اما اخراج الاحوال "فهو استشهاد صاحب الديوان على ما ثبت فيه من قوانين وحقوق فصار كالشهادة..."^٣ ويستشهد صاحب الديوان اذا استدعي لذلك واذا دخلت الاعمال ريبة ويعول على السجلات ليثبت وجهة نظره^٤.

هذه هي باختصار العمليات الكتابية التي كانت تتم في اطار الديوان وهي خاصة بجباية الخراج. ونذكر ان ديوان الاعطاء - اى ديوان الجند - كانت مهمته نوعا آخر من العمليات الكتابية وقد ذكرها الماوردي كذلك بالتفصيل. فيكون ترتيب الجند على اساس الانتماء القبلي اذا كان الجند عربا، والعراقي اذا كانوا من غير العرب، كالترك والهند، واذا لم يكونوا اجناسا تم ترتيبهم حسب البلدان "واذا تميزوا بالاجناس او البلدان فأن كانت لهم سابقة في الاسلام ترتبوا عليها في الديوان ان لم تكن لهم سابقة ترتبوا بالقرب من ولي الامسر فأن تساوا فبالسابق الى طاعته"^٥.

^١ الماوردي، احكام : ٢٠٩ .

^٢ يرى كاهن (Islam I, p. 84) ان المبلغ المتحصل في الضريبة نادرا ما كان يرسل الى المركز فيلجأ المتعهدون الى ارسال ايصال بقيمة المبلغ يعرف المركز بموجبه الكمية التي يمكن ان يعتمد عليها عند الضرورة. ويشير الصابي، (الوزراء: ٨١) الى ان استخدام السفاتج كان شائعا وكان يسمح للسلطة المركزية بسحب المبالغ من كبار التجار اذ يستطيع هؤلاء بفضل علاقاتهم التجارية واتساع شبكة اعمالهم ان يستردوا الاموال من الاطراف .

^٣ الماوردي، احكام : ٣٠٧ .

^٤ انظر المصدر السابق : ٣٠٧ .

^٥ المصدر السابق : ١٩٥ .

هذا هو الترتيب العام في الديوان وهو ليس الترتيب الوحيد لأن هنالك ترتيبا خاصا هو، حسب الماوردي، "ترتيب الواحد بعد الواحد، يرتب بالسابقة في الاسلام، فأن تكافئوا في السابقة، ترتبوا بالدين، فأن تقاربوا فيه ترتبوا بالسن، فأن تقاربوا فيها ترتبوا بالشجاعة، فأن تقاربوا فيها فولي الامر بالخيار بين ان يرتبهم بالقرعة، او يرتبهم على رأيه واجتهاده".^١ اما تقرير الاعطاء فيكون حسب الكفاية. ويقول الماوردي: "والكفاية معتبرة في ثلاثة اوجه، احدها عدد من يعوله من الذراري والمماليك، والثاني عدد ما يرتبطه من الخيل والظهور والثالث الموضوع الذي يحلّه في الغلاء والرخص"^٢. وتكون هذه الامور مثبتة في سجلات الاعطاء.

ولا تقتصر العمليات الكتابية على هذين الديوانين، اي الخراج والاعطاء لكن الماوردي اقتصر على ذكرهما لسبب معالجة احكام الشرع لهما من حيث تعريفهما واقامة الحدود في ذلك.^٣

اخيرا تتطلب هذه العمليات الكتابية كتابا متخصصين يمارسون صناعتهم حسب قواعد تقنية وبلاغية يتفردون بمعرفتها ويحتكرون بفضلها صناعة الكتابة، وهذا ما سوف نفصل فيه القول في الفصل الرابع وانما علينا قبل ذلك ان نبحث في اثر تطور الجهاز الاداري في ظهور منصب اداري جديد يتولى رئاسة هذا الجهاز وهذا ما نعينه بالمرتبة الثانية.

^١ المصدر السابق : ١٩٥ .

^٢ المصدر السابق : ١٩٥ .

^٣ انظر المصدر السابق : ١٩٣ .

II - المرتبة الثانية (الوزارة)

تأتي المرتبة الثانية بعد مرتبة الخليفة ، ونعني بها في المرحلة الاولى - اى في مطلع العصر العباسي - معاونة الخليفة في تسيير الامور الادارية ، وفي مرحلة متأخرة نسبيا ، رئاسة دواوين الادارة . وكان لقب صاحب هذه المرتبة يذلل باختلاف المرحلة التاريخية ، كان يشار اليه في البداية بعدة تسميات منها : المدير للامور والمكلف بالعرض على الخليفة ، وكاتب الخليفة ووزيره ، ثم تغلب لقب الوزير على التسميات الاخرى واصبح يطلق على صاحب المرتبة الثانية بصورة مستمرة كما سوف نبين . وقد فضلنا استخدام عبارة صاحب المرتبة الثانية على لفظة وزير لان الاولى اكثر شمولا من الثانية بالنسبة لمذلل الفترات التاريخية التي يغطيها هذا القسم .

أ - الاقطاب المتنافسة على المرتبة الثانية

كان يدور حول المرتبة الثانية صراع بين عدة اطراف ، والاقطاب الاساسية المعنية بالصراع هي ، حتى مطلع القرن الرابع الهجري ، الكاتب والحاجب والقائد العسكري . ونستثنى من هذا الصراع القاضي ، ذلك ان القاضي لم يحتل رئاسة الدواوين ولم يتول مهمات ادارية ولم يطلق عليه ابدا لقب الوزير ولا يذكر التاريخ حتى العصر الذي ندرسه

أترقى معاونة الخليفة في تدبير شؤون الادارة الى العصر الاموي اذ كان الخليفة عادة يعين كاتبا يكتب بين يديه يلزمه ويشير عليه بالعمل الصواب بمنزلة عبد الحميد الكاتب من مروان بن محمد (انظر الجهشيارى ، الوزراء : ٧٢) .

ان قاضيا استطاع ان يصبح من الكتاب^١ . وهذا لايعني انه لم يكسب
للقاضي نفوذ واسع فاق احيانا نفوذ الوزير وذلك لاسيما في خلافتي
المعتصم والواثق عندما تمتع القاضي احمد بن ابي دؤاد بملازمة
الذليفة بصفته مستشارا في الامور السياسية^٢ ، والارجح ان نفسسوده
كان اقوى من نفوذ الوزير الذي كان آنذاك محمد بن عبد الملك الزيات
لكن الصلاحيات التي تمتع بها هذا القاضي - اعني ابن ابي دؤاد كانت
مؤقتة وقد شغل هذا المنصب لحاجة المؤمن اليه في تطبيق المحنسة .
وقد ازال المتوكل سيطرته بعد العودة الى التسنن اي حوالي سنة ٢٣٣^٣ .

يورد الصابي^٤ (الوزراء : ٣٢٢) ما يؤكد ذلك يقول : "قال ابو قاسم
الخاقاني في وزارته (٢٩٩ - ٣٠١) : اشرت على المقتدر بالله بتقليد
ابي الحسن علي بن عيسى الاشراف على مصر والشام فرأيته متكرها . . .
فاقبلت اصفه بالموالاته والثقة . . . فقال : هو كما تصف ولكن احفظني عليه
ان سمته تقلد وزارتي في أيام حامد بن العباس فامتنع وثقل عليسي
امتناعه وشاورته فيمن يراه لهذا الامر فقال : ابو عمر محمد بن يوسف
القاضي . فعلمت انه غشني ولم ينصح لي . فقلت : وما لمحمد بن يوسف
يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لعمرى انه عالم ثقة الا انني لو فعلت
ذاك لافتضحت عند ملوك الاسلام والكفر لانني كنت بين امرين : اما ان تتصور
مملكتي بانها خالية من كاتب يصلح للوزارة فيصغر الامر في نفوسهم ،
او اني عدلت عن الوزراء الى اصحاب الطيالس فانسب الي سوء الاختيار" .

^٢ انظر التتويحي ، الفرج بعد الشدة (تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر ،
بيروت ، ١٩٧٨) ١ : ٣٩٣ و ٢ : ٦٠-٦٥ .

^٣ انظر ابن الاثير ، الكامل ٧ : ٥٩ وأيضا C. Cahen, Islami, p.7.

المجال يحدثنا الجهشيارى ان كاتب المنصور كان عند توليه الخلافة عبد الملك بن حميد^١ . وقد كان ذلك رسماً لدى الخلفاء ، اذ همسهم يبادرون الى اختيار من يلزمهم على ان يكون هذا الذى يختارونوه هو كاتبهم . فاذا عجز كاتب الخليفة عن ملازمته فلا بد للخليفة من الاستعانة بغيره . وقد حدث انه عندما تعذر على عبد الملك بسن حميد - كاتب المنصور - التفرغ للخليفة امره الخليفة باتخاذ من ينوب عنه اذا غاب عن حضرته " . . . واتخذ ابا ايوب المورياتسي" . فاصبح ابو ايوب هذا هو الشخص الملازم للخليفة دون منازع . ويقول الجهشيارى : " واعتل عبد الملك (بن حميد) من نقرس كان به ، فلم يزل امر ابي ايوب يعلو ، ومحلله من ابي جعفر يزيد حتى قلستده وزارته ، وفوض اليه امره كله"^٢ .

مما يشير الى ان مهمة ابي ايوب لم تنحصر في ملازمة الخليفة بسبل انه كان يقوم بالمهام الادارية . لكن عندما نكب المنصور ابا ايوب سنة ١٥٣ وزع مسؤولياته على عدد من الاشخاص ، يقول الجهشيارى ان المنصور قلد كتابه الرسائل والسر ابان بن صدقة ، وقلستده ضياعه صاعدا مولاه ، كما انه قلد الربيع بن يونس - مولاه - نفقاته

^١ انظر المصدر السابق : ٩٦ .

^٢ المصدر السابق : ٩٧ .

والعرض عليه^١ . واصبح على الارجح الاشراف على الدواوين والفصل في القضايا الادارية ، بصورة نهائية ، عائدا الى الذليفة المنصور وذلك وفقا لما يرويه الجهشيارى حول اصرار المنصور على معاملة الشؤون الادارية وتردده باستمرار على الديوان^٢ . ذلك كله يشير الى ان الوزارة لم تكن ركنا ثابتا من اركان السلطة . وقد عرف المنصور اركان السلطة على انها متمثلة بالقاضى وصاحب الشرطة وصاحب الخراج وصاحب البريد دون أن يأتي على ذكر رئاسة الدواوين او الوزارة^٣ .

^١ المصدر السابق : ١٢٥ .

^٢ انظر الجهشيارى ، الوزراء : ١٣٩ - ١٤٠ .

^٣ يقول ابن الاثير (الكامل ٦ : ٢٦) : " كان المنصور يقول : مسما احوجني ان يكون على بابي نفر لا يكون على بابي اعف منهم همم اركان الدولة ولا يصلح الملك الا بهم . اما احدهم فقااض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القسوى ، والثالث صاحب خراج يستقي ولا يظلم الرعية . ثم عرض على ابي بصير السبابة ثلاث مرّات يقول في كل مرة : آه ، آه . قيل : ما هو يسما أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصّحة " .

أما في خلافة المهدي فنرى تطورا في مفهوم المرتبة الثانية التي احتلها أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار من سنة ١٥٩م بصفته كاتباً حائزاً على لقب الوزارة ومدبراً لشؤون الإدارة العامة، وكان يتولى بنفسه تقليد الكتاب والعمال الأعمال مما يشير إلى سعة نفوذه. ثم استوزر المهدي بعده كاتباً آخر هو يعقوب بن داود سنة ١٦٣م واستوزر أيضاً الفيض بن أبي صالح وهو رجل يشيهر الجهشيارى إلى كرمه وغناه لكنه لا يشير إلى حظه من الكتابة.

وترقى الخطوة الحاسمة بالنسبة لنمو المرتبة الثانية إلى خلافة الرشيد عندما تولاهما يحيى بن خالد البرمكي الوزير سنة ١٦١م، فأصبح صاحب الأمر والنهي^٥ وانتقل جانب من السلطات الإدارية فعلياً من الخليفة إلى الوزير. ويروى الجهشيارى أن "كانت الكتب التي تنفذ من ديوان الخراج تؤرخ باسم يحيى بن خالد وكان أبو العباس الطوسي (صاحب ديوان الخاتم) يتعقد في ختم الكتب، فشكا يحيى إلى الرشيد تأخر الكتب فأمره أن يكاتب العمال عن نفسه،

^١ يقول الجهشيارى (الوزراء: ١٤١): "ولما تقلد المهدي الخلافة قلده أبا عبيد الله معاوية وزارته ودواوينه... وكان من كتاب أبي عبيد الله عبيد الله بن عمران مولى مذحج، ويزيد الاحول... ومحمد بن سعيد بن عقبة، قلده الخراج بمصر، وغيرهم".

^٢ انظر المصدر السابق: ١٥٨-١٥٩.

^٣ انظر المصدر السابق: ١٦٤.

^٤ انظر المصدر السابق: ١٧٧.

^٥ يقول الجهشيارى (المصدر السابق: ١٧٧): "وكانت الدواوين كلها إلى يحيى بن خالد مع الوزارة، سوى ديوان الخاتم فإنه كان إلى أبي العباس الطوسي". وكان الرشيد يخاطب يحيى قائلًا: "يا أبة، انصبت اجلستني هذا المجلس بركة رأيك". كذلك كان لابناء يحيى منزلة من الرشيد "فكان الرشيد يسمي جعفرًا (بن يحيى) أخي، ويدخله معه فسي شوبه... (المصدر السابق: ٢٠٤).

وأمر كاتبه ان يكتب عنه في المهمم ، وان يؤرخ الكتب باسم الكاتب^١ .
وهذه الرواية تشير بوضوح الى ان مكاتبة العمال انتقلت من الخليفة
الى الكاتب الوزير بارادة الخليفة نفسه ، وان كاتب الرسائل أفاد
شخصيا من انتقال المسؤوليات هذا ان اصبحت يؤرخ الكتب ويكتب عمن
الخليفة في المهمم . لقد افاد آل برمك عامة لاسيما الذين احتلوا
مراكز ادارية^٢ من نمو ملاحيات الوزير يحيى وحصل مع الكتاب
العاملين في دواوينهم ما حصل مع كتاب يحيى من اتساع في النفوذ
والصلاحيات^٣ - لكن المرتبة الثانية الثانية

^١ المصدر السابق : ١٧٨ .

^٢ تولى جعفر (بن يحيى) المظالم (انظر المصدر السابق : ٢١٠ - ٢١١)
وكان يتقلد ايضا المغرب كله وقلده الرشيد بريد الآفاق ودور الضرب
والطرز في جميع الكور ثم قلده خاتمه (انظر المصدر السابق : ١٩٠ ،
٢٠٤ ، ٢٠٧) .

^٣ يورد الجهشيارى رواية اخرى تشير الى توسع صلاحيات الكاتب الذى
يكتب بين يدي صاحب ديوان المظالم ، يقول (المصدر السابق : ٢١٠-٢١١) :
"لم يكن للكتاب في ذلك الامر (اي التوقيع) شيء اكثر من ان يكتبوا
تلك الجملة من التوقيع الفاظا تشرحها ويقرب فهمها من العامة ،
ولا تخرجها عن معنى قصد الرئيس ، الى أيام الرشيد فان المتظلمين
كثروا على باب جعفر (بن يحيى) وتأخر جلوسه اياما ، ثم جلس وكانت
القصص قد كثرت فنفض اكثرها ، وجاءه رسول الرشيد يأمره بالمصير
اليه . فقال للرسول : قل له : يا سيدى الساعة اجيء ، ونظر فيما بقي
فجاءه الرسول ثانية يستحثه وكان في القصص قصة طويلة ، دقيقة
الخط ، رديئة ، فوافاه الرسول وهي في يده . . . وكره . . . ان تطرح
فيما لم ينظر فيه فوق على ظهرها : يعمل بذلك بما يعمل في مثله
على سنن الحق وقصده وجهة الانصاف وسبيله انشاء الله . فورد على
الكتاب ذلك ما لم يرد مثله وامتثلوه ثم صار ذلك رسما للرؤساء ."
وتشير هذه الرواية بوضوح الى تحول الكاتب في ديوان المظالم من
كاتب لفظ الى كاتب حكم ينظر في الرقاع ويطبق الاحكام الخاضعة بها .

المتتمثلة برئاسة الدواوين لم تعد منصباً ثابتاً بعد نكبة البرامكة سنة ١٧٨ إذ ضرى الرشيد بعد هذا التاريخ يقسم مسؤوليات الوزير السابق يحيى فيما بين الكتاب دون ان يوكل امره كله الى احدهم . والجهشياري يعلمنا ان الرشيد قلد اسماعيل بن صبيح ديوان الرسائل وديوان السر ودواوين اخرى .

وقد حل في المرتبة الثانية في خلافة المأمون الفضل بن سهل - كاتب المأمون - وقد تمتع بلقب ذي الرياستين ، "رياسة الحرب ورياسة التدبير" ، وتعتبر هذه المسؤولية المزدوجة محاولة لضم المسؤوليات العسكرية الى المسؤوليات الادارية . وتأمير الكاتب لم يكن امراً جديداً إذ يروى الجهشياري ان يحيى البرمكي " . . . أول من أمر من الوزراء" .^٣ غير ان محاولة ضم هاتين المسؤوليتين انتهت بمقتل الفضل بن سهل وعاد لقب الوزير يطلق على صاحب المرتبة الثانية دون ان يكون له صفة عسكرية وذلك على الاقل في الفترة التي تلت مقتل الفضل .^٤

وتميّزت خلافة المعتصم والواثق والمتوكل بظهور الوزير الكاتب محمد بن عبد الملك الزييات الذي تولى شؤون الادارة من سنة ٢٢٢ حتى سنة ٢٣٣ . ولم يكن الوزير يحظى بملازمة الخليفة إذ كان القاضي ابن ابي دؤاد يتمتع بهذا الامتياز كما سبق ورأيناه . ونشير الى انه تمت في خلافة المتوكل قفزة الى الامسّام في الفصل بين

^١ انظر المصدر السابق : ٢٥٧ ، ٢٧٧ .

^٢ المصدر السابق : ٣٠٥ - ٣٠٦ .

^٣ المصدر السابق : ١٧٧ .

^٤ يعود ضم الامارة الى الكتابة ليبرز مع عبّيد الله بن يحيى بسمن خاقان وزير المتوكل سنة ٢٣٧ إذ يذكر ابن الاثير (الكامل ٧ : ٤٨) ان عبّيد الله كان قائد عدد من الجند الشاكرية .

ملازمة الخليفة والاشراف على الدواوين، فقد كان الفتح بن خاقان سفير الخليفة وحظي به، ولم يتول له شؤون ادارية هامة. ويشيخسسر الطبرى الى ان الفتح بن خاقان "٠٠٠ تقلد بريد سامراء وقهرمسة بلاط الهاروني"^١، اما كاتب الخليفة فكان عبيد الله بن يحييسسى ابن خاقان وذلك سنة ٢٣٦هـ.

وتلي هذه الفترة مرحلة من عدم الاستقرار السياسي والنفسيود العسكرى تحجمت فيه رئاسة الدواوين واقل نجم الوزارة بسبب تغلب العنصر العسكرى كما سوف نرى، واستمر ذلك حتى تولي المقتدر بالله الخلافة سنة ٢٩٦هـ.

ولقد بلغت المرتبة الثانية اوجها في خلافة المقتدر مع ابيسن الفرات وعلي بن عيسى ابن الجراح الوزيرين. واصبح لقب الوزارة يطلق باستمرار على صاحب المرتبة الثانية. ولقد انعكس هذا الوضع على الجهاز الادارى وعلى الكتاب الذين توسعت صلاحياتهم. ونذكر مثلا ان الجهاز الادارى المكوّن من الكتاب اصبحت له صفة استشارية وصلاحيّة تقرير امور مهمة كالغاء ضريبة ما مثلا: يذكر الصابى ان علي بن عيسى الوزير شاور الكتاب وجمعهم الى القضاة لمناقشة مسألة الغاء ضريبة التكملة^٣، وهي الضريبة التي فرضها المهدي على اهل الخراج في فارس وىروى الصابى ان الكتاب

^١ الطبرى، تاريخ ٩: ١٨٤، ٢٢٤ - ٢٢٥. وبلاط الهاروني: يقع على طريق مكة (انظر ابن الاثير، الكامل ٧: ٣٠٠).

^٢ انظر ابن الاثير الكامل ٧: ٥٦.

^٣ ضريبة التكملة ضريبة خاصة ببلاد فارس وهي الزيادة التي وقعت على اهل الخراج لان بعض ارباب الخراج تركوا البلاد لشقله عليهم ففزع خراج هؤلاء على الباقين واطيفت قيمته على خراجهم سوى ارباب الشجر اى الاشجار المثمرة فانه قد تم اعفاؤهم من الخراج والتكملة بمبادرة من الخليفة المهدي واستمر الامر على هذه الحال حتى خلافة المقتدر اذ تدمر اهل فارس من وطأة التكملة وعرضوا على الوزير علي بن عيسى اعفاءهم منها بان يفرض الخراج من جديد على ارباب الشجر (انظر الصابى، الوزراء: ٣٤٠ - ٣٤٢ والجيشيارى الوزراء: ١٥١).

قرروا إلغاء الضريبة فتم ذلك^١.

ولابد ان نذكر ان المرتبة الثانية شهدت ازمة في خلافة المقتدر مصدرها عدم توفر كاتب قادر على تولي المهمات الادارية راغب في المرتبة الثانية معاً، وذلك بسبب تعقد الاوضاع الادارية السياسية التي يصعب النهوض بها. هذا ما حصل سنة ٣٠٧ اذ لجأ الخليفة المقتدر الى تعيين وزير ليس كاتباً هو حامد بن العباس وقد تسم على اساس ذلك الفصل بين المرتبة الثانية (الوزارة) ورئاسة الدواوين اذ لم يكن الوزير هو المتولي للشؤون الادارية بل علي بن عيسى الكاتب^٢. وكان لعلي بن عيسى بن داود بن الجراح صلاحيات واسعة في اتخاذ القرارات الادارية لكنه لم يكن وزيراً ولم يحل في المرتبة الثانية. ان هذه المرتبة بحاجة الى صاحب كفاية وهذا لم يكن متوفراً دائماً. وحتى في حال كان صاحب المرتبة الثانية كاتباً فقد كان يقع احياناً في التقصير بالنسبة لضبط الامور فتسود الفوضى. قد يبلغ هذا حدا بعيداً كما حدث سنة ٢٩٩ مع محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الكاتب (وزي المقتدر)، اذ يروي الصابي انه (اي عبيد الله) "بسط يده وايدي اولاده وكتابه بالتوقيعات والصلات والاطلاقات والاقطاعات والتسويغات وتخفيف^٣ المعاملات واخذ المرافق على اضاءة الحقوق فسذفت الوزارة".

^١ يقول الصابي: (الوزراء: ٣٤١ - ٣٤٢) "قال الكتاب: ان كسان المهدي شرط شرطاً لمصلحة رأها في الحال ثم زالت سقط الشرط ورجع الحكم الى الاصل". (والاصل عدم فرض التكملة).

^٢ ابن الاثير، الكامل ٨: ١١٢.

^٣ الصابي، الوزراء: ٢٦٣، يصف الصابي (الوزراء: ٢٣٨) علي بن محمد بن الفرات الذي كان صاحب كفاية، يقول: ومن رسمه (اي علي بن الفرات) ان يقدوا اليه الكتاب فيوافقهم على الاعمال ويسلم الي كل منهم مما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد وصايته به. ثم يروحون اليه بما يعملونه من اعمالهم فيوافقهم عليها وعلى ما اخرجوه من الخسروج وامضوه من الامور ويقيمون الي بعض من الليل واذا خد العمل وقسد عرضت عليه في اثناء الكتب بالشفقات والتسبيبات والاطلاقات والحسابات نهض من مجلسه وانصرفت الجماعة بعد قيامه".

ب- كاتب ولي العهد

كانت هناك عدة عوامل جعلت الكاتب اوفر حظا من غيره في احتلال المرتبة الثانية من هذه العوامل جعل هذه المرتبة -اي الوزارة- تعود تلقائيا لكاتب ولي العهد. ونحن نعرف ان معاوية عين ابنه يزيد خليفة من بعده ووضع بذلك الاسس البدائية لنظام وراثي. وقد يكون معاوية قام بهذه المبادرة لاحباط محاولة الاستيلاء على الخلافة من قبل فرقاء عدة^١. وبعد معاوية اتبع الخلفاء رسميا يقضي بتعيين ولي عهد لهم، او حتى اولياء عهد، يعدلون سسدة الخلافة بعدهم. فهارون الرشيد عقد لولده الثلاثة من بعده وهم محمد (الامين) وعبد الله (المأمون) والقاسم (المعتصم)^٢. ان ولى العهد هو - من حيث المبدأ - خليفة المستقبل ولا يمكن شرعا - من حيث المبدأ - خلعه ولا حمله قسرا على التنازل.

وقد نشأت في بداية العصر العباسي ظاهرة ضم كاتب الى ولي العهد، يرافقه ويخص به على ان يتدرب ولي العهد على الخلافة والكاتب يرافقه على تدبير الشؤون الادارية، حتى اذا صار ولي العهد خليفة انتقل كاتبه الى رئاسة الدواوين مباشرة كما سوف نرى. ونشير الى ان هذه الظاهرة ترقى في الزمن الى خلافة المنصور^٣، وليس السس في الفترات السابقة، اذ لا يشير الجهشيارى اليها في العصر الامسوى،

^١ هذا ما يرجحه لامنس (Mol'awia, p. 283) في قوله ان معاوية رأى انه لا يمكن القبض على زمام الحكم في الدولة الاسلامية الا عن طريق تعيين خليفة له .

^٢ انظر الجهشيارى ، الوزراء : ٢٦٥ .

^٣ انظر المصدر السابق : ١٢٦ - ١٢٩ .

وكل ما كان ولي العهد يحظى به في العصر الاموي على حسب قول لامنس - هو ان يقوم مؤدب بتلقيه الآداب على انواعها ، كما حدث مثلا مع يزيد بن معاوية^١ . وذلك امر لنستدل على وجوده في رسالة عبد الحميد الى ولي العهد والتي فيها اتى على ذكر المؤدبين .

ويضع الجاحظ عبد الحميد الكاتب في فئة المعلمين^٢ ، وهذا امر لافت للنظر اذ نعلم ان عبد الحميد كان يكتب للخليفة مروان بن محمد . وفي جميع الاحوال كان يحدث في العصر العباسي ان يتحوّل المعلم الى كاتب كما حصل مع كاتب المهدي وهو ولي عهد ، اعني معاوية بن عبيد الله (يسار) وينقل الجهشيارى تلاسنا حدث بين معاوية بن عبيد الله هذا والثقيفي البصرى الذى كان في صحابة المهدي ، قال : " فتكلم الثقيفي يوما (في مجلس الخليفة المهدي) فلحن ، فقال له ابو عبيد الله : اتجالس امير المؤمنين بالملحون من الكلام ؟ اما كان يجب عليك ان تقوّم من لسانك فقال له الثقيفي : انما يحتاج الى استعمال الاعراب في جميع الكلام ، يا ابا عبيد الله المعلمون ، لينفقوا عند من التمسهم لتعليم ولده ، يعرض بأبي عبيد الله ، لانه كان معلما في اول امره^٣ . وتشير هذه الرواية الى ان تحوّل المعلم الى كاتب

^١ انظر H. Lammens, Mo'âwia, p.350 ولم يصلنا اسم المؤدب الذى خصّ به يزيد بن معاوية ونستطيع ان نتساءل ما اذا كان العسبرب اخذوا مبدأ الحاق مؤدب باولادهم عن البيزنطيين .

^٢ يقول عبد الحميد في الرسالة الى ولي العهد (في رسائل البلغاء : ١٧٣ - ١٧٤) : " لو كان المؤدبون اخذوا العلم من عند انفسهم ، او لقنوه الهاملا من تلقائهم ، ولم نصبهم تعلموا شيئا من غيرهم ، لنحلناهم علم الغيب " . ويشير لامنس (Mo'âwia, p. 236) الى ان المؤدبين في العصر الاموي كانوا من اهل الذمة او من الموالي وكانت مهنتهم تعتبر مهينة بالنسبة للفاتحين .

^٣ انظر الجاحظ ، البيان والتبيين (تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٤٩) ١ : ٢٥١ .

^٤ الجهشيارى ، الوزراء : ١٤٥ .

كان يعتبر ترقيا في المنزلة الاجتماعية وهذا امر يشير الى تمايز
الوظيفتين^١.

ونذكر ان مبدأ تعيين كتاب يكتبون لاولاد الخليفة لم يقتصر على
اولياء العهد بل تعداهم الى غيرهم من اولاد الخليفة ، ونذكر مثالا
على ذلك ان الخليفة المنصور قلد معاوية بن عبيد الله بن يسار
كتابة المهدي^٢ وعين فضيل بن عمران . يكتب لابنه جعفر ويقوم بامره
بمنزلة ابي عبيد الله مع المهدي .

ولقد كان كاتب ولي العهد يعتبر مرشحا للمرتبة الثانية ، وهذا
على الاقل ما يشير اليه الجهشياري في رواية يستذكر فيها خساند
ابن برمك خوف ابي عبيد الله معاوية من مواجهة الخليفة المنصور
قائلا: " اذت ترشح نفسك لتدبير الخلافة وقد خيرك هذا الامر الصغير"^٣
وفعلا اعتلى ابو عبيد الله منصب الوزير . ويشير الجهشياري السسي
انه " لما تقلد المهدي الخلافة قلد ابا عبيد الله وزارته ودواوينه
في سنة تسع وخمسين ومائة"^٤ . وهكذا حدث مع يحيى بن خالد بن برمك ،

اكانت وظيفة المعلم تعتبر مهينة عند العرب وكان لدى العامة مثل
يقول: " فلان احمق من معلم كتاب" (انظر الجاحظ، البيان والتبيين ١ : ٢٤٨) .
ويذكر الجاحظ بيتين في هجاء المعلمين
"وكيف يرجى الرأي والعقل عند من يروح على انثى ويغدو على طفل"

انظر الجهشياري، الوزراء : ١٢٧ .

^٣ المصدر السابق : ١٢٩ .

^٤ وكان سبب خوف ابي عبيد الله انفاقه مبلغا هائلا من المال عند
انفاذه الى الري مع المهدي ولي العهد وطلب المنصور برفع الحساب
اليه (انظر المصدر السابق : ١٢٧) .

^٥ المصدر السابق : ١٤١ .

فانه كتب لهارون الرشيد وهو ولي عهد^١ شام احتل المرتبة الثانية في خلافته .

واول مهمة يوكل بها كُتاب اولياء العهد هي تنفيذ الوصية التي يكون الذليفة قد وضعها والتي يصبح بموجبها ولي العهد ذليفة . ونقع في امثلة معينة على سعي كاتب ولي العهد الى تنصيب صاحب^٢ الخلافة . هكذا نرى ابا عبيد الله معاوية ، كاتب المهدي ولي عهد المنصور ، يجهد لينتزع من ولي عهد ابي العباس السفاح عيسى بن موسى تنازلا يتولى المهدي بموجبه الخلافة قبل عيسى بن موسى ، ويقول الجهشيارى : " روى ان عيسى بن موسى لما اجسب المنصور الى ان يخلع نفسه من التقدم في ولاية العهد ، وان يقدم المهدي على نفسه ، امره ابو جعفر ان يخرج الى الناس فيخاطبهم بذلك ، فخرج ومعه ابو عبيد الله كاتب المهدي : فدخلا المقصورة في المسجد الجامع ، فقال عيسى : اني قد سلمت ولاية العهد للمهدي محمد بن امير المؤمنين وقدمته على نفسي ، فقال عبيد الله : ليس هكذا ايها الامير ولكن قل لحدقه وصدقته . واخبر بما رغبت فيسه واعطيت ، فقال : نعم ، قد بعث نصيبي من تقدمي في ولاية العهد من عبد الله امير المؤمنين لابنه محمد المهدي امير المؤمنين بعنده بعشرة آلاف الف درهم . " . ففي هذا المثل نرى كاتب ولي العهد يدافع عن صاحبه المهدي لكي يصير الذليفة التالي مباشرة . ولاشك ان تقديم المهدي على عيسى بن موسى كان امرا في صالح كاتبه الذي كان من المتوقع ان يحتل المرتبة الثانية . وتصب جهود كاتب ولي العهد اجمالا في اتجاه ضمان بلوغ ولي العهد الخلافة ، ويشير الجهشيارى الى ان موسى الهادي " . . . تنكر لهارون الرشيد (ولي عهد المهدي من بعده) ، وعمل على خلع وتقليد ابنه جعفر بسن

^١ يقول الجهشيارى (المصدر السابق : ١٥٠) : " اغزى المهدي ابنه هارون الصائفة في سنة ثلاث وستين ومائة ، وانفذ معه خالد بسن برمك ، وقلد كتابته ونفقاته وتدبير امر عسكره يحيى بن خالد " .

^٢ المصدر السابق : ١٢٦ - ١٢٧ ، وحصل ذلك سنة ١٤٦ .

موسى وهو طفل، فعزم هارون على اجابته ، فمنعه يحيى بن خالد (كاتبه) . . . ولم يزل به حتى شبعته^١ . ان يحيى بن خالد هو هنا بمشابة المسؤول عن تنفيذ وصية الخليفة التي تنص على ان يتولى هارون الرشيد الخلافة ، واليه يعهد باتمام التعيين. واذا سعى كاتب ولي العهد الى تقض وصية سابقة ، كما فعل ابو عبيد الله معاوية بعيسى بن موسى ، فانه يعمل ضمن الحدود المشروعة ، على الاقل ظاهريا ، بجعل عيسى بن موسى يعلن تقديمه المهدي على نفسه في الخلافة^٢ .

غير ان هذا الاسلوب الذى اتبعه الكتاب لبلوغ المرتبة الثانية ، وهو الكتابة لولي العهد ، لم يكن يشكل ضمانا تامة للكاتب فسي انه سوف يستمر في هذه المرتبة لدى تولى ولي العهد الخلافة . ونذكر في هذا الصدد ان جعفر بن يحيى البرمكي كتب للمأمون وهو ولي عهد لكنه لم يحتل المرتبة الثانية^٣ . ونذكر كذلك ما حدث لابي عبيد الله معاوية (وكان كاتباً للمهدي عندما كسان المهدي وليا للعهد) فان المهدي استوزره اول الامر ثم ما لبث ان استبدل به يعقوب بن داود سنة ١٦٣^٤ ، ومثل ذلك ما حدث ليحيى البرمكي عندما تكبه الرشيد على ما كان عليه من منزلة وسلطة^٥ .

^١ المصدر السابق : ١٦٩ - ١٧٠ .

^٢ انظر المصدر السابق : ١٢٧ .

^٣ انظر المصدر السابق : ٢١١ ، وقد احتل هذه المرتبة بدل جعفر الفضل ابن سهل (انظر المصدر السابق : ٢٩٢) .

^٤ انظر ما سبق ص : ٤٦ .

^٥ انظر المصدر السابق : ٢٣٤ .

لكن الى جانب ذلك برزت عوامل اخرى عملت على تقويض هذا الاسلوب منذ خلافة المتوكل وهي عوامل تتصل بنمو نفوذ القادة الاشراف وتدخلهم في مسألة تنصيب الخلفاء وخلعهم كما حصل مع الخليفة المتوكل الذي قتل على يد احدهم^١ ، يضاف الى ذلك تدخلهم فسي شؤون الادارة ومحاولتهم الحلول محل الكاتب في تصريفها كما سوف نرى، بل ان الكتابة لاحد القادة العسكريين اصبحت في بعض الاحيان كفيلة بان تجعل الكاتب المذكور وزيرا اكثر من الكتابة لولي العهد، فبهذه الطريقة احتل سليمان بن وهب كاتبا القائسد التركي ايتاخ المرتبة الثانية في خلافة المعتمد سنة ٢٦٣^٢ وحتى عندما قويت المرتبة الثانية المتمثلة بالوزارة في اواخر القرن الثالث وبداية الرابع فان استقلالها عن الخلافة بصورة نسبية جعل مسألة تنصيب الوزير لاتخص الخليفة وحده ، فيمكنه بالتالي توليتها كاتبه وهو بعد ولي للعهد، وانما تخص ايضا عددا من القسسادة العسكريين المتنفذين ومن المقيمين في دار الخلافة كما سوف نرى.

٢ - الحاجب

نافس الحاجب^٣ الكاتب على المرتبة الثانية ذلك انه لم يتم تحديد الحاجب بالنسبة للصراع على المرتبة الثانية قبل خلافة الامين كما سوف نرى. يروى الجهشيارى ان المنصور استوزر الربيع بن يونس - موله - وقد تمتع بلقب الوزارة مع انه ليس كاتبا بل حاجب^٤ . ثم عزل موسى الهادي الربيع عن الوزارة منذ توليه الخلافة

^١ انظر ابن الاثير، الكامل ٧: ١٣٧، ص ١٣٧. انظر ايضا الجهشيارى، ص ١٣٧.

^٢ انظر المصدر السابق: ٧: ٣١٠.

^٣ انظر مقال D. Sourdel, "Hadjib", in El², vol.III, p.47.

^٤ انظر الجهشيارى، الوزراء: ١٣٥، وانظر ايضا D. Sourdel, Vizirat, vol. I, p.98.

سنة ١٦٣ واقره على دواوين الازمة وجعل وزيره ابراهيم بن ذكوان الحرازي الاعور^١.

ونشير كذلك الى ان الرشيد استعان بعد نكبة البرامكة بالفضل ابن الربيع الحاجب^٢. والظاهر ان تولي الحاجب للمرتبة الثانية قد ادى نوعا ما الى انحطاط المناصب الادارية الاخرى، اذ لم يعد القيمين عليها من الكتياب بل من الخدم الذين لم يكونوا مهيبين لتصريف الامور الادارية^٣، مما يشير الى ان الحاجب عندما احتل المرتبة الثانية لم يستطع ان يملأ فراغ الكاتب وان الدواوين ظلت تفتقر الى رأس مدبر لها يكون قادرا شأن يحيى بن خالد البرمكي. لقد استمر الفضل بن الربيع في المرتبة الثانية الى خلافة الامين سنة ١٩٨. ويرى دومينيك سورديل ان استمرار الفضل في هذه المرتبة ليس - كما يراه البعض - انتصارا للتيار العربي على التيار الفارسي. ويرى سورديل كذلك ان العداء بين الفضل بن الربيع والبرامكة ليس خلافا على لون الجهاز الاداري - هل هو فارسي ام عربي - بل انه استمرار للعداء القائم بين الحاجب والكاتب وان حلول الفضل في هذه المرتبة هو انتصار للحجابسة على الكتابة^٤. ويروى الجهشيارى في هذا المجال ان الخليفة الامين كان يحط من قدر كاتبه يحيى بن سليمان ويرفع من قدر حاجبه، وقد قال مرة مخاطبا كاتبه (اي يحيى بن سليمان): ".... انت رجل مهذار لست بذى رأى مصيب، والرأى الى الشيخ الموفسق

^١ انظر المصدر السابق: ١٦٧.

^٢ انظر المصدر السابق: ٢٣٣، ٢٧٧.

^٣ يقول الجهشيارى (المصدر السابق: ٢٦٥) "وذكر الفضل بن مروان ان امور البريد والاخبار في ايام الرشيد (بعد نكبة البرامكة) كانت مهملة، وان مسرورا الخادم كان يتقلد البريد والخراطة ويخلفه عليه ثابت الخادم". قال: فحدثني ثابت ان الرشيد توفي وعندهم اربعة آلاف خريطة لم تفض".

D. Sourdel, Vizirat, vol. I, p. 177.

^٤ انظر

والوزير الناصح، قم فالحق بمدادك واقلامك. يعني محمد (الاميسن)
بهذا القول الفضل بن الربيع" ^١.

ولقد ازداد نفوذ الحاجب بشكل ملحوظ بعد مقتل المتوكل سنة ٢٤٧. وأصبح الحاجب ينتمي الى فئة الجند ويمثل السلطة العسكرية في دار الخلافة. لكن تولي الحاجب شخصيا للمرتبة الثانية لم يعسد امرا واردا واتخذ تدخلكه في الصراع على المرتبة الثانية شكسلا آخر اشبه بالتدخل العسكري في الشؤون الادارية كما سوف نرى ^٢. وقد برز للكاتب منافس آخر على المرتبة الثانية في شخص القائد العسكري.

٣ - القائد العسكري

أ- حلول القائد العسكري في المرتبة الثانية

لابد قبل التطرق الى تورط القائد العسكري في الصراع على المرتبة الثانية من ذكر التحولات التي اصابته القوات العسكرية.

نعرف ان القوات العسكرية كانت تتشكل في خلافة المنصور من عناصر خراسانية في الاغلب وكانت آنذاك بقيادة ابي مسلم حتى مقتل ابي مسلم في خلافة المنصور ^٣. ونعرف ان المأمون استعان بجيوش طاهسر ابن الحسين الخراسانية للهجوم على بغداد والاستيلاء على الخلافة من الاميسن اخيسه ^٤. ويروى الجاحظ ما يشير الى ان الجسسزء

^١ الجهشيارى، الوزراء: ٢٩٢.

^٢ لايعني تحديد مسؤوليات الحاجب وتنحيته جانبا. بالنسبة للمرتبة الثانية انه قد تم تحييده بالنسبة للصراع القائم. وقد ظسسل الحاجب يسعى لتقوية نفوذه انما من موقعه حاجبا من دون ان يسعى لانتزاع المرتبة الثانية. واذا حاول ذلك فانه يندزعها لكاتب مسن الكتاب يكون مواليا له (انظر ما يلي ص: ٦٣).

^٣ انظر ابن المقفع، رسالة الصحابة في رسائل البلغاء لمحمد كسررد علي، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٥٤: ١١٩.

^٤ انظر ابن الاثير، الكامل ٦: ٢٦٤ - ٢٦٥، ٢٧٨ - ٢٨١.

الاساسي من القوات المسلحة في خلافة المأمون كان من خراسان^١ . ويروى ابن الاثير ان المأمون كان يسعى في اواخر خلافته الى تشكيل جيش ينتمي عناصره الى عدة بلدان. يقول^٢ : " في هذه السنة (٢١٨) . . . وجه (المأمون) ابنه العباس الى طوانة^٣ وامره ببنائها . . . وكتب السيسى البلدان ليفرضوا على كل بلد جماعة ينتقلون الى طوانة واجرهم لهم لكل فارس مائة درهم ، ولكل راجل اربعين درهما^٤ . لكن المأمون توفي قبل ان يستطيع بناء جيشه ، ولما تولّى المعتصم الخلافة ، " امر . . . بخراب ما كان المأمون امر ببنائه في طوانة . . . وحمل ما اطاق من السلاح والآلة التي بها ، واحرق الباقي ، واعاد الناس الذين بهسا الى البلاد التي لهم ، وانصرف الى بغداد^٥ . " لقد تولى المعتصم عين فكرة بناء جيش متنوع العناصر واستعان لا بمرتزقة خراسانيين بسبل بغلمان من الاتراك . وهذا امر اشار اليه ابن الاثير عندما قسسال : " . . . ان المعتصم كان قد اكثر من الغلمان الاتراك^٥ . ويروى كلسود كاهن ان المعتصم كان يبحث عن العنصر المثالي الذي بإمكانه ان يخدم الخلافة والذي يحول امله الاعجمي دون تورطه فسيبي

^١ انظر الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتّاب في رسائل الجاحظ (تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٦٥) ٣: ٢٠٧.

^٢ طوانة : بلد من شعور الشام بين انطاكية وبلاد الروم تقارب طرطوس (انظر ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧، ٤٥٤-٤٦٠).

^٣ ابن الاثير، الكامل ٦ : ٤٤١.

^٤ المصدر السابق ٦ : ٤٣٩.

^٥ المصدر السابق ٦ : ٤٥٢.

الصراعات القائمة ، وقد رافق ظاهرة الاستعانة بغلمان اترك قرار الخليفة اتخاذ سامراء عاصمة له وانتقاله من بغداد اليها^١ .

ولقد ادى تدخل الغلمان الاترك في الامور السياسية والادارية الى ضعف الوزارة وعلى سبيل المثال نذكر ان اتمامش- وهو قائد مسن الغلمان الاترك - تقلد الوزارة في خلافة المستعين (٢٤٨-٢٤٩)^٢ ، ولكن الصراع لم يحسم كلياً لصالح القائد العسكري اذ نسيبى المستعين يستوزر بعد اتمامش عبد الله بن محمد بن يزيد بن محمد ابن الفضل الجرجاني الكاتب (٢٥٠)^٣ . لكن نذكر ان وصيفا هــو الذى كان قيماً على امور الخلافة عامة بصفته حاجباً وقائماً عسكرياً^٤ . ورغم ان وصيفا كان يدير شؤون الادارة بواسطة كاتبه احمد بن صالح بن شيرزاد^٥ ، الا ان هذا الاخير لم يكن يعتبر من الجهاز الادارى لان تبعيته هي للقائد العسكري، وكانت سلطته تنزل بزوال سلطة قائده^٦ .

^١ انظر المصدر السابق: ٤٥١، ويروى ابن الاثير (المصدر السابق: ٤٥٢:٦) ان سكان بغداد تدمروا من الغلمان الاترك ومن عسفهم فقرر المعتصم الانتقال الى سامراء . لكن كما نرى ان هذا الانتقال هو رغبة في الابتعاد عن الصراعات القائمة والتي ضاق بهنسا الخليفة، وان ابتعاده عن الحضرة يشبه ابتعاد لويس السادس عشر عنها قبيل الثورة الفرنسية (انظر C.Cahen, Islam I, p.146).

^٢ انظر ابن الاثير، الكامل ٧ : ١١٧ - ١١٩ .

^٣ انظر المصدر السابق ٧ : ١٢٣ .

^٤ انظر المصدر السابق ٧ : ١٣٣ - ١٣٨ .

^٥ انظر المصدر السابق ٧ : ١٣٣ .

^٦ انظر D. Sourdél, Vizirat, vol.I, p.304 .

وقد استمرت منافسة القادة العسكريين للكتاب على تدبير شؤون الادارة حتى خلافة المعتضد، فكان بدر القائد سنة ٢٨٧ " ٠٠٠ ينظر في امور الخاصة والعمامة من الناس والخراج والضياع" ^١ ، بينما الوزير آنذاك هو عبيد الله بن سليمان بن وهب الكاتب . علسى ان عوامل اخرى ادت - بعد خلافة المعتضد - الى تغيير الوضع حين واجه القادة العسكريون مشكلة ملحة لها علاقة بتأميسن ارزاق جندهم ، ان ان اي تقصير في تأمين الارزاق يؤدي بالجنود السيسى العصيان المسلح . وقد حدث فعلا ان شار الجنود عدّة مرّات في خلافة المستعين ، ان يروى ابن الاثير في حوادث سنة ٣٤٩ " ٠٠٠ فاجتمعت العمامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير ، وانضم اليها الابناء والشاكرية ، تظهر انها تطلب الارزاق " ^٢ ، كما تمرد بعضهم غير مرّة في خلافة المعتز سنة ٢٥٣ . ويروى كلود كاهن انه حيسث ان قيمة المبالغ الموضوعة بتصرف القادة لكي ينفقوها علسى جندهم كانت تبلغ نصف ميزانية الدولة احيانا (وهو مبلغ ليس من السهل توفيره) ، رأى القادة العسكريون انه لايد من تهيشة الجهاز الادارى ودعمه لكي يستطيع - بفضل اتقانه ضروب الجباية وتصريف الاعمال - تأمين المبالغ المطلوبة ^٣ ، وذلك يتطلسب

^١ انظر الطبرى، تاريخ ١٠: ٧٥ ونذكر ان القادة العسكريين لسسم يكتفوا بهذا القدر بل انهم كانوا ينصبون الخلفاء ويذلعونهم على هواهم ويروى ابن الاثير (الكامل ٧: ٩٧ - ٩٩) تفاصيل مقتتل المتوكل على يد بغا الشرايى .

^٢ ابن الاثير، الكامل ٧: ١٢٢ .

^٣ انظر المصدر السابق ٧: ١٧٨ .

^٤ يرى كاهن (Islam I, p. 147) ان هذه الميزانية بلغت ١٤ مليون ديناراً في القرن الثالث .

نظاما اداريا فعّالا يستطيع ان يفرض نفسه على الاطراف، كما انه يتطلب وجود رأس مدبر له يكون صاحب كفاية^١.

وقد ساعد هذا الوضع على جعل الكاتب هو المتولي لشؤون الادارة وصار اختياره يتم من بين كبار الكتاب . من كل ذلك نرى الابعاد المتناقضة التي حملها تكاثر الغلمان الاتراك ونمو نفوذ قادتهم العسكريين، اذ ادى ذلك في البداية الى تقويض نفوذ الكاتسب وانحلال المرتبة الثانية . ثم ما لبث ان تحول هذا الضعف السسى مصدر قوة وعادت لصاحب المرتبة الثانية قوته ونفوذه في خلافة المقدر كما سبق ورأينا . ان الفصل بين المسؤوليات الادارية والعسكرية تم لصالح الكاتب وكان من اثره اقضاء القائد العسكري بعد الحاجب عن المرتبة الثانية .

غير ان اقضاء القائد العسكري لم يمه الصراع على هذه المرتبة بل حصره في فئة الكتاب وكان للقائد العسكري دور يلعبه في هذا الصراع ايضا .

ب- دور القائد العسكري في الصراع القائم في فئة الكتاب

يرقى الصراع بين كاتب وآخر على المرتبة الثانية - حسب سبب الجهشيارى - الى خلافة المنصور، اذ يشير الى منافسة كاتب ابى ايوب - وزير المنصور - لابي ايوب على المرتبة الثانية^٢ . وقد افاد كاتب ابى ايوب - واسمه ابان بن صدقة - من نكبة صاحبه واستقل من بعده بديوان الرسائل^٣ .

^١ وقد نرى ان تطوير الجهاز الادارى، يجعل المرتبة الثانية ثابتة، ويؤدى الى استقلاله نوعا ما عن الخليفة بحيث يخدم مصالح كبار القادة .

^٢ يقول الجهشيارى (الوزراء : ١١٥) : " كان ابان بن صدقة يكتب لأبى ايوب، فسعى به الى ابى جعفر" .

^٣ انظر المصدر السابق : ١٢٤ .

وإذا كانت هذه التحالفات الواهية تدل على شيء ، فإنها تدل على استقلال الكاتب وعدم تبعيته بصورة كاملة للقادة العسكريين ، لكنها تشير أيضا الى ضرورة ان يكون للكاتب تأييد من جانب احد القادة العسكريين البارزين ، يقف الى جانبه وهو مرشح للمرتبة الثانية ، فلا يحصل له ما حصل لابن الفرات عندما حاول ان يتحرر من وصاية نصر الحاجب^١ .

ولم يكن القادة العسكريون وحدهم متورطين - وان بشكل غير مباشر - في الصراع بين الكتاب البارزين ، بل ايضا في ذلك عدد مسنن المقيمين في دار الخلافة من خدم ، واقرباء الخليفة . وقد كانت لبعض هؤلاء يد في خلع الوزير وتنصيبه في بعض الاحيان اذ يذكسر الصابئ ، انه كانت لزيدان - قهرمانة دار الخلافة في خلافة المقتدر - يد في محاولة تنصيب المحسن بن علي بن محمد بسنن الفرات في الوزارة سنة ٣١١ هـ^٢ . ويروى الصابئ كذلك ان الحبيب في تقليد محمد الخاقاني المرتبة الثانية في خلافة المقتدر سنة ٢٩٩ هـ^٣ . ان دستنبويه ام ولد المعتضد بالله قامت بامرهم مع المقتدر لانه بذل لها مئة الف دينار^٤ . وكان اذن اقرباء الخليفة والمقيمون في دار الخلافة ينفيدون من تنصيب وزير يحظى بتأييدهم بسبب ما كان الوزير يحصله في ايديهم من مال واقطاعات وتسويغات كما حصل في وزارات ابن الفرات^٤ .

^١ انظر المصدر السابق : ٤٧ - ٤٨ .

^٢ انظر المصدر السابق : ٢٤٤ .

^٣ المصدر السابق : ٢٦٤ .

^٤ يقول الصابئ (الوزراء : ٣١) : واقطع (اي ابن الفرات في وزارته سنة ٣٠١) زيدان (القهرمانة) . . . ضياعا بشواحي كسكر ومستقلات بالبصرة لها ارتفاع وافر . ووقع لجماعة من اصحاب السلطان بتسويغات واقطاع وحمالات وبسط يده في كل ما فعله من ذلك وادر على المقتدر بالله ما وعده به وللأمراء والسيدة (ام المقتدر) من الف وخمس مائة دينار منسوبة الى رسم الخريطة .

وبسبب تورط هؤلاء في الصراع على المرتبة الثانية انتقل هذا الى قلب دار الخلافة حيث اصحاب النفوذ الذين يؤثرون على الخليفة لصالح هذا الكاتب او ذاك. لقد اصبح الكتاب المرشحون للمرتبة الثانية - حسب رأى سورديل - هم من بين الكتاب الذين نشأوا في دواوين المركز^١، في الحضرة (بغداد او سامراء) حيث يستطيعون بلوغ ذوى النفوذ وتنفيذ خطة تعالقاتهم للاستيلاء على المرتبة الثانية، وتلك امور لا يمكن ان تتم بعيدا عن مركز الخلافة^٢.

ب- شكل الصراع على المرتبة الثانية : حيلة الكاتب

لقد سبق ان رأينا انه كان يدور حول المرتبة الثانية صراع بين عدة أطراف - يبقى ان نعرف الشكل الذى كان يتخذه هذا الصراع^٣ ونحن نعرف يقينا ان هذا الصراع لم يتخذ شكل الصراع المسلح وانما شكل التواطؤ السرى والمؤامرات المحاكاة ضد طرف مسن الاطراف.

كانت بيئة الكتاب حافلة بالصراعات، وكان الكاتب وبالاخص الوزير، شخصا مهددا باستمرار في المركز والثروة والسلامة. ولعل ابسن المقفح كان يستقرئ التاريخ عندما قال: " اعلم ان اكثر الناس عدوا مجاهرا حاضرا جريشا واشيا، وزير السلطان ذو المكانة عنده، لانه منفوس عليه بما ينفس على السلطان، ومحسود كما يحسد،

انظر^١ D. Sourdél, Vizirat, vol. II, p. 566.

لاتعود اذن مسألة تكليف احد الكتاب في الامصار البعيدة امسرا محتملا كما حصل مع سليمان بن وهب الذى قلده المعتمد وزارته سنة ٢٦٣ ولم يكن مقيما في سامراء ولم يأتها الا سنة ٢٦٤ اى بعد سنة من تكليفه تقريبا (انظر ابن الاثير، الكامل ٧: ٣١٠، ٣١٦).

^٣ ان العصيان المسلح امر خاص بالعمامة والجنود الذين تمردوا احيانا على السلطة طلبا للارزاق وانضمت اليهم العمامة لتعبر عن استيائها من الاوضاع. والصراع المسلح هذا غريب عن الكتاب الذين لم يعترف عنهم انهم انضموا الى العمامة في ثوراتها او انهم دعموها فسي مطالبيها (انظر ابن الاثير، الكامل ٧: ١٢٢).

غير انه يجتراً عليه ولايجتراً على السلطان، لان من محاسدية احباء السلطان الذين يشاركونه في المداخل والمنازل، وهم وغيرهم من عدوه الذين هم حضاره، وليسوا كعدو من فوقه الشائبي عنه المتكتم منه، وهم لاينقطع طمعهم من الظفر به، فلا يغفلون عن نصب الحباشل له^١. ويشير هذا الكلام بوضوح الى ان الصراع الذي يدور بينن الطامعين في الوزارة كان هدفه الايقاع بالوزير، وان الصراع على منصب الخلافة لم يكن يخص الكتاب كما سبق ورأينا.

ويتفق موقف ابن المقفع مع موقف الجاحظ الذي ندد بالصراع القائم فعلا في ايامه وقبل ايامه كذلك في فظة الكتاب في قوله مخاطبسا هؤلاء: " لا أعلم اهل صناعة الا وهم يجرون في ذلك (اي في التعاطف) الى غاية محمودة، ويأتون منه آية مذكورة، الا الكتاب، فان احدهم يتحاذق عند نظرائه بالاستقصاء على مثله، ويسترجح رأيه اذا بلسخ في نكاية رجل من اهل صناعته"^٢. فظة الكتاب بالنسبة للجاحظ تفتقر الى التعاطف. ولايد من الاشارة في صدد ذلك الى ما قالسه عبد الحميد الكاتب في مناشدة الكتاب التضامن والتواصل فيمسا بينهم^٣، فان هذا القول قد يدل على تمثي هذا التضامن وذلك التك التواصل، لاعلى وجودهما بين الكتاب بالضرورة.

وتقوم خطة الكاتب للايقاع بنظيره على مبدأ الحيلة، وتجلسسي الحيلة بالسعاية، والسعاية هي العمل بهدف انتقاص نفوذ شخص مما للحلول محله او من اجل الحماية الذاتية، وسوف أتعرض لهسسه الامور بالتفصيل.

^١ الادب الكبير في رسائل البلغاء : ٥٩.

^٢ الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢ : ٢٠٠.

^٣ انظر الجهشيارى، الوزراء : ٧٥.

لقد أورد الجهشيارى عدداً من الامثلة التي تدور حول الصراع علسى
المرتبة الثانية وذلك منذ نشأة تلك المرتبة ، ونذكر عن الجهشيارى
الامثلة التي تحمل دلالة معينة من حيث اسلوب الحيلة وكيفية نجاحها
او اخفاقها. ويدور المثل التالي حول محاولة ابي ايوب المورياني ،
وزير المنصور، الايقاع بكاتب من اجل حماية منصبه . يقول الجهشيارى
"وكان ابو جعفر (المنصور) لما صرف خالد بن برمك عن الديوان ،
وقلده ابا ايوب، قلّد خالدًا فارس، فأقام بها خالد سنين، وأبسو
أيوب يسعى عليه ، ويحضّ ابا جعفر على مكروهه ، ويسعى به ليسقط من
عينه ، لانه كان يعرف ما فيه من الفضل ويتخوفه على محله ، وان يرده
ابو جعفر الى الديوان الذي كان يتقلده . فلما كثر ذلك على ابي
جعفر، صرف خالدًا عن فارس ونكبه ، وألزمه ثلاثة آلاف الف درهم ، ولم
يكن عنده الا سبع مائة الف درهم ، فصدقه عن ذلك ، فلم يصدّقه ، وأمر
بمطالبته بالمال . فاسعفه صالح صاحب المصلى بخمسين الف دينار ،
واسعفه مبارك التركي بالف الف درهم ، ووجهت الخيزران بجوهر قيمته
الف الف درهم ومئتا الف درهم ، رعاية للرضاع بين الفضل ابنه وبين
هارون ابنها . واتصل ذلك بابي جعفر ، فتحقق عنده قوله انه لايمسك
الا ما حكى فصّح له عن المال ، فشق ذلك على ابي ايوب ، واحضر لسه
بعض الجهابذة ، ودفع اليه مالا ، وامره ان يعترف انه لخالد . ودسّ على
ابي جعفر من سعى بالمال ، فأحضر الجهبذ فسأل عن المال فاعترف به ،
فاحضر خالدًا فسأله عن ذلك ، فحلف بالله انه لم يجمع مالا قسسط ،
ولا ذخره ولا يعرف هذا الجهبذ ، ودعا الى كشف الحال ، فتركه ابو جعفر
بحضرتة ، واحضر النصراني ، فقال له : اتعرف خالدًا ان رأيتة قسال :
نعم يا أمير المؤمنين ، اعرفه ان رأيتة ، فالتفت الى خالد وقال : قد
اظهر الله براءتك . وهذا المال اصبناه بسببك ، ثم قال للنصراني :

أشير الجهشيارى (المصدر السابق : ٨٩) الى ان خالد البرمكي
تولى في خلافة ابي العباس السفاح ديوان الخراج وديوان الجند .

هذا الجالس خالد ، فكيف لم تعرفه ؟ قال : الأمان يا أمير المؤمنين ، وأخبره الخبر ، فكان لا يقبل من أبي أيوب بعد ذلك شيئاً في خالد^١ . وتشير هذه الرواية الى خوف الوزير من اصحاب الكفاية من الكتاب المؤهلين للحلول في منصب المرتبة المشاخصية - وخرى ان ابا ايوب لجأ الى جميع الوسائل لينجح في التضييق على خصمه . لكن الحيلة لم تنطل على الخليفة فاستطاع ان يفضح الفاعل ، وكان ان نجا خالد ابن برمك من السعاية .

لكننا نقع على امثلة اخرى تشير الى نجاح الساعي في تحقيق غرضه . ويدور هذا المثل حول أبي عبيد الله معاوية بن عبيد الله وزبير المهدي ، يقول الجهشيارى : " ولم يزل ابو عبيد الله في خلافة المهدي الى سنة ثلاث وستين ومائة مستقيماً الامر ، ثم سعى عليه الربيع (بن يونس الحاجب) ، وحمل المهدي على مكارهه فصرفه فسي سنة ثلاث^٢ . اراد الربيع اذن حسب الجهشيارى ، ان يسعى بأبسى عبيد الله ، فقصد رجلاً اسمه القشيري ، وكان ابو عبيد الله اساء بسبه وحجه - فسأله الربيع : فهل عندك في أمره (اي امر أبي عبيد الله) حيلة ؟ قال له : ليس بجاهل في صناعته وانه لأحذق الناس ، وما هو بظنين فيما يتقلده ، لأنه أعف الناس ، حتى لو كان بنات المهدي في حجره لكان لهن موضعاً ، وليس بمتهم بانحراف عن هذه الدولسة ، لأنه ليس يؤتى من ذلك ، وليس يتهم في دينه ، لان عقده وثيق ، ولكن هذا كله يجتمع اليك في ابنه ، فقام الربيع فقبل عينه ، وما زال يدرس الى المهدي من يخبره خبر عبد الله بن أبي عبيد الله ، وكان المهدي قد جدّ في طلب الرضاقة . . . وممن . . . يعتقد الرضاقة قسوم يرون ان جحد ما يدينون بسبه محظور ، وان التقيسة غير جائزة ،

^١ المصدر السابق : ٩٩ - ١٠٠ .

^٢ المصدر السابق : ١٥١ .

وقد دل هذا الخبر على ان عبد الله بن ابي عبيد الله منهم... ولما قتل المهدي عبد الله بن ابي عبيد الله ، قال الربيع لبعض خدام المهدي: لك علي ثلاثة آلاف دينار ، ان فعلت شيئا لا يضرّك. قال لسه : وما هو ؟ قال: اذا دخل ابو عبيد الله الى المهدي ، فصار بحضرتيه ، قبضت على سيفه ، ومشيت الى جانبه فسينكر ذلك عليك اميــــــــــــــــس المؤمنين فتقول: يا امير المؤمنين قتل ابنه بالامس ، فكيف آمنه عليك ان يخلو بك ومعه سيفه اليوم ففعل ذلك الخادم ، فكان ذلك مما اوحش المهدي من ابي عبيد الله^١. بحث الساعي - اى الربيع - في هذا المثل عن نقطة الضعف في خصمه ، وكانت نقطة ضعف ابي عبيد الله في ابنه عبد الله ثم عمل الساعي على رشوة الخادم^٢ كي يثير حذر الخليفة المهدي من ابي عبيد الله ونجح الساعي في تحقيق غرضه في هذا المثل ، أولا بسبب اثبات تهمة الزندقة على عبد الله بن ابي عبيد الله ، وثانيا بسبب ضياع ثقة الخليفة بوزيره بعبد الله ان قتل ابنه .

ونعرض كذلك لحيلة لجأ اليها الكاتب ابو علي الخاقاني السدي

^١ المصدر السابق : ١٥٣ - ١٥٤ .

^٢ ان الخدم في موضع متميز عادة لبلوغ الخليفة وغالبا ما كسبان يلجأ الكاتب الى برهم لانجاح حيلته يذكر الجهشيارى (المصدر السابق : ٦١) حادثة في العصر الاموي لجأ فيها حسان الذبطي الكاتب الى الايقاع بصاحبه خالد بن عبد الله القسرى والى العراق فذهب الى الحضرة وقال لخادم من خدم هشام بن عبد الملك: " هل لك فسي في ديثار على ان تتكلم بكلمة حيث يسمعها امير المؤمنين ؟ قال (الخادم) : عجل علي بالالفين وأقول ما شئت ، فعجلها له ، وقال له : بك صبيانا من صبيانه ، فاذا بكى فقل له : اسكت ، فأذك في صلفك وعزتك ابن خالد القسرى لما بلغت غلته ثلاثة عشر الف درهم . ففعل الخادم وسمعها هشام... " .

استوزره المقتدر بالله سنة ٢٩٩ بعد ان نجح في الايقاع بالوزير ابن
الفرات وخلعه يقول الصابي بهذا الصدد: " حدثنا ابو عيسى...
الخاقاني قال: لما تمادت الايام بما وعدنيه المقتدر من القبض على
ابي الحسن ابن الفرات وتقليدي الوزارة استعظم الحال في نكبتسه
واشفق من حادث يحدث بذلك في دولته وعملت انه لا ينفج في ذاك الا
اعمال الحيلة. وكنت اتتبع الاخبار في استتاري فجاءني في بعض
الايام امرأة من عجائزنا وقالت: رأيت الساعة عمارية على بغال
وجندا وغلمانا يمضون الى باب الكناس يريدون الكوفة وربما كان
ذاك لخارجي خرج وفتق حدثه فكتبت الى ابي عيسى يحيى بن ابراهيم
المالكي أسأله عن هذا الامر وكان ظاهرا متصرفا فأجابني بسنن
ملاحاة جرت بين هشام بن عبد الله وعبد الله بن جبير كاتبي ابيسن
الفرات فيما يحتاج اليه من الابل والبقر والغنم للاضاحي في عيد
النحر... قال الخاقاني فتأت لي الحيلة في الحال وكتبت رقعة
الى ام موسى القهرمانه اقول فيها: قد احضر ابن الفرات رجلا
علويا... وعزم على اجلاسه في الخلافة يوم عيد النحر، والجنس
والناس متشاغلون بصلاة العيد. وان من الدليل على ذلك انفساده
عاملا من شقائه الى الكوفة ومعه عمارية خرجت فارغة ظاهرا لسهم
يخذ خبرها لركوب العلوى فيها متخفيا ليحصل بالقرب من بغداد.
قال (ابو علي الخاقاني): وعظمت القصة وقلت: ان لم يعاجل ابيسن
الفرات تمت الحيلة الموضوعه ثم سألتها (اي القهرمانه ام موسى)
مطالعة الخليفة والسيدة (ام المقتدر) بذلك وكتمانه عن كل احد
بعدهما... " لثلا ينم الحديث الى ابن الفرات فيبطل ما رتبته...
لقد بلغ الخبر الخليفة فانفذ خادما له ليدقق بالامر، ورأى الخادم
الرجل المتخفي، فخاف الخليفة واقتنع بان ابن الفرات يريسه
خلعه.^١

ونستطيع ان نستخرج بعض اصول السعاية وشروط نجاحها من الامثلة التي سبق ذكرها. فالسعاية تتوجه نحو شخص معين هو خالد بن برمك فسيي الممثل الاول وابو عبيد الله معاوية بن عبيد الله الوزير في المشمل الثاني وابو الحسن علي بن محمد ابن الفرات في المثل الثالث. لكن السعاية لا بد ان تمر بواسطة طرف ثالث هو الخليفة صاحب السلطان - والسبب في ذلك هو ان الخليفة هو صاحب الامر والنهسي وصاحب القرار الفصل في قضايا الصرف والذلع والاعفاء. وقد استمر هذا الواقع حتى بعد الانحلال الجزئي الذي اصاب الخلافة وانتقال جزء من السلطات الفعلية الى القادة العسكريين والوزراء. وظل الخليفة محتفظا لنفسه بصلاحيات العزل والتعيين والعقاب والصفح. وان استمرار الخليفة في هذا الموقع لهو الامر الذي عمل على دعم مبدأ الحيلسة والسعاية، ولولا ذلك لم تكن هنالك ضرورة للعمل بهما ولسلك الكتاب والوزراء في ذلك مسلكا آخر اقرب الى تصفية الاعداء منه السسي التآمر عليهم بصورة خفية.

ونرى في الامثلة السابقة - ولا سيما في المثل الاخير - ان الحيلسة ينبغي ان تتم بسرية تامة لان الجهر بالامور قد يظهر للخصم ما يحاك ضده فيعمد الى اتخاذ الاجراءات اللازمة ليبطل مفعسول الحيلة^١. وتقوم الحيلة كذلك على عنصر المفاجأة، ونجاحها مرهون به. وتتطلب المفاجأة الاسراع في بلوغ صاحب السلطان واشراكه في الايقاع بالمسعي به كما فعل محمد الخاقاني في المثل السابق

^١ كان الساعي يبذل جهده كي لا يعرف خصمه انه يضمن له سوء ويذكر الجهمشيارى (الوزراء: ١١٦) ان ابان بن صدقة كاتب ابي ايسوب المورياني وزير المتصور سعى بصاحبه لدى الربيع الحاجب وعلسم ابو ايوب بالامر فقال له: " قد جاثنى اليقين انك تأتى الربيع كل ليلة ... فلماذا تريد قتلي؟ فعلتها، اخرج فلا تقربني " ... وخرج حتى أتى الربيع، وكاشف ابا ايوب. وكاشفه اي اظهر له العسداوة وباداه بها لأنه افترض لديه امره ولم يعد بوسعه ان يخفي حقيقة الامر.

الامور هذه ، فانما الذليفة قلما يرد ساعيا او يمتنع عن سماع ما لديه . ويدخل اتهام الوشاة في مهام الوزير بالذات اذ يقتصول الجهشياري: للوزير على الملك وللكاتب على الصاحب ثلاث خصصال: رفع الحجاب عنه واتهام الوشاة عليه ، وافشاء السر اليه.^١

وقد تتخذ السعاية شكل التعريض المباشر بالخصم في حضرة الذليفة كما حدث بين الفضل بن يحيى بن برمك واخيه جعفر في حضور الرشيد ، يروي الجهشياري " ان جعفرا كان اوصل الاصمعي الى الرشيد. فقال له الرشيد يوما: أخبرني من أم فلان لانسان من العرب؟ فقال له الاصمعي: على الذبير سقطت يا أمير المؤمنين ا فقال له الفضل: اسقط الله انفك وعينيك ا هكذا تخاطب الذلغفاء ا وانما اراد الفضل بذلك مساءة جعفر والقصد له.^٢

وكان التعريض يبلغ احيانا حد التلاسن بين المعروض والمعروض بسبه ، يقول الجهشياري: " تنازع الفضل بن الربيع (حاجب الرشيد) وجعفر بن يحيى يوما بحضرة الرشيد، فقال جعفر للفضل: ياالقيط، فقال له: اشهد يا أمير المؤمنين. فقال جعفر للرشيد: تراه عند مسن يقيمك هذا الجاهل شاهدا يا أمير المؤمنين وأنت حاكم الحكام.^٣ ففي هذه الرواية نرى ان المواجهة بين الخصمين كانت تؤدي الى الجهر بالعداوة بدل التكتم والسكوت عنها. وليس هدف المواجهة في المثليين السابقين هو جعل الذليفة يحكم بين المتخاصمين لأن المقصود من التعريض في حضرة الذليفة هو تقويم نفسهم

^١ الجهشياري، الوزراء: ١٠.

^٢ المصدر السابق: ١٨٩.

^٣ المصدر السابق: ٢١٦.

الخصم وليس استرداد حقوق ما او تقويم سلوك الآخر.

غير ان اظهار الذنوب او التلاسن لم يكن امرا مستحبا في حضرة الخليفة من قبل الذين شرعوا للكتابة ولادب الكتاب على المستوى النظرى^١. وينصح ابن المقفع من يتعرض للاهانة في حضرة الخليفة باظهار عدم الاكتراث، يقول: "وان ذكرك ذاكر عند ولي الامر بسوء في وجهك، او في غيبك، فلا يرين منك الولي ولا غيره اختلاطا لذلك ولا اغدياظا ولا ضجرا، ولا يقعن ذلك في نفسك موقع ما يكرثك، فسان وقع منك ذلك الموقع ادخل عليك امورا مشتبهة بالريب مذكورة لمسا قال فيك العائب"^٢. ويضيف ابن المقفع مخاطبا الوزير: "... البس لهؤلاء القوم الذين هم اعداؤك سلاح الصحة والاستقامة، ولزوم الحجة فيما تسر وتعلن، ثم روج من قلبك كأن لاعدوك ولا حاسد"^٣.

ان خوف الوزير من السعاية قد يكون دليلا على ان الساعي غالبا ما كان ينجح في الايقاع به. ونشير الى ان ضعف الخليفة المتزايسد ابتداء من اواسط القرن الثالث كان عاملا في تنشيط السعائسة، لان فلتان الامور من يده جعله اكثر عرضة من ذي قبل لاصحساسب السعائيات. وقد نقل الصابي بهذا الصدد روايسة عسسن

^١ يقول الصابي في رسوم دار الخلافة (تحقيق ميخائيل عواد، بغداد، ١٩٦٤ : ٣٤-٣٥): "وسيله (اي الحاضر في مجلس الخليفة) ان لا يخاطب من يخاطبه في تعرف امر منه، او اقامة حجة عليه الا بأخذ الالفاظ وأشد الاستيفاء".

^٢ الادب الكبير: ٥٩ - ٦٠.

^٣ المصدر السابق: ٥٩.

ابن الفرات شديدة الدلالة على هذا: قال: دخل ابن الفرات يوماً على كتابه وهو مغموم فسأله كتابه عن الأمر فقال: "ويحكم قد علمتم اني اشكو اليكم نقصان هذا الرجل (يعني المقتدر) دائماً وشدة تلؤمسه واختلاف رأيه... فقلت له اليوم في امر رجل كبير... يا اميسر المؤمنين ان فلانا قد فسد علينا وليس مثله من اخرج عن ايدينا. وقد رأيت ان اقلده كذا واقطعه واسوذه كذا... قال: افعل. شمس حدثته طويلاً وخرجت من امر الى آخر وقرب وقت انصرافي فقلت لسه: يامولانا عاودت الفكر في امر فلان... وقد رأيت رأياً آخر في امره. قال: ما هو؟ قلت: ان نقبض عليه ونخلده الحبس ابدًا. قال: افعل. فقلت: وا ويلاه كذا والله تجرى حالي معه. يقال له ان ابن الفرات الكافي الناصح وهو وطأ لك الامر واقامك في الخلافة وهو... هو... فيقول: نعم. ويقربني ويقدمني ثم يقف غداً بين يديه رجل فيقول: قد سرق ابن الفرات الاموال ونهب الاعمال وفعل وصنع والوجس عليه ان يقبض عليه ويصرف ويقيد ويحبس ويقلد وزير آخر، فيقول: نعم."

ان هذه الرواية تعكس مخاوف الوزير من تقلب الخليفة وخضوعه للسعاية دون النظر واعمال الرأي. ولاشك ان تأثر الخليفة المتزايد بأراء الآخرين عامل من عوامل تفشي السعاية. لكن منذ اواخر القرن الثالث ومطلع الرابع برزت عوامل اخرى عملت على تطوير اسلوب آخر غير السعاية يلجأ اليه الكتاب والوزراء للايقاع بخصومهم. ومن هذه العوامل ضرورة تأمين المبالغ الضخمة لتغطية نفقات الخليفة والجند ووقوع السلطة في عجز مالي. وقد ادى طلب الاموال بصورة ملحة الى تبني الكتاب او الوزير خطة اخرى فسمي إلحاق الاذى بالذم. وهذه الخطة لا تحتاج الى حياكة معينين للحيلة اذ اصبحت يكفي ان يضمن الكتاب او الوزير للخليفة

استخراج مبلغ من المال من احد خصومه لكي يطلق الخليفة يسهده بعمل ما يشاء من قتل وصرف وتعذيب على ان يحصل على المبلغ اللازم الذي وعد به وهذا ما سوف نبحثه فيما بعد في الكلام عن مبادرة الخليفة الى صرف الوزير والاستغناء عنه او حتى الانتقام منه ، انما علينا قبل ذلك ان نصف مكانة الوزير عامة من صاحب السلطان ودوره في عملية المشورة .

ج - دور الوزير: المشورة والنصيحة للامام

لقد رأينا ان دور صاحب المرتبة الثانية - اي الوزير - كان في الفترات التاريخية المختلفة اما في معاونة صاحب السلطان على تصريف الامور الادارية وملازمته او في رئاسة دواوين الادارة . لكن صاحب المرتبة الثانية كان في كلتا الحالتين يقوم بدور آخر لا يقل اهمية عن الدورين السابقين وهذا الدور هو دور المستشار . والمشورة هي طلب الامام النصيحة من احد المقربين اليه . النصيحة تأتي اذن بعد المشورة . ولا بد قبل ان نبحث في المشورة مسسسن ان نعرض للفروقات القائمة بين السعاية التي مرت بنا فسي فصل سابق والنصيحة لكي لا يقع الخلط بينهما ، ذلك ان السعاية قد تتخذ شكل النصيحة ظاهريا . لكن النصيحة تتعدى مصلحة المدلي بها المباشرة والشخصية لتصب عادة في مصلحة الأمة ، ولذلك تدور معظم النصائح حول تفادي ما من شأنه ان يحدث بلبله اجتماعية تهتدد السلطة والخلافة بالذات ، بينما هدف السعاية هو احداث الانشقاق ليس في صفوف الامة بل بين الفئات المتصارعة لاسيما على مستوى المرتبة الثانية اعني الكتاب وغيرهم من الطامعين في هسهده المرتبة .

ويبادر الخليفة عادة الى المشورة قبل اتخاذ قرار معين حينئذ حدث من الاحداث التي يتعرض لها حكمه او قبل الاقدام على تعيين

اصحاب الاعمال في مناصبهم او عزلهم عنها. ^١تسبق المشورة اذن القرار. ونستدل على قيام الخليفة بالمشورة منذ بداية العصر الاموي ويشير الجهشيارى الى ان الكاتب كان يستشار في الامور المهمة وذلك قبسب ظهور المرتبة الثانية ^٢، ان يروى ان يزيد بن معاوية شاور سرجسون ابن منصور - وكان يكتب على الخراج - فيمن يولي العراق ^٣. ونرى كذلك عبد الملك يشاور قبيصة بن ذؤيب - كاتبه - في العهد لابنيه الوليد وسليمان ^٤. ويروى ايضا ان عبد الملك لما "عزم على تقليد (الوليد) العهد، ... شاوره (اي كاتبه ربيعة الجرشي) وقال له : اني قد عملت على توليته شيئا من النواحي اولا، فاذا مرت له مدة قلّته، فقمال: امهلي سنة، فاجب عليه، فقال له : يا امير المؤمنين، انك لو بعشت الوليد يقسم الاموال بين الناس ما رضوا عنه، فكيف بيعته جابيسسا، ان احتاط ذم وان رفق عجزا. ولكن وله المعاون والصوايف يكن ذللك له شرفا وذكرا ."

^١قد تتعلق النصيحة ايضا بامور حياتية كالأكل مثلا، يروى الجهشيارى (الوزراء: ٣٥) كيف طلب عبد الملك بن مروان من كاتبه ابي الزعيزعة نصيحة تتعلق باتقاء التذمة.

^٢ويدفق ذلك مع ماورد على لسان عبد الحميد ان يقول في رسالته السى الكتاب: "والكاتب بفضل رأيه وشرف صناعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره وينظره، ويفهم عنه ويخاف سطوته اولى بالرفق بصاحب نفسه ومداراته وتقوم اوده من سائس البهيمه التي لا تحير جوابا، ولا تعرف خطأ ولا صوابا الا بمقدار ما يصيره اليها سائسها او صاحبها الراكب لها"، (المصدر السابق: ٧٧).

^٣انظر المصدر السابق: ٣١.

^٤انظر المصدر السابق: ٣٤.

^٥المصدر السابق: ٣٧.

ان طلب الامام الخليفة لايعني انه عاجز عن تدبير امور ولايته بسبل يعني ان المشورة اصبحت جزءاً من المهام التي يقوم بها الخليفة^١ . ونذكر انه حتى بعد نشأة المرتبة الثانية لم تكن الاستشارة قاصرة على صاحب هذه المرتبة وحده دون المقربين من الخليفة بل ظلت المشورة موزعة على الاشخاص المحيطين بصاحب السلطان يشاور احدهم عندما يرى ضرورة لذلك. وهؤلاء الاشخاص هم الكاتب والقاضي والعامل وغيرهم من خواص الخليفة^٢ .

ويعمل المستشار بالتأثير على الامام واذا كان هذا التأثير سلبياً أدى الى فساد الامور وهذا ما حصل في خلافة المهدي. يقول الجهشيارى: "كان ابو عبيد الله معاوية (بن عبيد الله بن يسار وزير المهدي) يضبط امور المهدي، ويشير عليه بالاقتصاد وحفظ الاموال. وكان ابوه جعفر (المنصور) خلف في بيوت الاموال عند وفاته تسع مئة الف درهم وستين الف درهم. فلما صرف المهدي ابا عبيد الله عن وزارته، وقتلها يعقوب (بن داود) زين له هواه، فانفق المال واكب علسى اللذات والشرب"^٣ .

أينصح الادب الكبير صاحب السلطان بالمبادرة الى المشورة بقولسه: "ولاتقذفن في روعك انك اذا استشرت الرجال ظهر منك الحاجة السسى رأى غيرك فانك لست تريد الرأى للافتخار به، ولكنك تريد للانتفاع به. ولو انك مع ذلك اردت الذكر كان احسن الذكرين وافضلهما عند اهل الفضل ان يقال: لايتفرد برأيه دون استشارة ذوى الرأى." (الادب الكبير: ٤٧).

^٢ يذكر الجهشيارى (المصدر السابق: ١٠٦) ان الخليفة المنصور كان يشاور وزيره ابا ايوب المورياني في تقليد الكتاب الدواوين لكنه يذكر (المصدر السابق: ٣٧) انه كان يشاور ايضا المقربين منه فسي مسألة توليه ابنه المهدي السواد وكور دجلة. والذين شاورهم هم عمه عيسى بن علي وكاتبه ابي العباس الطوسي والعباس بن محمد.

^٣ المصدر السابق: ١٥٨ - ١٥٩، يقول الادب الكبير: ٦٨: "واعلم ان الملوك يقبلون من وزراءهم التبخيل ويعدونه منهم شفقة ونظرا ويحمدونهم عليه وان كانوا اجواداً".

ويستطيع المستشار ان يؤثر على الخليفة وان يغيّر نظرتة السسي الامور وتصرفاته وقد يكون هذا ما جعل عبد الحميد يشبه صاحب السلطان بالبهيمة التي " ... لاتحير جوابا ولا تعرف خطأ ولا جوابا الا بقدر ما يصير اليها سائسها الراكب لها" ^١ ، (اي الكاتب) ، لكن ينبغي الاشارة الى ان المسؤولية لا تقع كاملة على عاتق المستشار اذ قد يكون هذا الاخير ناصحا صائبا في رأيه دون ان يلقي تجاوزا من جانب الخليفة . ويعطي الجهشيارى مثلا على ذلك في خلافة الامين اذا اخفق مستشار الخليفة ووزيره الفضل بن الربيع في اقتناع الخليفة بالعدول عن الاستتار ومعالجة الاوضاع الداخلية للحوول دون هجوم المأمون على بغداد . ويروي الجهشيارى ان الفضل بن الربيع استعان باسد بن يزيد بن مزيد ^٢ لاقتناع الامين بالرأى الصواب وقال له : " انما نحن وانت يا ابا الحمارث شعب من أصل ، ان قوى قويننا ، وان ضعف ضعفنا وان هذا الرجس (يعني الامين) ... يشاور النساء ، ويخذل الى الرؤيا ، وهو يتوقع الظفر ، ويتمنى عقب الايام ، والحدف اسرع اليه من السيل السسي قيعان الرمل ، وقد خشيت والله ان نهلك لهلاكه ، ونعطب بعطبه ، وقد فزعت اليك في لقاء هذا الرجل لأمرين ، احدهما : صدق طاعتك ، وفضل نصيحتك ، والشاني يمن نقيبتك ، وشدة بأسك ، والاقتصاد رأس النصيحة ^٣ وتشير هذه الرواية بوضوح الى انحطاط الاستشارة في خلافة الامين اذا اصبحت شأن النساء ، كما انها تشير الى عجز المستشار الصالح عن انقاذ الامة اذا ابتلى بخليفة لا يعمس

^١ الجهشيارى، الوزراء : ٧٧ .

^٢ هو ابن القائد العسكري في خلافة الهادي وكان ايضا قائدا (انظر الجهشيارى الوزراء : ١٧٤) .

^٣ المصدر السابق : ٢٩٤ .

بنصيحته ، لان الخليفة هو الذى يقرر في المطاف الاخير الامور السياسية وليس المستشار الذى لا يتمتع في نهاية المطاف بغير السلطة التنفيذية!

وتكمن سلطة المستشار بقدرته على اقناع صاحب السلطان بالسير على الصواب . ورأى ابن المقفع ان الاقناع يذرع لاصول معينة ، اذ يقول مخاطبا المستشار: " وانك فلما تقدر على ردّ رجل عن طريقته التي هو عليها بالمكابرة ، والمناقضة ... ولكذلك تقدر ان تعينه على احسن رأيه وتسدده فيه وتزينه وتقويه عليه ، فاذا قويت منه المحاسن كانت هي التي تكفه عن المساوى^٢ . وهذه النصيحة النظرية مسنن جانب ابن المقفع طبقها يحيى بن خالد بن برمك اذ يروى الجهشيارى ان يحيى " كان ... اذا رأى من الرشيد شيئا ينكره لم يستقبله بالانكار ، وضرب له امثالا ، وحكى له عن الملوك والخلفاء ما يوجب مفارقة ما انكره ، ويقول: في النهي اغراء ، وهو من الخلفاء احسرى ، فانك وان لم تقصد اغراءه ، اذا نهيته اغريته^٣ . ورأى الصابىء كذلك ان يكون لاضفاء النصيحة اصول معينة يلتزم بها المستشار ، وتكمن في عدم مبادرة المستشار الى تقديم النصيحة للخليفة قبل ان يبدر من الامام ما يشير الى انه يريد سماعها ، ومعنى ذلك ان المستشار لا يجيب الا عما سئل عنه " ... اذ ليس للوزير ولا حاضر في ذلك الموقف ان يذكر شيئا الا ما يسأل عنه ، او يسورد قسولا

^١ ويستمر واقع الامر هذا حتى نهاية القرن الثالث ومطلع الرابع اى بعد ان اصاب الخلافة ما اصابها من انحلال سببه نمو نفوذ القسادة العسكريين ويروى الصابىء (الوزراء: ١١٨ - ١١٩) ان ابن الفرات الوزير خاطب الخليفة المقتدر قائلا: "يا امير المؤمنين ، ان فلانا قد فسد علينا وليس مثله من اخرج عن ايدينا ، وقد رأيت ان اقلده كسدا واقطعه واسوغه كذا ... ولم يجز ان افعل امرا الا بعد مطالعتك ، فما تأمر؟ "

^٢ الادب الكبير: ٥٦ - ٥٧ .

^٣ الجهشيارى: الوزراء: ٢٠٣ .

في اخبار او مطالعة الا ما استأذن فيه^١. ان ما يقوله الصابئ يشير الى ضرورة احتراس المستشار من وقع كلامه على صاحب السلطان اذ ان اعطاء النصيحة قد يهدد سلامة الناصح. وفي هذا الموضوع يورد الجهشيارى مثلاً حول لجوء موسى الهادي الى مناظرة يحيى بن البرمكي كاتب ولي عهد الرشيد في خلع الرشيد. فقال له يحيى: "يا امير المؤمنين، انك ان حملت الناس على نكث الأيمان، هانت عليهم أيمانهم، وجرأتهم على حل العقود التي تعقد عليهم، ولست تركت الامر في بيعة اخيك بحاله، وببيع لجعفر من بعده كان ذلك أكد لبيعته. فقال له: صدقت ونصحت^٢. لقد اقتنع موسى الهادي لبرهة ثم عاد ليستنكر ما بدر من يحيى وما كان منه الا ان حبسه^٣. لهذا السبب كان الناصح يحترس قبل الادلاء برأيه او نصيحته بلسان يلجأ الى طلب الأمان من الخليفة على نفسه، وكانت استجابة الخليفة لهذا الطلب تعتبر ضماناً لسلامة الكاتب او الناصح^٤. فالخليفة كان في معظم الاحوال لا يستطيع ان يرى النصيحة التي ينصح بها مجردة عن شخص صاحبها، واذا حدث ان وجدها مما لا يتفق

^١ الصابئ ، رسوم : ٣٣ .

^٢ الجهشيارى ، الوزراء : ١٧٠ .

^٣ قد يكون الحافز وراء تغير رأى الخليفة شعوره بان يحيى يخدم في نصيحته نفسه وصاحبه الرشيد وليس الخليفة لان ليحيى كل المصلحة في ان يعتلي الرشيد سدة الخلافة لانه سوف يحل بذلك في المرتبة الثانية بصفته كاتب ولي العهد. لكن رأى الصواب هو في جميع الاحوال رأى يحيى ان ليس مشروعاً خلع ولي العهد ولا حمله قسراً على التنازل.

^٤ يروي الجهشيارى (المصدر السابق: ٢٧٠): ان الخليفة الرشيد استشار رجلاً ينسب الى علي بن ابي طالب لم يذكر اسمه وقال لسه: "فما عندك فيما كان من امير المؤمنين (الرشيد) من العهد السدي عهده الى ولاة العهد؟ فاستغفاه (الرجل) من الجواب فلم يعف عنه، وقال له: انت آمن، فقل بكل لسانك كل ما عندك، فقال: يا امير المؤمنين، رأيتك قد اخذت ثلاثة اسياف مشحونة فجعلتها في غمسه واحد، فانظر ما يكون بينها".

ورأيه او مصلحته فانه قد يسيء الى صاحبها كما مر معنا في المشعل السابق. وهذا هو بالذات مصدر الخطر، لان الامام لا يتوقع احيانا من الذين يستشيرهم ان يكون لهم رأى مغاير لرأيه واذا رأى ذلك منهم حمله الذى رأى الى الانتقام منهم ، وفي جميع الاحوال ينبغي ان تصب النصيحة دائما في الكلام عن مصلحة الخليفة او الخلافة .

ان على ان النصيحة وان كان يفترض فيها /تخدم مصلحة الخلافة فانها تخدم ايضا مصلحة المستشار لان مصير الناصح قد يكون مرتبطا بمصير الخليفة الى درجة كبيرة ، وزوال الخلافة عن خليفة يهدد منصب المستشار بالذات، ويذكر الجهشيارى عددا من النصائح التي تصب في مصلحة الخلافة فيقول ان الرشيد امر "يحيى بن خالد في التقدم فسي هدم ايوان كسرى، فقال: لا تهدم بناء دل على فخامة شأن بانيه الذى غلبته واخذت ملكه ، قال: هذا من ميلك الى المجوس، لا بد من هدمه ، فقدر للنفقة على هدمه شيء استكثره الرشيد ، وأمر بترك هدمه ، فقال له يحيى: لم يكن ينبغي لك ان تأمر بهدمه ، واذا قد أمرت فليسس يحسن بك ان تظهر عجزا عن هدم بناء عدوك، فلم يقبل

^١ ويورد الجهشيارى (المصدر السابق: ٥) قصة من التاريخ الفارسي تفيد هذا المعنى يقول: "جمع انوشروان كتابه ليستشيرهم فيما قرره من وضع الخراج على ما مسح من الارض وما عدّه من الشجر.. وما احصى من الناس وان يجبي ذلك في ثلاثة انجم ، في كل اربعة اشهر الثلث، واستشارهم ، فلم يشر احد منهم بشيء ، فاعاد القول ثلاث مرات والناس صموت. فقام رجل من عرض الناس فقال: ايها الملك اتضع الخسراج الباقي على الانسان الفاني ، وعلى كبد تموت، وعلى زرع يجف. . . فقال كسرى: . . . من اى طبقات الناس انت؟ فقال: انا رجل من الكتاب، فقال كسرى لكتابه : ضربه بالدوى حتى يموت".

^٢ ويقول صاحب الادب الكبير: (٦٨-٦٩) : "فالرأى لك (للمستشار) تصحيح النصيحة على وجهها والتماس المخرج . . . بان لا يعرف منك فيمسا تدعوه اليه ميلا الى شيء من هواك ولا طلبا لغير ما ترجو ان يزينه وينفعه".

قوله ولم يهدمه^١ . ان هدف يدي من النهي عن هدم الايوان واضح لان هدمه دليل على ان الخليفة لم ينتصر على اعدائه الفرس كلياً بل انه لم يزل يسعى لازالة سيطرتهم ولم يقبل الخليفة نصيحة يدي لانه رأى فيها ميلاً من يدي الى المجوسية وقرر الهدم شمس عدل عن ذلك، والعدول عن هدم البناء بعد ان عبّر الخليفة عمن رغبته بذلك دليل على عجزه امام عدوه .

المستشار اذن - على الاقل من الناحية المثالية - هو بمثابة المدافع عن الخلافة ولا يكفي بالنسبة لابن المقفع ان يكسب المستشار مدافعاً عنها بل ينبغي عليه ان يسلك في ذلك مسلك التسر والتكتم وان لا يفصح عما فعله وعما قاله ، ويقول فسي الادب الكبير: " تنكبّ فيما بينك وبين الوالي... خلقا قد عرفناه في بعض الوزراء والاعوان والاصحاب من ادعاء الرجل عندما يظهر من صاحبه من حسن أثر أو صواب رأى انه هو عمل في ذلك أو أشار به ، وادقاره بذلك اذا مدحه ماذح ، بل وان استطعت ان يعسرف صاحبك انك تنحله صواب رأيك فضلاً عن انك تدعي صوابه وتسد ذلك اليه وتزيّنه فافعل"^٢ .

ويظهر من الامثلة السابقة ان المشورة كانت تخضع لبعض الاصول التي يملئها احتراس المستشار من صاحب السلطان والتي هدفها وقايتها من اي ردة فعل سلبية تصدر عن صاحبه ، ذلك ان المستشار

^١ الجهشيارى، الوزراء: ٢٢٩؛ ونلاحظ ان هذه النصيحة مخالفة فسي روحها للنصيحة التي سبق ذكرها ص: ٨٠. فيدي هنا يدلي بنصيحته مباشرة دون ان يسلك في ذلك مسلك التضمين ورواية المثل وانسه ينهي الخليفة عن هدم ايوان كسرى.

^٢ الادب الكبير: ٦٢ .

وان قوى نفوذه وكان من كبار الوزراء فانه يظل تحت رحمة صاحبه الذى تخولته سلطاته ان يسيء اليه وان ينكبه ، وهذا ما سوف نسراه في الفصل التالي .

د - مصير الوزير: الصرف والنكبة

ان للخليفة عادة ملء الحرية في صرف كتابه او وزيره ساعة يشاء ولا يحتاج الى تفسير فعلته امامه وليس للكاتب او الوزير المخلوع مطالبة الخليفة بتسويغ ما فعله . وقد يطلب الوزير من الخليفة ان يعفيه من الوظيفة لكن الخليفة يستطيع ان يرفض استهفائه وغالبا ما كان يرفض فعلا ، روى الجهشيارى ان ابا ايسوب ، وزير المنصور ، طلب من الخليفة ان يقلبه فاجاب المنصور : " لايسعني مع عظيم جرمك ، وجيل ذنبك ، اقاتك ، ولا العفو عنك . . . " فالخليفة المنصور كان ساخطا على وزيره من فعل أتى به لكن هذا لم يدفعه الى اعفائه من وظيفته .

ويعطي الجهشيارى مثلا آخر حول رفض استهفاء الوزير يدور حول حادثة وقعت في خلافة المهدي ، وهي ان يعقوب بن داود - وزير المهدي - قال للخليفة المهدي " فأعفني ، وول من شئت فاني احب ان أسلم عليك انا وولدي . والله اني لا تقرب في الليل منذ وليتني امور المسلمين ، وليس دنياك بعوض عن آخرتي . . . فكان المهدي يقول له : اللهم غفرا اللهم اصلح قلبه " . ويذكر الجهشيارى ايضا ان يحيى بن خالسد البرمكي خاف على ابنه جعفر من ملازمته الرشيد وقال للخليفة : " يا امير المؤمنين ، اني اكره مداخل جعفر ولست آمن ان ترجس العاقبة علي في ذلك منك ، فلو اعفيت . . . لكان احب الي واولسى بتفضلك ، وآمن عليه عندي . فقال له الرشيد : ليس بك هذا . ولكن

^١ الجهشيارى ، الوزراء : ١٢٠ .

^٢ المصدر السابق : ١٦٠ .

بك ان تقدم عليه الفضل (اخا جعفر)"^١.

وكان الكاتب او الوزير دائما لا يواجه اجراء الصرف بالتحدي، بل يمثّل له . ولا يحدثنا التاريخ عن اى نماذج تشير الى ان الكاتب تمرد على صاحب السلطان، وذلك لان التمرد على السلطة هو نوع من التشكيك بها فالكاتب - كما يرى زبال - اعتبروا انفسهم من صلب السلطة واصحاب المصالح الحقيقية فيها، ولذلك لستم يشكّلوا في وقت من الاوقات جسما معارضا لها. ولا نرى في تاريخ الكتاب ان الكاتب المقالين تآزروا وتعاظدوا ليواجهوا اجراء الصرف. وتدور رسالة عبد الحميد في هذا الاطار، فهو يصف كيفية تلافي ضربات صاحب السلطان ولكنه لا يتكلم عن امكانية الرد على هذه الضربات بالاسلوب نفسه^٢.

كان الكاتب اذن يواجه مصيره وحيدا وقد يرفض مساندة باقسي الكتاب له . وفي هذا الصدد يورد الجبهشيارى رواية شديدة الدلالة

^١ المصدر السابق : ٢٢٥ .

^٢ انظر زبال ، تكسون : ٧٢ .

^٣ يقول عبد الحميد (الوزراء : ٧٦ - ٧٧) : " فقد عرفت ان سائس البهيمية ، اذا كان حاذقا بسياستها ، التمس معرفة اخلاقها ، فسا اذا كانت رموحا اتقاها من قبل رجليها ، وان كانت جموحا لم يهجمها اذا ركبتها ، واذا كانت شموسا توقاها من ناحية يدها ، وان خفاف منها عضاها توقاها من ناحية رأسها ، وان كانت حروضا لم يلاحها ، وتتبع هواها في طريقها ، وان استمرت عطفها ، فيسلس لسلس قيادها " .

تدور حول يحيى بن خالد البرمكي، وزير الرشيد، بعد ان نكبه، ان يبادر احد الكتاب الى مصافحته فصرخ يحيى قائلاً: "اياك، اياك...". ثم اضاف مخاطباً الكاتب: "اسمع مني وافهم عني! ان هذا الامر لسو بقي فيمن كان قبلنا لم يصل الينا، ولو بقي فينا، لم يصسل بعدنا، ولا بد للاعمال من تصرف وللأمر من تنقل، وقد كنا قبسل اليوم دواء فاصبحنا داء فلا تعد".^١ ان لموقف يحيى وفلسفته دلالة رمزية لانه دعوة موجبة الى سائر الكتاب لكي ينضوا تحت لسواء السلطة، ان لا ينبغي ان يتحالف كاتب مع آخر مقص من الادارة. ويلاحظ في هذه الرواية ايضاً ان يحيى لم يتساءل ما اذا كانت السلطة محقة في اقصاها ام هي غير محقة، انما يهّمه الا يبسدر من الكاتب ما يظهر انه لا يتقيد بقرار صاحب السلطان. غير ان هذا لا يعني ان لا ينبغي ان يمدّ الكاتب يد العون لكاتب منكوب، لكن هذا العون يجب ان لا يتم ابداً على حساب الخليفة، ويقتصر في معظم الاحيان على مدّ الكاتب المنكوب بالاموال. يروي الصابئ ان "علي بن عيسى (الوزير) لم يقبل لاحد من الكتاب في نكبته هذه معونة مع بذلهم ذلك له الا ابن فرجويه (كاتب ابن الفرات) فانه حمل اليه الف دينار".^١ وتدخل معاملة الكاتب المنكوب في اطار رسالة عبد الحميد الذي يقول مخاطباً الكتاب "وان نبسنا الزمن برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه".^٢ ولكن مفهوم المواساة هنا لا يدخل فيه ابداً مفهوم المساندة والتضامن، والكاتب يحسّ الكاتب المنكوب على التعامل مع نكبته وكأنها امر واقع لا يمكن تغييره.

ولقد ذهب عدد كبير من الكتاب والوزراء ضحية الصرف على مسير العصور وقد سبق ان ذكرنا ان السعاية الناشطة في فئة الكتاب كانت مسؤولة عن ذلك الى حد ما. ونستطيع ان نقول انه حتسسى

^١ المصدر السابق: ٢٥٨.

^٢ المصدر السابق: ٧٥.

عندما ما لم يكن في الامر سعاية كان اجراء الصرف قاشما فسيي
الدواوين بمبادرة من صاحب السلطان. وكثيرا ما كان صـ
الوزير يتم عند تغيير العهد وتبديل الخليفة^١.

لم يكن مجرد الصرف الاجراء الوحيد الذي كان صاحب السلطان
يلجأ اليه للايقاع بالوزير وكتابه وعماله ، بل كان يرافقه
اجراءات اخرى تهيئ على الكاتب، ومن هذه الاجراءات: الاعتقال
والحبس في المطبق ومداهمة الدور والمصادرة على الاموال^٢. وهذا
كله يفسر خوف الوزير او الكاتب من انقلاب الامور عليه ، حتى ان
ابا ايوب وزير المنصور كان يمتنع لونه كلما استدعاه الخليفة
لانه كان يخاف من الاعتقال، كما روى الجهشيارى^٣. وقد اصبغ لمبدأ
اعتقال الوزير في بداية القرن الرابع اصول معينة كانت تنسب
على عدم القبض عليه وهو منصرف عن الخليفة^٤. ايجابا لحسب
الوصول وحرمة انما يقبض عليه في بعض الممرات عن دخوله من قبل
ان تقع عينه عليه^٥. وكما ان الصرف كان يتجاوز الوزير الى افراد
عائلته لاسيما الذين يتولون منهم شؤوننا ادارية كذلك كان الاعتقال
يتجاوزهم اليهم وفي هذا المجال يذكر الجهشيارى ان المنصور حبس
وزيره ابا ايوب "وحبس اخاه خالدا وبني اخيه وهم مسعود وسعيد
ومخلد ومحمد^٥ . ولم يكن لمحمد حظ من امرهم .

^١ انظر المصدر السابق : ٠٩٩ .

^٢ وكانت هذه الاجراءات تبلغ احيانا حد القتل كما حصل مع جعفر
ابن يحيى البرمكي (انظر الجهشيارى ، الوزراء : ٣٣٤) .

^٣ انظر المصدر السابق : ١٠٢ .

^٤ الصابي ، الوزراء : ٢٦٨ .

^٥ الجهشيارى ، الوزراء : ١٢٠ - ١٢١ .

اما المصادرة فكانت تتم بان تضع السلطة يدها على املاك الكاتب او الوزير. ويشير الجهشيارى الى ان الرشيد عندما نكب البرامكة " . . . ارسل مسرورا والحسن الخادمين، واما صالح يحيى بن عبيد الرحمن الكاتب، وابراهيم بن حميد الكاتب، فقبض مالهم وعقاراتهم وضياعهم في العراق" ^١. والملاحظ هنا ان الذين كُفِّسوا بمصادرة اموال البرامكة هم من الكتاب يرافقهم بعض الخسدم، وترجح ان وجود الكتاب كان الغرض منه تسهيل عملية احصاء الاملاك وتسجيل الاموال. ولا بد هنا من التذكير بما سبق ان اشرت اليه وهو انه اصبح للمصادرة ديوان خاص بها منذ آخر القرن الثالث الهجرى، وذلك ديوان اوجده محمد الخاقاني الوزير (٢٩٩-٣٠١)، بالاضافة الى ديوان الضياع المقبوضة الذى كان يدير شسؤون عقارات الوزراء المشكوبين وضياعهم. اما الاموال المصادرة من الكاتب والوزير فكانت تؤخذ احيانا الى بيت مال الخاصة وحيثما الى بيت مال العامة ^٢. وكانت مصادرة الوزير على امواله تتم بهدف تقويض نفوذه، لان المنصب والنفوذ رهن بثروة الوزير المالية الى حد بعيد، ياتي تجريد الوزير من املاكه وشروته محاولة لاقصائه من بين المرشحين لاحتلال الوزارة مرة اخرى، اذا كان وزيرا، او رشاسة ديوان من الدواوين اذا كان رئيسا

^١ المصدر السابق: ٢٣٥.

^٢ انظر الصابى، الوزراء: ٧٩، غير انه لم يكن هنالك فصل بالمعنى الحرفي للكلمة بين بيت مال الخاصة وبيت المال ذلك انه كان يقع عجز احيانا في بيت المال فيبادر الوزير الى الاستعاضة بأموال الخليفة لتمويل بيت المال بقروض معينة يفيها فسيحي الوقت المناسب كما فعل ابن الفرات في وزارته (انظر المصدر السابق: ٢٦٢).

للدواوين. ولهذا السبب بالذات عمد المقتدر بالله عند صفحه عن ابن الفرات بعد اعتقاله سنة ٣٠٤ الى رد... عليه ما كان قبض عنه وعن اهله وكتابه واسبابه من الضياع والاملاك^١... شمس سلمه الوزارة.

ولم تكن المصادرة قاصرة على الوزير بل كانت تتعداه الى عدد من كتبه وعماله. ويذكر الصابي^٢ اسماء عدد من الكتاب الذين صودروا على اموالهم في وزارة ابن الفرات سنة ٣١١ بعهد ان انقضت وزارة حامد بن العباس والكتاب الذين صادرهم ابن الفرات هم من انصار على بن عيسى الذي تولى رئاسة الدواوين فسياسي وزارة حامد^٣. وكان الايقاع بالكتاب المخلوع يؤدي احيانا الى تجريده الكامل من امواله. وكان العمال يخضعون للاجراء^٤ ذاته ويروى الصابي ان العمال كانوا كذلك يعذبون بشتى الوسائل وكان صاحب الاستخراج هو الذى يبادر الى تهذيب العامل بلاشارة من الوزير^٤.

^١ المصدر السابق: ٣١٠.

^٢ انظر المصدر السابق: ٣٨ - ٤١.

^٣ انظر المصدر السابق: ١٢١.

^٤ يروى الصابي ان ابن الفرات عندما اراد تعيين مستخرج قال: "اريد رجلا لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر يطيعني..." (المصدر السابق: ١٢٢).

وغالبها ما كان يؤدي تعنت الكاتب، أو الوزير، في عدم تسليم الاموال الى هلاكه كما حدث مع ابن الفرات الوزير الذي لم يقسُر بأمواله فقتل.^١ وكانت تستخدم عبارة "الط" للإشارة الى الكاتب الذي لم يؤد الاموال رغم توفرها لديه.^٢ اما عبارة "بالتسح" فانها تستخدم للإشارة الى الكاتب الذي أقر بجميع امواله ولم تبلغ قيمتها المبلغ الذي قرره عليه الوزير وطالبه به صاحب الاستخراج، فلم يبق لدى الكاتب المنكوب ما يدفع عن نفسه اذى المطالبة.^٣

وقد ازداد اللجوء الى التعذيب مع ازدياد الصعوبة في الحصول على الاموال واستخراجها، لان الوزير أو الكاتب اخذ يحتسب العملية المصادرة بان يعتمد الى توظيف الاموال المتحصلة لديه في مشاريع تجارية. ويذكر لومبار ان كبار التجار الذين كانوا على اتصال بدار الخلافة كانوا يسهلون هذه المشاريع التجارية^٤، وكان يتم تجيير الاموال احيانا بسرية تامة بحيث لا يدري احد بها. يذكر الصابي انه (أي ابن الفرات الوزير) نصب يوسس فيجاس وهرون بن عمران الجهبذ فلم يساع مالا لابسس.

^١ انظر المصدر السابق: ٠٦١

^٢ انظر المصدر السابق: ٠١٠٤

^٣ انظر المصدر السابق: ٠٤١

المعتز والعباس بن الحسن ومن نكب وقتل في الفتنة (اي انقلااب ٢٩٦) وما صحَّ من مال المصادرين وغيرهم من يجرى مجراهم الا اجراء على ايديهما دون يدى صاحبي بيت المال الخاصة والعامّة ، وافسرر ابن فرجويه كاتبه بمحاسبتهما والاستيفاء عليهما ، فكان يحاسبهما ولا يرفع الى الدواوين شيئا من حسابهما... وفاز ابن الفسرات بالمال ولم يقم به حجة عليه " .

وكانت مصادرة الاموال تتخذ احيانا شكل التضمين . والتضمين شبيهه بالمصادرة لان هدفه هو تحصيل الاموال من المنكوب باللجوء العلى شتى اشواع التعذيب . ويتم التضمين بان يضمن احد الكاسب او الوزير من خصم له مبلغا من المال يسلمه الى الخليفة علسى ان يسلمه الخليفة خصمه ويطلق يده في التصرف بحياته . وفي هذا المجال يذكر الصابى ان المحسن بن علي بن محمد بن الفرات اشار على والده وهو محبوس بان يضمن حامدا (وزير المقدر آنذاك اى بين سنة ٣٠٦ و ٣١١) وعلي بن عيسى واسبايها... وقد عرض عليه المقدر بالله الشيء ذاته . مما يشير الى ان التضمين كان اجراء يلجسا اليه الوزير المنكوب للايقاع بالوزير القائم وكان يستغل فيسه حاجة الخليفة الملحة الى الاموال . والمتصور ان هذه الحاجة هسي التي ادت الى تفشي ظاهرة التضمين في مطلع القرن الرابع .

^١ الصابى ، الوزراء : ٧٩ .

^٢ انظر المصدر السابق : ٦٩ .

غير ان استخراج الاموال بالقوة والمصادرة والتضمين لم تكسب من الاساليب الوحيدة المتبعة لوضع اليد على اموال الكاتسب او الوزير المذلول. ولا بد هنا من التمييز بين نوعين من المطالبة : الأولى هي التي سبق ذكرها والتي تسلك سبيل العنف والتنكيل، والثانية تسمى مطالبة الكتاب، ويتبع فيها اسلوب الكسب والالتحاق الشفهي، ولا يكون لصاحب الاستخراج دور يلعبه فيهما. فالصائب يروى ان ابا الحسن بن الفرات الوزير قلد ابا سهل النوبختي اعمال المبارك، و ابا العلاء محمد ابن علي البزوفسري اعمال الصلح والمزارعات ووافقهما على مطالبة حامد (بن العباس وزير المقتدر) بالمال المذكور (سنة ٣١١) فطالبه النوبختسي مطالبة الكتاب وسلك البزوفسري معه سبيل العنت والارهاق^١ ، مما يشير الى تميّز المطالبتين. ويدخل في اطار مطالبة الكتاب عملية المناظرة. والمناظرة نوع من المحاكمة يخضع لها الكاتسب او الوزير بعد صرفه وهدفها استحصال فائض الاموال التي يكون قد اقتطعها لنفسه والتي تعتبر السلطة ان لها حقا فيها. وترقى المناظرة في الزمن الى بداية العصر العباسي وكانت تسمى المحاسبة ، ويذكر الجهشيارى ان الذليفة المنصور امر وزيره ابا ايوب بمحاسبة طريف صاحب ديوان البريد^٢ . وقد تطورت المناظرة

^١ المصدر السابق : ٣٤ - ٣٥ .

^٢ انظر الجهشيارى، الوزراء : ١٠١ .

في نهاية القرن الثالث ومطلع الرابع لتصبح نوع من المحاكمسة
يخضع لها "المتهم".

وقد أورد الصابي عددا من المناظرات التي خضع لها السسوزراء
المنكوبين ووجوه الكتاب، نذكر من بينها على سبيل المثال مناظرة
ابن الفرات لعلي بن عيسى سنة ٣٠٦ هـ. قال: (ابن الفرات لعلي بن
عيسى) قد أمر أمير المؤمنين بأن تطالب بالأموال التي اقتطعتها
وجمعدها وينبغي أن تعطىها عفواً وتصون نفسك عن المكروه. فسأل:
لست من ذوى الاموال وطلي قدرة على اكثر من ثلاثة آلاف دينار.
فقال له ابن الفرات: تقول هذا وقد وجد لك عند عيسى الناقد سبعة
عشر الف دينار وأخذ خطه بها وديعة كانت لك عنده. فقال: هذا رجل
قلدت مال ضياع البر والجهيدة وعنده أموال حائلة. فاما ان يكون
هذا المال منها او تكون قد اخذت ماله ونسبت الي واكرهته علسي
ان كتب خطه بذلك^١.

وهذه الرواية تشير بوضوح الى هدف المناظرة الكامن هو استرجاع
الاموال.

بقي ان نذكر ان المناظرة كانت تتم على مراحل. اما المرحلة
الاولى فهي مرحلة وضع المؤامرة^٢، ويتولى ذلك الوزير يعاونه عدد
من الكتاب فيراجعون السجلات المتوفرة في الديوان ويستخرجون منها
الوثائق التي لها دلالة معينة من حيث اقدام الكاتب او الوزير على
سلب الاموال. وتنقسم المؤامرة في ابواب ولا تتناول فقط المبالغة
التي اقتطعها الوزير لنفسه، بل احيانا تهما سياسية دينية يرعى

^١ الصابي، الوزراء: ٢٩٠ - ٢٩١.

^٢ انظر حول المؤامرة مقال Amedroz, Abbassid administration and its decay in The Journal of the Royal Asiatic Society, 1913, p.835.

بها الوزير، هكذا اتهم ابن الفرات الوزير علي بن عيسى بالقرمطة^١. يتلو الوزير المؤامرة ويتتبعها المتهم بابا بابا وذلك بحضور كبار الكتاب والقضاة واصحاب النفوذ والقسادة العسكريين^٢ واحيانا بحضور الخليفة مستترا^٣. وكان يحدث ان يطلب الوزير ان يذتلي "بالمتهم". ويتقدم الوزير بعسجد الانتهاء من قراءة المؤامرة من "المتهم" ليأخذ خطه. وأخذ الخط هو تعهد "المتهم" بدفع المبالغ المطلوبة منه او التنازل عن بعض الاملاك، او الاعتراف بالخيانة.

ويكمن امتياز المناظرة في انها تحافظ على حياة المتهم وترأف به وتستخدم معه الاساليب "الرفيقة المترفقة". وتأتي المناظرة لتحدد نوعا ما من التنكيل والتعذيب، وهي اساليب كانت تستلزم اراقة الدماء، وبالتالي امكان زعزعة الوضع الامني، عدا عن انها تقوم على مبدأ اطلاق يد الوزير في العمل اي توسيع نفوذه. كذلك تأتي المناظرة محاولة تضمن استخراج الاموال بتجنسب اراقة الدماء والفوضى المترتبة عليها. لكن ذلك لايعنسي ان المناظرة حلت كليا محل العسف والتنكيل. والاحداث التاريخية تدل على ان المناظرة غالبا ما كانت مجرد مقدمة للتنكيل "بالمتهم"، لاسيما اذا رفض الكاتب او الوزير المنكوب تسليم الاموال المطالب بها. يروي الصابي في حديثه عن نكبة ابيسن الفرات الثالثة سنة ٣١٢هـ. انهما (اي ابن الفرات وابنسن المحسن) لما رأيا ان قد سلما الى اصحاب السيوف وعدل بهمسسا عن الكتاب خافا القتل وضنا باموالهما^٤.

^١ الصابي، الوزراء: ٢٩٢ - ٢٩٣.

^٢ انظر المصدر السابق: ٢٩٢.

^٣ المصدر السابق: ٢٩٣.

^٤ المصدر السابق: ٦٠.

ولم يكن يخضع للمناظرة سوى الوزراء ووجوه الكتاب وليست المناظرة محاكمة بالمعنى المعاصر للكلمة ، ولا يمثل الكاتب امامها لانه متتهم بجناية معينة تكون هنا الاختلاس كما انه ليس اقتطاع مبالغ ضخمة هو الذى يحيل الوزير او الكاتب على المناظرة وليس سببا في نكبة الكاتب او الوزير في استخراج الاموال منه ، بل السبب في ذلك هو انقلاب الامور عليه وسعاية الآخرين به ثم حاجة الخليفة الملحة الى التزود بالاموال كما سبق ورأينا . وكانت هذه العوامل مجتمعة تؤدى الى نكبة الكاتب او الوزير واحالته على المناظرة حيث تثار مسألة اختلاس الاموال ، فتتم مناظرة الكاتب او الوزير اى استجوابه كما مر معنا . ولا يستطيع الكاتب او الوزير في المناظرة ان يثبت براءته لان المناظرة تنطلق من مبدأ ضرورة استخراج الاموال من " المتهم " ، لا من مبدأ صحة التهمة المنسوبة اليه . لذلك لم يكن دفع " المتهم " للاموال المطالب بها يأتي محاولة للتعويض عن ذنب ارتكبه ، بسبب كضرورة يستلزمها تجريده من نفوذه وتمويل بيت المال . ولم يكسب يطلق سراح المتهم في حال عدم اعترافه بالاموال التي لديه وغالبا ما كان يقتل اذا أصر على عدم الاعتراف كما حدث لابن الفرات الذى كان يأبى تسليم أمواله ، او يرمى بالسجن او المطبق ، واحيانا ساءا كان ينفى الى ناحية بعيدة رغبة بتحييده وعدم السماح لسياسه بترشيح نفسه كما حصل مع علي بن عيسى الذى أخرج الى مكة^١ .

وكان ثقل الاحوال ونكبة الكتاب والوزراء يؤثر سلبا على فعالية الجهاز الادارى ، ان صار هذا الجهاز غير قادر على ان يسير بعمى عن التحولات السياسية الناتجة عن انتقال العهد او تبديل الوزراء . ونرى ان الوزارة تغيرت في خلافة المعتدر أى بين سنة ٢٩٢ و ٣١٩ احدى عشرة مرة ، كان يتم في كل مرة تغيير الكتاب الذين عيسى رأس الدواوين ، وكان يعهد هؤلاء الى تعيين كتاب من خواصهم يكتبون لهم . وهكذا لم تستطع المسؤولية الادارية ان تصعد امسام الثقليات الثانوية . ولقد جرت محاولات عدة لجعل الوزارة اكثر

١ انظر المصدر السابق : ٣٠٧ .

شباتا ومن ثم المسؤولين الادارية المتعلقة بها، نذكر من بينها :
محاولة الوزير المختص تعيين خليفة له كما فعل القاسم بن عبيد
الله بن سليمان بن وهب في خلافة المكتفي سنة ٢٩١ فقد عين العباس
ابن الحسن خليفة له على الوزارة وقد ألتم الخليفة بوصيئته
وزيره^١ ونصب العباس بن الحسن وزيرا وعمد الى تقرير اصحاب
الدواوين على دواوينهم كمحاولة للحؤول دون تبديلهم^٢. لكن هذه
المحاولة فريدة من نوعها ولم يكن لها صدى فيما بعد، اذ عسادت
الخلافت التي تمزق فتنة الكتاب لتبرز من جديد بصورة مضاعفة في
خلافة المقتدر، وكانت فتن العامة وعصيان الجند من العوامل التي
زادت الوضع توترا، ذلك ان البيئة المدينة كانت بيئة حافلية
بحركات التمرد التي عثرت فيها العامة عن استيائها وسخطها.

على اية حال افادت السلطة المتمثلة بالخليفة والقادة العسكريين
من هذا الوضع بان اعلنت الوزير المخلوع مسؤولا الى حد ما عمن
الحرمان الذي كان العوام يعانونه في فترات كثيرة. وهكذا كانت
نقمة هؤلاء تصب على الوزير بدل ان تصب على صاحب السلطان، وفي
هذا المجال يذكر الصابي ان نازوك، صاحب الشرطة، عندما اعتقل
ابن الفرات في وزارته الثالثة سنة ٣١١ " اخرج ابن الفرات وابنيه
وكتابه الى شاطيء دجلة فلما شاهدتهم العامة رجموهم^٣ ". وقسم
شارك العوام ايضا الى جانب ذلك في مداومة دور الوزير المنكوب
يقول الصابي ان العوام تسرعوا الى دور ابن الفرات في نكبتته
الاولى سنة ٢٩٩ " فنهبوها واخربوها واخذوا ساجها وسقوفها وعظم
الامر بالذهاب حتى ركب ابو القاسم الخال (خال المقتدر) بعسده

^١ اورد الصابي (المصدر السابق: ٣٦٠ - ٣٦١) وصية القاسم بن عبيد
الله التي يقول فيها: "ولم اطب نفسا مع ما آلت اليه الحال بسان
امسك من النصح لمولانا حيا كنت ام ميتا ولا بد ان يقوم لخدمته من
يصلح لها ويجري مجراى في حراستها والذب عنها...".

^٢ انظر المصدر السابق: ٣٦٣.

^٣ المصدر السابق: ٥٢.

العصر في القواد والغلمان وطلب الشهادة وعاقب قوما منهم ، فقامت الهيبة وسكنت الفتنة^١ . ويشير المثل المذكور اعلاه الى ان الفتنة كانت تبالغ احيانا حدًا يستدعي تدخل السلطة العسكرية لتضبط الامور وللحوول دون تحول النقمة على الوزير واستباحة امواله الى فتنة حقيقية تهدد الخلافة بالذات . وتدل هذه الرواية كذلك على ان السلطة لم تكن تفيد من نكبة الوزير على صعيد تحصيل الاموال فحسب بل ايضا على صعيد امتصاص نقمة العوام فيستتب الأمن ولو لفتنة وجيزة .

III- دور الجهاز الادارى في التوازن الاجتماعى

لقد سبق ان رأينا في الفصل السابق ان تقلب الاحوال ونكبة الوزراء والكتّاب كانا من العوامل المؤثرة على فعالية الجهاز الادارى وعلى منصب الوزارة عامة . ويبقى ان نعرف الاسباب العميقة التي زعزعت الجهاز الادارى وادت تدريجيا الى ضعف الوزارة في مطلع القرن الرابع .

لقد استطاع الكتّاب كما مرّ معنا احتلال المرتبة الثانية في السلطة بصورة عامة كما انهم استطاعوا رفع مستوى الجهاز الادارى الى مسا يشبه المجلس الاستشارى . غير ان القادة العسكريين استمروا فسي محاولتهم السيطرة على الجهاز الادارى ، وحسم الصراع بين الفريقين لصالح القوات العسكرية بدليل ان امير الامراء احتل المرتبة الثانية الثانية في الدولة البويهية . وكان الصراع القائم بين السلطنة العسكرية والسلطة الادارية يستمد جذوره من عوامل اجتماعية سياسية لا بد من الاشارة اليها . اهمها العامل الذى ورد معنا في فصل سابق

^١ المصدر السابق : ٢٨ - ٢٩ .

وهو ضرورة تشاميين الارزاق للجند. وكانت تأتي تسوية مشكلة الارزاق احيانا بان يقلد الخليفة قائدا عسكريا ناحية من النواحي يكون عاملا عليها ويتصرف بعد اذيلها فينفق على جنده من خراجها كما حدث مع القائد التركي ايتاخ الذي ولاه المعتصم اليمين سنة ٢٢٥^١، ومسح احمد ابن طولون الذي تقلد مصر في خلافة المعتز سنة ٢٤٥^٢. وكانت تولية القيادة العسكريين اعمال النواحي وجباية الخراج تؤدي الى زيادة نفوذهم والى نشوب مصدر الضريبة لان اموال هذه الضريبة لم تعد تصل كاملة الى المركز. لقد ادى استيلاء الجند على مرافق الدولة الحيوية الى انحلال الوزارة وضعف الجهاز الاداري، لأن هذا الجهاز يستمد فعاليته وسلطته من قدرته على التحكم بمسؤولي السلطة المالية واهمها ضريبة الخراج.

ونذكر ان الجهشيارى وعى خطورة تقليد القيادة النواحي اذ انسه يقول في مقدمته مخاطبا صاحب السلطان: " واحذر ان تستعمل عيسى الارض الكثير خراجها الا البعيد الصوت ، العظيم شرف المنزلة . ولا تولين احدا من قادة جنك ، الذين اتخذتهم عدة للحرب، وجنسة من الاعداء ، خراجا ، فلعلك ان تهجم من بعضهم على خيانة للاموال وتضييع للعمل . فان سوغته المال واغضيت له على التضييع كان ذلك هلاكاً للمال . . . " ^٣ . ويضيف الجهشيارى مستشهدا بملوك فارس : " وكان ملوك فارس اذا انفذوا جيشا انفذوا معه وجها من وجوه كتابهم ، وامروا صاحب الجيش الا يحل ولا يرتحل الا برأيه ، يبتغون بذلك فضل رأى الكاتب وحزمه " ^٤ . وخرج ان الجهشيارى يلوح هنا بالانموذج

^١ انظر ابن الاثير، الكامل ٦ : ٥١٦ .

^٢ انظر المصدر السابق ٧ : ١٨٧ .

^٣ الجهشيارى، الوزراء : ٧ وانظر ايضا ابن المقفع، رسالة الصحابة : ١٢٢ .

^٤ الجهشيارى، الوزراء : ٤ ويذكر الصابىء (الوزراء : ٧٢) عن ابن الفرات ما يشبه هذا القول : " قال ابن الفرات : السيف تابع والقلم متبوع وقل سيف غلب القلم الا كان داعية الخراب " .

الفارسي رغبة بجعل صاحب السلطان يحدّذ حذو ملوك فارس ويعطسي للكاتب - اي السلطة الادارية - الافضية على السلطة العسكرية . ويتفق ما ورد على لسان الجهشيارى مع ما ذكره ابن الفرات يقول الصابىء : عن ابي الحسن بن قرابة : " سمعت ابا الحسن بن الفرات يقول لكتاب نجح وقد سألته تظمينه الصدقات بفارس، انما يرغب في عقد الضمان على تاجر مسلي . او عامل وفي . او تان غني . فاما اصحاب الحروب فعقد الضمان عليهم ومطالبتهم بالخروج من اموالها تستدعي منهم العصيان وذبح طاعة السلطان " . وتشير هذه الروايات مجتمعة الى خوف السلطة الادارية من تنامي نفوذ القادة العسكريين وتصرفهم باموال الدولة .

غير ان الامر لم يقف عند هذا الحد اذ برز عامل آخر هدد اموال السلطة هو توزيع القطائع على القادة اصحاب النفوذ . والقطائع هي اصلا الصوافي التي لم تكن في يد احد عند الفتح الاسلامي والتي استطاع الخليفة ان يتصرف بها من حيث اقطاعها لاحد المقربين اليه . وكان اقطاع القطائع ينقل ملكية الارض بصورة فعليّة الى صاحب القطيعة اذ ليس للخليفة حق انتزاع قطيعة من شسار او وارث وليس له ان ينقلها الى آخر^٤ . ولقد أدى اقطاعات الخليفة الصوافي الى نفاذها حتى اصبح الاقطاع يعني تحويستل

^١ عقد الضمان او التضمين يتم بان تعهد السلطة الى احد التجار بجباية ضريبة الخراج من ناحية من النواحي . فيتقدم الضامن بتأمين المبالغ قبل موعد الجباية على ان تكون قيمة الامسوال المدفوعة للسلطة اقل بقليل من القيمة الاصلية الجباية . مسن ناحية معينة . هكذا يؤمن الضامن لنفسه الربح وتكون السلطة قد لبت حاجتها الملحة الى الاموال وكان التضمين يتم من سنة الى ثلاث سنوات وهو قابل للتجديد (انظر (C.Cahen, Islam I, p. 81.)

^٢ الصابىء ، الوزراء : ٧١ .

^٣ انظر ابو يوسف ، الخراج : ٦٢ .

^٤ انظر المصدر السابق : ٦٦ .

اراض من اراضي الخراج الى صواف وانتقالها من رسم ضريبة الخراج الى رسم ضريبة العشر^١. وشرح ان السبب في تفشي ظاهرة اقطاع القطائع في بداية القرن الرابع يعود الى رغبة السلطة في ارضاء القادة العسكريين وصعوبة تلبية مطالبهم في الآن نفسه. ويسسورد الصابي في هذا الصدد رواية شديدة الدلالة تدور في وزارة القاسم بن عبيد الله سنة ٢٨٨ - ٢٨٩ ، تقول الرواية: " جاء ابن سمعان صاحب بدر المعتضدي (وهو قائد عسكري) الى ابي النجم بدر (مسيب القيادة ايضا) وقال له : ايها الامير، احمد بن محمد بن الفسرات (صاحب ديوان الخراج آنذاك) لا يزال يستدق بنا ويستهيئ برسائنا ويجيبهم بالقبيح فيما يوصلونه اليه ويعرضونه عليه من التوقيعات باقطاعاتك وهو عدو مكاشف لهذه الدولة... فقال له بدر: امض الى ديوانه وجثني به . فجاء به فلما رآه قال له : امسيطر انت على مولاي ام شريك له يقطعني الاقطاعات فتمتنع منها وتعرض فيها . فقال له : اسمع ايها الامير قولي ، فان ثبتت عندك حجة لي فخذض من لومي والا عملت بعدها ما رأيت . انت تعلم ان قوام الملك بالممال وان الجند لا يسمعون ولا يطيعون الا ان اعطاهم ، وان عدموا الممال كان ذلك الداعية القوية الى زهاب الملك وسفك الدماء وانقطاع السبل وانتهاك المحارم . وجميع الممال في عنقي وعلي فاذا خرجت الضياع من الاقطاع تبعها الخراج فتحيثت الحقوق وأضيف الى كسسل شادية ما يجاورها وكان في ذلك ما لا خفاء به مما اعوذ بالله منه^٢.

ان اقطاع القطائع ادى حسب رأي كاهن الى نشوء فئة مسيبن الارستقراطية المتملكة "والاقطاع" الناشء بين كبار القسادة العسكريين^٣. بينما شكّل الكتاب فئة البرجوازية المدينيّة

^١ انظر المصدر السابق : ٦٣ .

^٢ الصابي ، الوزراء : ١٧٩ - ١٨٠ .

C. Cahen, Islam I, p. 147.

^٣ انظر

وكانوا يتعاطون العمليات التجارية او يوظفون اموالهم فيها. نذكر مثلا ان ابا ايوب المورياني الوزير اشترى طعام سواد الكوفة وسواد البصرة في خلافة المنصور طامعا في الربح. ويذكر الصابي^١ ان ابن الفرات اودع ماله بعض الجهابذة في وزارته الاولى كي يوظفوه فسي بعض المشاريع فيجني ارباحا من ذلك.

وكان الكتبة بالاضافة الى ذلك مرتبطين بفضة التجار، اذ كسبان التجار دعاهم في السلطة، فيبادرون الى مدّ الوزراء بالاموال عند اللزوم. او يبيعون المحصول الزراعي ويدفعون اموال الضريبة التي الوزير ويجنون من ذلك الارباح. يروي الجهشيارى ان "كان التجسار في بغداد قد انفذوا وكلاءهم ورسلمهم الى الفضل بن سهل (ذي الرياستين في خلافة المأمون) لينظروهم عندهم في غلات السواد، واعطوه عطايا لم يجيبهم اليها فقال لي (والمحدث هو الحسن بن سهل اخوه) : قد علمت ما دار اليوم بيني وبين وكلاء تجار السواد وأني تأبيت قبول مسا بذلوه، فاحضرم وامض البيع لهم...".^٢ ويعطي الصابي^٣ صورة عيسى ارتباط التجار بالجهاز الاداري وبالاخص بالوزير، فيقول: "وكسبان علي بن عيسى اذا حلّ المال وليس له وجه استسلف من التجار عيسى سفاتج وردت من الاطراف لم تحلّ عشرة آلاف دينار بربح دانق ونصف فضة في كل دينار يلزمه في كل شهر الفان وخمسمائة درهم ارباحا. فلم يزل هذا الرسم جاريا على يوسف بن فيجاس وهرون بن عمسيران (وهما من الجهابذة) ومن قام مقامهما مدة ست عشرة سنة".^٤ وقسّد ورد على لسان ابن الفرات ما يشير الى انسه كان يحدّد عقسسد ضمان الارض على الاغنياء من التجار. غير ان تعاطي الكتاب والوزراء الاعمال التجارية وارتباطهم بالتجار لايعني قط انه لم يتملكسوا

^١ انظر الجهشيارى، الوزراء: ١١٧، والصابي، الوزراء: ٧٩.

^٢ الجهشيارى، الوزراء: ٣٠٩.

^٣ الصابي، الوزراء: ٨١.

^٤ انظر المصدر السابق: ٧١.

الاراضي. لقد افاد الكتاب عامة من عملية التلجئة^١ أو الاجاء، وهي نوع من الوصاية يقوم بها احد وجوه الكتاب على ضيعة ما استجابة لطلب صاحبها، وكان هذا الاجراء يؤدي الى انتقال ملكية الارض من المتمسك الى صاحب النفوذ بصورة تدريجية كما سوف نرى. لكن تملك الاراضي مسن قبل الكتاب لم يكن يتم بالسرعة التي تم بها اقطاع الاراضي وتوزيعها على كبار القادة، اذ لا بد ان تمضي بضعة سنوات قبل ان يحصل الكتاب على امتيازات تصبح الارض بموجبها ملكا له.

ويرى بلانول ان تملك الاراضي في المجتمع الاسلامي كان خاصة البرجوازية المدينة التي لم تر ضرورة الاقامة في الاراضي التي تملكها والابتعاد عن الحضرة^٢. وتشير هذه الروايات الى ان القادة العسكريين والكتاب الاداريين كانوا ينتمون الى فئتين اجتماعيتين متميزتين لكل منهما مصالح مختلفة. اذن رافق صعود الارستقراطية العسكرية في السلسلـم الاجتماعي صعود طبقة التجار فيه، تلك الطبقة التي اتفقت مصالحها مع مصالح فئة الكتاب كما يقول كاهن^٣. وقد حاول كل من الفئتين - التجار والقادة - السيطرة على السلطة من خلال السيطرة على مسوارد الضريبة. سعى القادة لتولي ناحية من النواحي او التصرف بقطيعة من القطاعات بينما سعى التجار لعقد ضمان على ارض الخسـراج^٤.

^١ انظر الجهشيارى، الوزراء: ١١٨. ويرى بلانول (Fondements, pp. 52-53) ان طبيعة الانتاج الزراعي في الاراضي التي اعتمدت على الري حتمت على صغار الملاكين الاعتماد على مشاريع الري التي تقوم بها السلطة المركزية وتمولها فيرتبطون بالمركز عن طريق ممثليها في الاطراف. يؤدي هذا الارتباط الى تمتع موظفي الدولة بامتيازات لهم على الارض

^٢ انظر X. de Planhol, Fondements, p. 52-53

^٣ انظر C. Cahen, Islam I, p. 118.

^٤ يقول الصابي (الوزراء: ٣٤) "وكان اصحاب الدواوين في وزارة ابن علي الخاقاني (حوالي سنة ٣٠٠) شرطوا على حامد في ضمانه الاول لاعمسـال واسط ان يؤدي في آخر سني ضمانه ... مائتين وخمسين الف دينار".

اما دور الجهاز الادارى وفئة الكتّاب فكان يتمثل في المحافظة على علاقاتهم بالتجار الذين يشاركونهم المصالح ذاتها وفي ارضساء القادة العسكريين من حيث تأمين ارزاق الجند دون التمدادى فسسي اقطاعهم القطاعات وتولييتهم الاعمال لان ذلك يؤدى الى نضوب مصدر الضريبة. ان محور الصراع بين الكتّاب والجند هو السلطة وسعساسة النفوذ. وهذا الصراع غير متكافىء بدليل ان القادة اعتمدوا على دعم القوات المسلحة بينما استمدت فئة الكتّاب نفوذها من فعالية الجهاز الادارى وحده دون الاعتماد على العوام او على القسسوات المسلحة. ولقد حاول ابن الفرات في وزارته الثالثة ان ينمّسي نفوذه على حساب نفوذ القائد العسكري مؤنس بان اقنع المقتسدر بابعاد مؤنس عن الحضرة^١، فيتم بذلك تهيئة الاجواء ليستأشسر الوزير بالامر. لكن ابعاد مؤنس لم يطل اذ استدعاه المقتسدر لحاجته اليه في قمع فتنة العامة في بغداد^٢.

وبالاضافة الى ذلك فان سياسة ابن الفرات المتبعة تجاه الكتّاب والحاقه الاذى بعدد منهم والتنكيل والعسف بهم قد اضعف هسسده الطبقة وحدث فيها البلبله والانشقاق بحيث لم تعد تمثل وحسدة متماسكة، فكان ان افاد العسكر من انحلال الطبقة الجزئي، وهسذا الامر هو الذى هيا الوضع لتولي امير الامراء المرتبة الثانية بدلا من الوزير. غير ان بلانول لا يرى ان سياسة ابن الفرات هسسي المسؤولة بصورة مطلقة عن فوز امير الامراء وضعف الجهسان الادارى بل طبيعة الارستقراطية العسكرية المتملكة واختلافها الجذرى عسن الائموزج الغربى للنظام الاقطاعى. ويرى بلانول ان المقطع فسسي العصر العباسى لم يتسلم قطيعته بهدف البقاء فيها واستثمارها ومحاولة الافلات من السلطة المركزية باعلانه السيطرة المطلقة على

^١ انظر المصدر السابق: ٥٦.

^٢ انظر المصدر السابق: ٤٩ - ٥٠.

البقعة التي يمتلكها^١، ولم يحاربها من بعيد بل انه في حالة تنقل مستمر بين المركز والاطراف وطرف في الصراعات القائمة حول السلطة في المركز لذلك فقد حاول ان ينتزعا ونجح بسبب قدرته الاعتماد على القوات المسلحة. وكان لنجاح القسادة العسكريين في الاستيلاء على السلطة تأثير سلبي على الجهاز الاداري ويذكر مسكويه ان معز الدولة البويهبي استغنى سنة ٣٣٤ عن اكثر الدواوين فبطلت وبطلت ازمتها وجمعت الاعمال كلها في ديوان واحد.

^١ يرى بلاشول (Fondements, p.55) ان هدف المقطع لسم يكن زيادة الانتاج الزراعي ولم يعتمد على الرقيق كقوة منتجة كما انه لم يفرض السخرة على احد بل كان يكتفي بفرض ضريبة على سكان قطيعته تحدد مبلغها السلطة المركزية. ادى ذلك الى تراجع الانتاج الزراعي والى عدم اكتمال نظام القطاعات ليبلغ نظمها الاقطاع.

^٢ انظر مسكويه، تجارب الامم (تحقيق امروز، مطبعة شركة التمسدن الصناعية، مصر، ١٩١٥) ٢: ٩٦.

الفصل الثالث

=====

طبقة الكتاب وامتيازاتها

I - تكوّن طبقة الكتاب

لا بد - بعد الفراغ من الكلام عن الجهاز الادارى ورئاسة هذا الجهاز المتمثلة بالمرتبة الثانية - من التطرق الى طبقة الكتاب اجتماعيا ككل ، اعني بذلك من عرض تطور هذه الطبقة التاريخي منذ بدايسسة تكوينها اى في نهاية العصر الاموى ومطلع العباسي ، مع الاشارة الى اهم السمات التي اشترك فيها الكتاب والمراتب التي كانوا عليها والامتيازات التي تمتعوا بها بسبب انتمائهم الى هذه الطبقة .

لقد ترافق تكوين طبقة الكتاب مع الانجاز الذى تم في الحقل الادارى ، في الدولة الاسلامية ، وقد ارتسمت ملامح هذا التكوّن ، الذى جعل الكتاب يؤلفون معشرا - حسب تعبير عبد الحميد^١ ، اى وسطا معيننا او طبقة معينة بشكل خاص في الحضرة حيث الادارة المركزية . ونشير الى حقيقة معينة هي ان الكتاب هم الذين دافعوا عن تكوّنهم كطبقة ، وهم الذين شرّعوا لمجتمع الطبقات في كتاباتهم . يقول ابن المديسر الكاتب في رسالته العذراء معددا طبقات المجتمع : " فالطبقة العليا الخلافة ، . . . والطبقة الثانية الوزارة والكتاب الذين يخاطبسون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم ، ويرتقون الفتوق بأرائهم ، ويتجملسون بأدابهم ، الثالثة امراء الثغور ، . . . والرابعة القضاة " ، وهذا يشبه الى حد بعيد النموذج الاجتماعى الذى عبّر عنه عهد اردشير والسدى مؤاده الفصل بين الطبقات وعدم انتقال الافراد الى طبقات

١ انظر الجهشيارى ، الوزراء : ٧٤ .

٢ ابن المديسر ، الرسالة العذراء (تحقيق زكي مبارك ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٣١) ، ١٠ ، وعن صفة نسب الرسالة العذراء لابن المديسر انظر تعليق دومينييك سودريل في تحقيقه لكتاب الكتاب وصفة الدواة والقلم للبيغدادى ، in Bulletin d'Etudes Orientales, 1952-54, vol.14, p.116.

لا ينتمون اليها في الاصل^١. ونرى من خلال ما ورد على لسان ابيسن المدبر، كاتب المأمون، ان الكتاب كانوا ينشدون التشكل في طبقة على ان تحتل هذه الطبقة المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي، وتأتي مباشرة بعد مرتبة الخليفة، أي في أقرب المواطن من صاحب السلطان.

وبما ان صاحب السلطان هو أيضا مصدر سلطة الكاتب، فان ملازمة الكاتب له امر بالغ الأهمية لايمكن التفريط فيه في نظر الكتاب وقد اتجهت طبقة الكتاب نحو "الانغلاق" - كما سوف نرى - لتحافظ على هذا الامتياز، أي امتياز ملازمة صاحب السلطان، وكانت تسرى ان هذا الانغلاق يتحقق باحتكار صناعة الكتابة، وقد ورد على لسان الجاحظ ما يشير الى احتكار الكتاب لصناعة الكتابة اذ يقول مخاطبا الكاتب: "ثم انكم مع استحواذكم على صناعتكم، وقلسية ملابسة اهل الصناعات لها معكم، لم ار صناعة من الصناعات الا وقد يجمع اهلها غيرها اليها فيعانونها جميعا، وينزلون لضرب مسن التجارات معا، الا صناعتكم هذه، فان المتعاطي لها منكم والمتسبي لها من نظرائكم، لا يليق به ملابسة سواها ولا ينسأغ له التشاغل بغيرها"^٢. وفي هذا النص يظهر الجاحظ انه يعي حقيقة واضحة هي عدم منافسة اهل الصناعات للكتاب وعدم مشاركتهم في صناعات الكتابة. لهذا السبب نجح الكتاب في صيانة صناعتهم والطبقسية المرتبطة بها والتي تمثل نخبة معينة. غير ان ما يشير دهشسية الجاحظ كون الكتاب لا يفيدون من مصدر الاطمئنان الذي يشككسه احتكارهم الصناعة بصورة استثنائية، وعدولهم بالتالي عن كسب طوق هذه الطبقة وممارسة اعمال يسترزقون منها. ولا بد ان يكسبون

^١ ورد في عهد اردشير ما يلي: "ولا يكون (اي الامام) لانتقاله عن الملك باجزع منه لانتقال صنف من هذه الاصناف الى غير رتبته، لان تنقل الناس عن مراتبهم سريع في تنقل الملك عن ملكه". (عهد اردشير، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧: ٦٣).

^٢ الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢: ٢١٠.

هذا الانكفاء على الذات ملازما لطبيعة الصناعة التي لا تسمح للكاتب بالابتعاد عن الدواوين. ونضيف الى ذلك ان صناعة الكتابة تشكلت بالنسبة للكاتب مصدر امتيازات تغنيه عن التحول الى غير هسسسا وتجعله يتشبث بها^١.

ويبقى امتهان الصناعة في جميع الاحوال هو العامل الاساسي السنذى يجمع بين المشتريين الى فئة الكتاب. فالكتاب لا يجمع بينهم نسب واحد، ان منهم العربي والاعجمي كما لا يجمعهم دين واحد، ومنهم النصراني والمجوسي والمسلم.

غير ان هنالك عوامل اخرى غير اتقان الصناعة كانت تسهم في "انفلاق" الطبقة، واهم هذه العوامل بروز تكتلات عائلية امتهن افراد هسسسا صناعة الكتابة جيلا بعد جيل. وكانت هذه العائلات تتصل بدار الخلافة عن طريق تولي احد افرادها مسؤولية ادارية. ولا شك ان اول عائلة امتهنت صناعة الكتابة هي عائلة برمك التي احتل افراد هسسسا مسؤوليات ادارية بالغة الاهمية في خلافة الرشيد^٢. ويمشسسا البرامكة حالة استثنائية من حيث تولي افراد عائلة واحسسدة شؤون الادارة في اوائل العصر العباسي، ولا بد ان تكون السلطة قد تلقت درسا من البرامكة، ان تعاضمت سلطة هذه الاسرة تعاضما شديدا جعلها تظهر وكأنها مصدر خطر على الدولة، فاخذت التكتسسلات العائلية من الجهاز الاداري مدة من الزمن، ثم عادت لتبرز مسن

^١ لا يجوز ان يبتعد الكاتب عن دار الخلافة اى عن مصدر سلطته ورزقه في حال ان كبار التجار والاشرياء يسعون بشتى الوسائل لملازمة صاحب السلطان.

^٢ يقول الجهشيارى (المصدر السابق: ١٧٧): "وكانت الدواوين كلها السى يحيى بن خالد مع الوزارة". وقد وزع يحيى المسؤوليات الادارية على اولاده جعفر والفضل ومحمد. ويضيف الجهشيارى (المصدر السابق: ١٩٣): "وكان يكتب لمحمد (بن الرشيد) على الزمام محمد بن يحيى ابن خالد" (انظر ايضا المصدر السابق: ١٢٣ - ١٤٣).

جديد قبيل منتصف القرن الثالث للهجرة . ويذكر من بين هـ العائلات: بنو الجراح ، وبنو وهب ، وبنو خاقان ، وبنو الفرات ^١ . وقد أصبحت هذه العائلات تشكل نوعاً من "الارستقراطية السياسية" اذا صحت العبارة ، وكان المنتهون اليها يشغلون المناصب المرموقة كولاية الخراج والوزارة . وقد ظهر من بني وهب مثلاً خمسة وزراء هم : سليمان بن وهب وزير المهتدى (٢٥٦ هـ) ، وعبيد الله بن سليمان وزير المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٨ هـ) ، والقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد والمكتفي (٢٨٨ - ٢٩١ هـ) ، وابنه الحسين بن القاسم وزير المعتضد والمقتدر (٣١٩) ، ومحمد بن القاسم وزير القاهر (٣٢١) ^٢ ، فشكّلت هذه العائلات مجموعات تفيد منها السلطة لتتوزد بكبار المسؤولين الاداريين .

وهكذا أصبحت الصناعة وراثية في التكتلات العائلية ، وعمد الآباء الى تحضير اولادهم كي يتولوا مناصب مثل مناصبهم او مناصب غيرها في الادارة ^٣ . ولا نملك معلومات كافية حول صفار الكتاب ، والورّاقين والمحرفين وغيرهم ممن لم يتولوا مركزاً عالياً في الادارة ، ولا نعرف ما اذا كانت الصناعة بالنسبة لهم شأنًا وراثيًا ، اولاً ، لكن فسي

^١ يعطي D.Sourdel, Vizirat, vol.II, p.744- 748 لائحة مفصلة باسماء المنتهين الى هذه العائلات والمناصب التي شغلوها .

^٢ انظر D. Sourdel, Vizirat, vol. II, p. 745

^٣ لم يتعلق الامر بتلقين الصناعة فقط بل تعداه الى تهيئة الجو العام للكتاب المقبل . هكذا فعل يحيى البرمكي اذ يقول الجهشيارى (الوزراء: ١٨٠): "٠٠٠ احضر (اي يحيى البرمكي) مؤدب ابنه هذا (اي ابراهيم) ومن كان ضم اليه من كتابه واصحابه ، فقال لهم : ما حال ابراهيم ؟ قالوا : قد بلغ من الادب كذا ونظر في كذا ، وقد اتخذنا له من الضياع كذا ، وبلغت غلته كذا ، قال : ما عن هذا سألت ، انما سألت : هل اتخذتسم له في اعناق الرجال مننا ، وحببتموه الى الناس ؟ قالوا : لا ، قسما : فيئس العشاء انتم"

كلتا الحالتين تنبهي الإشارة الى انه ليس هنالك منصب وراثي فسي الادارة بالمعنى الدقيق، اذ يرث الابن الصناعة لا المنصب. وقرار وراثته المنصب ليس امرا عائدا اليه قط. غير أن وراثة الصناعة جعلت السلطة تتجه مرغمة احيانا نحو الاستعانة بمن توفر مسن الكتاب الذين يتقنون هذه الصناعة، فأسهم ذلك في جعل طبقة الكتاب مكونة في قسم منها من عائلات معينة، وهذا هو السبب فسي ظهور عبارة "اولاد الكتاب" للدلالة على البيئة الاجتماعية التي تربى هؤلاء فيها^١.

هل بلغت طبقة الكتاب صورة الانغلاق التام؟ نستطيع ان نقول انها لم تبلغ ذلك، فعدا عن اننا لا نعرف الكثير عن صفار الكتاب وانتماهم العائلي، فاننا نعرف عددا من وجوه الكتاب، اي مسن الوزراء ومن اصحاب الدواوين والكتاب المقربين منهم الذين انتموا الى عائلات لم تعرف باتقان هذه الصناعة، ولقد اتصل بعض الكتاب بدار الخلافة عن طريق تولي فرد من افراد عائلتهم منصبا غير اداري في دار الخلافة اول الامر. ونذكر على سبيل المثال محمد ابن عبد الملك الزييات وزير المعتصم (٢٢١ - ٢٢٧)، والواشسسق (٢٢٧ - ٢٣٢)، والمتوكل (٢٣٢ -)، اذ اتصل بالخليفة بعد ان كان والده من قبل يتقلد المشمس والفساطيط وآلة الجمازات^٢. ولعسل ابن الزييات كان ينتمي الى عائلة من التجار - كما قد يدل عليه اسمه - لكنه ما لبث ان اتقن صناعة الكتابة فتمكن من احتلال عدة مناصب ادارية.

D. Sourdél, Vizirat, vol.II, p.567

^١ انظر

^٢ انظر الطبرى، تاريخ ٩: ٢٠٠. والمشمس او المشمس: يحمل ليقسسي الخليفة من الشمس، وكان يحاط بعناية خاصة. والفساطيط: ضرب من الابنية في السفر دون السراق. وآلة الجمازات: مدرة صوف ضيقة الكمين وتعتبر من حلى الجمال. (انظر المصدر السابق ٩: ٢٠٠ وأيضا

(D. Sourdél, Vizirat, vol.I, p. 255)

وغالبا ما كان دخول الكاتب دار الخلافة يتم بواسطة الوزير، او احد كبار الكتاب، فيتبتاه ويدخله في شؤون الادارة دون ان تكون بينهما رابطة عائلية، فيكون الكاتب الجديد صنيعا فلان من كبار الكتاب، او صنيعا الوزير. هكذا اورث البرامكة السلطة العباسية، بعد زوال امرهم ونكبتهم (١٧٨)، كدبة عديدين لا ينتمون الى البرامكة لكنهم دخلوا الدواوين على ايديهم، نذكر من بينهم الفضل بن سهل والحسن بن سهل^١. وقد استمر هذا الرسم فيما بعد.

وتعتبر طبقة الكتاب في واجهة الطبقات في الحضرة، وهذا ما يجعلها قيّمة على الحركات الفكرية والادبية والشعرية، اذ يصبح وجسسه الكتاب هم صلة الوصل بين الشعراء مثلا^٢ ودار الخلافة، يقصدهم هؤلاء في بعض الاحيان لبلوغ صاحب السلطان. ولم يقتصر الامر على الشعراء بل لعله تعداهم الى اللغويين والنسابة والادباء والرواة. ولقد بدأ هذا الدور الذي قامت طبقة الكتاب به في الحياة الثقافية مع البرامكة: اذ يشير الجهشيارى الى ان "جعفر (بن يحيى البرمكي) اوصل الاصمعي الى الرشيد"^٣. ومهما يكن الامر فسيان هذا الدور الثقافي للكتاب نما وعظم فاصبح الكتاب يستقطبون عددا

^١ انظر الجهشيارى، الوزراء: ٢٣٠ - ٢٣١.

^٢ لم تكن ظاهرة اتصال الشعراء بالذليفة في كنف السلطة العباسية امرا جديدا بل كانت قائمة منذ زمن الامويين، الا انه رافقتها في العصر الاموي ظاهرة اخرى تكمن في تمثيل الشاعر لقبيلته في دار الخلافة في معظم الاحيان. اما في العصر العباسي فان طبقة الكتاب سوف تتبنى الذين انسلخوا نوعا ما عن قبائلهم بعد زوال بنييسمة القبيلة تقريبا وسوف يعمّر الشعراء عبر وساطتها في كثير من الاحيان، (انظر زبال، تكون: ٨٥).

^٣ الجهشيارى، الوزراء: ١٨٩.

من المتصلين بالثقافة ، ويجعلون من بغداد العاصمة نقطة التقاء
لشتى الروافد الثقافية .

ولم يقتصر دور الكتاب في انعاش الحياة الثقافية علي القيام بدور
الوساطة بين دار الخلافة واصحاب الثقافة ، بل ان الكتاب شاركوا
قبل ذلك في التشريع السياسي الاجتماعي والاداري ، نذكر من بينهم :
عبد الحميد وابن المقفع وضع الاول رسالته في الكتاب^١ ورسالته
الى ولي العهد التي نصح فيها ولي العهد بالتروى والنظر فسي
الاعمال واتخاذ الحاجب واختيار المستشارين الصالحين وتجنب
الحرب قدر المستطاع . ورسالته تعتبر مرجعا في الاستراتيجية
الحربية^٢ . اما ابن المقفع فقد وضع رسالة الصحابة التي تعالج
فيما تعالج من موضوعات موضوع تنظيم الجند الفراسانية^٣ وشرع في
كتاب الادب الكبير - اذا اصحت نسبة هذا الكتاب له ، علي الشك في
ذلك - لكيفية اختيار العمال والمستشارين الصالحين^٤ . وقد اسهمت
هذه الجهود التي بذلها عبد الحميد وابن المقفع في جعل المعرفة
الفارسية في السياسة في متناول الخلافة الاسلامية، وتدخل

^١ انظر رسالة عبد الحميد الى الكتاب في الجهشيارى، الوزراة: ٧٤-٧٩.

^٢ انظر عبد الحميد، رسالة الى ولي العهد، في رسائل البلغاء: ١٧٣-٢١٠.

^٣ انظر رسالة ابن المقفع في الصحابة، في المصدر السابق: ١١٧ - ١٣٤.

^٤ انظر كتاب الادب الكبير في المصدر السابق: ١٠٦-١٠٧. ونضيف الي ان
هنالك شك في صحة نسب هذا الكتاب الى ابن المقفع اذ يرى الاستاذ
احسان عباس انه اذ كان هنالك علاقة لابن المقفع بكتاب الآداب الكبير
كما يسميه فان ذلك يكون من ناحية الترجمة لا التأليف، وهذه الترجمة
قد تكون نقلا عن الابستا الفارسية او عن الحكم اليونانية او غيرها
من المصادر التي يصعب علينا تحديدها بدقة ، منها رسالة منسوبة الى
ارسطاطاليس بعث بها الى الاسكندر (انظر احسان عباس، نظرة جديدة في
بعض الكتب المنسوبة لابن المقفع، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق،

النزعة الشعوبية في هذا الاطار فهي تنشد تفضيل الفرس على العرب وتحاول ان تستعيد المجد الفارسي القديم بالعودة الى الافكار الفارسية بالاضافة الى نمط الحياة الفارسي المتعلق بتفاصيل الحياة، وفي هذا المجال يقول المؤرخ عبد العزيز السدوري ان العباسيين اقاموا اساس الدولة على التوازن والتعاون بين الفرس والعرب. "وقد اعتبروا الولاء لهم اساس كل شيء، وخلقوا بيروقراطية من الموظفين، وجعلوا من الكتاب قاعدتهم الاساسية... ولا يخفى ان جل هؤلاء من الموالي وانهم كفة ينظرون نظرة تمجيد الى التراث الثقافي الساساني ويرجعون اليه في الكثير من قيمهم ومفاهيمهم". ويشير الجاحظ الى نفور الكتاب عامة من الثقافة الدينية الاسلامية وتعويلهم على التراث الفارسي في قوله: "ثم الناشء منهم (اي من الكتاب) اذا وطئ مقعد الرياسة، وتورك مشورة الخلافة... ظن انه الفاروق الاكبر في التدبير... فيكون اول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه، والقضاء عليه بتناقضه. فان استرجع احد عنده اصحاب الرسول... قتل عند ذكرهم شدة...".^٢

وترقى النزعة الشعوبية الى العصر العباسي الاول اي بعد ان اصبح الجهاز الاداري المعقد يعتمد بقسمه الاكبر على الموالي^٣. لكن تنبغي الاشارة الى طبيعة التعالي الفارسي في النزعة الشعوبية، ان الهدف منه ليس تولية الفرس مكان العرب بل هو تأسيس معرفة فارسية في السياسة والحياة والملبس والمشرب يقوم عليها الحكم، تكون العربية لغتها، والاسلام دينها، والكتاب الغثة المشرعة لها. ان الانتصار يكون بالنسبة للكتاب الشعوبيين

^١ عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية (الطبعة الاولى بيروت، ١٩٦٢) ٣٩ - ٤٠.

^٢ الجاحظ، رسالة في دم اخلاق الكتاب ٢: ١٩١ - ١٩٢.

C. Cahen, Islam, p. 75.

^٣ انظر

بإظهار تفوق الحضارة الفارسية والعمل على جعلها مرجعا لا غنى عنه للخلافة الإسلامية^١.

وقد بلغت النزعة الشعبوية أوجها في خلافة الرشيد والمأمون، فسي وزارة يحيى البرمكي للرشيد وفي وزارة الفضل بن سهل للمأمون. ويصف الجهشيارى كيف كان الفضل يقلد الأكاصرة في مجلسه فيقول: " وكسان ذو الرياستين (الفضل بن سهل) يجلس على كرسي مجنح، ويحمل فيسهه إذا أراد الدخول على المأمون، فلا يزل يحمل حتى تقع عين المأمون عليه، فإذا وقعت وضع الكرسي، ونزل عنه، فعمى، وحمل الكرسي، حتى يوضع بين يدي المأمون، ثم يسلم ذو الرياستين، ويعود فيقعسه عليه... قال: وإنما ذهب ذو الرياستين في ذلك إلى مذهب الأكاصرة، فان وزيراً من وزراءها كان يحمل في مثل ذلك الكرسي"^٢.

ومما يشير إلى تفشي النزعة الشعبوية في فئمة الكتاب ما ورد على لسان ابن قتيبة في "كتاب العرب أو الرد على الشعبوية" إذ يقول: "وإنما لهجت السفلة منهم (يعني من الشعبويين) بدم العرب، لان منهم قوما تحلوا بحلية الادب، فجالسوا الاشراف وقوما اتسموا بميسمهم

^١وينطبق ذلك على رسائل سالم ابي العلاء التي نقلها الى اللغة العربية في خلافة هشام بن عبد الملك (انظر M. Grignaschi, "rasā'il aristatālisā' ila-l-iskandar in Bulletin d'Etudes Orientales, 1965-66, vol. 19, p. 7-83)

ويقول غرينياسكي (المصدر السابق: p. 85): "ان هذه المخطوطات (رسائل سالم) تحفظ بأحد أقدم آثار النشر العربي، وهي تقبل للمرة الاولى كيف اعتبر كتاب اواخر الخلفاء المروانيين الامبراطورية الساسانية نموذجا سياسيا يحتذى، وينصب حتى كمثال للعرب اصحاب السيادة، وذلك قبل انتصار الموالي في خراسان".

^٢الجهشيارى، الوزراء: ٣١٦.

الكتابة ، فقرّبوا من السلطان ، فدخلتهم الأنفة لأدابهم ، والفضاضة لأقدارهم ، من لؤم مغارسهم ، وخبث عناصرهم"^١ .

وابن قتيبة لا يبالي بشعبوية السوقه وانما ما يشير حفيظه هسو شعبوية الكتّاب، شعبوية الذين في صلبة السلطان. ويشور الجاحظ ايضا على شعبوية بعض الكتّاب اذ يقول: " وكان ابراهيم (بسن اسماعيل بن داود كاتب المؤمن) شعوبيا، وكان يتهم بالشويسة . فان كان ذلك صديحا فقد كانت صبايته بها على جهة التقليد فيها، لا على جهة التفتيش والاحتجاج فيها. وهذه علة المرتد من الكتّاب^٢ . مما يشير الى تفشي هذه النزعة في فئة الكتّاب .

II - مذهب الكتّاب

لم يكن الكتّاب في الجهاز الادارى يشتركون في دين واحد أو مذهب واحد، وهذا ما يميّز المسؤولية الادارية عن المسؤوليات الاخرى. فالمسؤولية الادارية السمتجلية بصناعة الكتابة تجيز اعتلاء غير المسلمين مناصبها، في حين تنحصر المسؤوليات القضائية والعسكرية بالمسلمين^٣ . وقد سبق ان رأينا كيف تعرّض الكتّاب المجوس والنصارى للابعاد وحتى للتنكيل في المرحلة التي تلت

^١ ابن قتيبة ، كتاب العرب او الرد على الشعوبية ، في رسائل البلغاء : ٣٤٥ .

^٢ الجاحظ ، رسالة في ذم أخلاق الكتّاب ٢ : ٢٠٤ .

C. Cahen, Islam I, p. 101

^٣ انظر

التعريب وذلك لاسباب سياسية ، وقامت بهذه الاجراءات الدولة الاموية والعباسية على السواء بدليل انها اجراءات استمرت في خلافة المنصور^١ . وقد سجل التاريخ ايضا حملة قام بها المهدي ضد الزنادقة وطالت عددا من الكتاب . يقول الجهشيارى : ان قلندر (المهدي) عمر الكلواني طلبهم (أى الزنادقة) وظفر فيهم بيزيد ابن الفيض، كاتب المنصور ، فاقر بالزندقة^٢ .

ولا نعرف بالضبط اسباب حملة المهدي ، وقد تكون كامنة في الاحداث السياسية التي شهدتها خلافة المهدي ، واهمها : ثورة المقدم التي اتصفت بصبغة دينية واضحة هي مزيج من التشيع والمجوسية^٣ . لكن هذه الاجراءات التي تكمن في ابعاد الكتاب غير المسلمين لم تكن سوى اجراءات مؤقتة ولم تجرّ تحريم الوظيفة الادارية عليهم . فبقي المجال مفتوحا امامهم فيها .

لكن رغم ذلك ظل اعتناق الاسلام امرا مستحبا لانه يعطي الكاتب ضمانا اكبر بالنسبة لمنصبه ويجعل اعداءه اكثر احتراسا فسيهي المعاملة معه . وفي هذا الصدد يروى أن يحيى بن برمك قال للفضل ابن سهل : " اني اراك ذكيا وستبلغ مبلغا رفيعا ، فاسلم حتى اجسد السبيل الى ادخالك في امورنا . . . فقال (الفضل بن سهل) : نعمسم اصلح ، الله الوزير . . ." ذلك يشير الى ان الكتاب كانوا يستجيبون

^١ انظر الجهشيارى : ١٣٤ .

^٢ المصدر السابق : ١٥٦ ولا نعرف بأى شيء كان يزيد بن الفيض زنديقا هل كان منويا ام مزدكيا ام مجوسيا .

^٣ انظر ابن الاثير ، الكامل : ٦ : ٣٨ - ٣٩ .

^٤ انظر الجهشيارى ، الوزراء : ٢٣٠ - ٢٣١ .

احيانا للتحويل الى ديانة اصحاب السلطة . لكن قبول السلطة مبدئيا بان يكون في الجهاز الادارى منها غير المسلمين يفسر ايضا بقضاء بعض هؤلاء على ديانتهم الاصلية رغم الاضطهاد الذى قد يتعرضون له من بعد .

وقد استمر الامر على هذه الحال حتى خلافة المتوكل ، اذ عمل المتوكل على تطهير الجهاز الادارى من غير المسلمين وذلك في اطار حملته على المعتزلة وغيرهم من كان يعتبرهم مبتدعة في الاسلام . ونحن نعلم من التاريخ ان المتوكل " امر ... اهل الذمة بلبس الطيالس العسليه ، وشد الزنانيير ... ومن خرج من نسائهم تلبس ازارا عسليا ... ومنعهم من لبس المناطق ... وان يجعل على ابواب دورهم صور شياطين مسنن خشب ، ونهى ان يستعان بهم في اعمال السلطان ، وكتب بذلك السيسى الافاق ... " وتشير هذه الرواية الى ان الاستعانة باهل الذمة فسى امور السلطان كانت قائمة الى ان جاء المتوكل ولا بد ان معظم الكتاب الذين ذهبوا ضحية هذا الاجراء هم من النصارى لا مسنن اليهود ، لان النصارى كانوا يشكلون الاكثريه في الدواوين من بين اهل الذمة .

وقد واجه الكتاب هذا الاجراء بالتحويل الى الاسلام كتدبير وقائي ضد العزل . نذكر من بين الكتاب الذين تحولوا عن النصرانية : احمد بن اسراييل وقد تولى الخراج في خلافة المتوكل (٢٤٥) ، وفي خلافة المنتصر

^١ ابن الاثير ، الكامل ٥٢:٧ ، ولقد دافع الجاحظ عن هذه الاجراءات وعبر عن ذلك في وضعه رسالته في الرد على النصارى (انظر مقال Charles Pellat, Gāhiz à Bagdād et à Samārrā in Revista degli Studi Orientali, 1952, vol.27, p.58).

^٢ انظر "Polémique christiano-musulmane au IX siècle" S.Allouche, in Hespéris, 1939, Tome 26, p.125.

^٣ انظر D. Sourdel, Vizirat, vol. I, p. 304 ويرى سورديل ان هؤلاء الكتاب النصارى الاصل اقاموا تكتلا في قلب الادارة يسعى السيسى تحسين اوضاع اهل الذمة عادة .

(٢٤٧ - ٢٤٨ هـ)، كما انه اعتلى الوزارة في خلافة المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥)،^١ ونذكر كذلك الحسن من مآخذ وقد تولى الضياع في خلافة المتوكسل، والمنتصر^٢، ثم عيسى بن فروخنشاه صاحب ديوان الخراج في خلافة المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢)، وفي خلافة المعتز والمهتدي (٢٥٥ - ٢٥٦).^٣ واشهر هؤلاء الكتاب النصارى الاصل هو سليمان بن وهب الذي تولى وزارة المهتدي والمعتمد.

وقد أدت اذن اجراءات السلطة الى تقليص عدد الكتاب النصارى بعسد خلافة المتوكسل لكنها لم تؤد الى حرمانهم الكامل من الوظيفة الادارية. وفي جميع الاحوال فاننا نقع بعد نصف قرن من تولي المتوكسل الخلافة على كتاب نصارى اعتلوا مناصب مهمة في الادارة، فيذكر الصابي^٤ مثلا ان ابا الحسن علي بن الفرات قلّد ديوان الجيش رجلا نصرانيا فسي وزارته الثانية (٣٠٤ - ٣٠٦) وعيّره علي بن عيسى بذلك^٤، مما يشير الى ان تعيين النصارى على رأس ديوان الجيش لم يكن مستحبا، وان كان قائما.

ونستطيع ان نقول ان حذر السلطة من اهل الذمة لم ينته بسرعة، وقد شهدت نهاية القرن الثالث وبداية الرابع محاولة العودة الساسية الاجراءات التي اتخذها المتوكسل ضدّهم. ويقول عريب في هذا الصدد:

^١ انظر الطبري، تاريخ ٩ : ٢١٧.

^٢ انظر المصدر السابق ٩ : ٢٠٩.

^٣ انظر المصدر السابق ٩ : ٢٦٤ و ٣٤٤.

^٤ يقول الصابي (الوزراء: ٩٥): "ان علي بن عيسى قال له (اي لابن الفرات): ما اتقيت الله في تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلا نصرانيا وجعلت انصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون امره. فقلت له (والمتكلم هو ابن الفرات): ما هذا شيء ابتدأته ولا ابتدعه. وقد كان الناصر لدين الله قلّد الجيش اسرائيل النصراني كاتبه. وقلّد المعتمد بالله ملك بن الوليد النصراني كاتب بسدر القائد ذلك".

"وكان النصارى في آخر ايام العباس بن الحسن (أى حوالي سنة ٢٩٦) قد علا امرهم وغلب عليهم الكتاب منهم فرجع في امرهم الى المقتدر فعهد فيهم بنحو ما كان عهد به المتوكل في رفضهم واطراحهم واسقاطهم عن الخدمة ثم لم يدم ذلك فيهم" . ويرى دومينيوسك سورديل ان سبب محاولة العودة الى اجراءات المتوكل يعود الى سبب اشترك بعض الكتاب النصارى في محاولة الاطاحة بالمقتدر وتنصيب ابن المعتز مكانه وذلك سنة (٢٩٦) ثم انهم حاولوا بعد اخفاقهم خلع الوزير ابي الحسن علي بن الفرات وتنصيب ابن عبدون محله في السنة ذاتها. وهذا ما يسمى بالانقلاب القنائي لان عددا من الكتاب الذين اشتركوا فيه هم من دير قنّى^٤ أى انهم من اصائل نصرايين. وقد بادت هذه المحاولة بالاخفاق.

ولا يشير عريب الى سبب عدول المقتدر عن تنفيذ الاجراءات ضد امسلة الخدمة من الكتاب. وقد يعود ذلك الى عدم رغبة الخليفة في زعزعة جهاز الادارة باقصاء الكتاب النصارى منه ، لاسيما اذا كانوا من اصحاب الكفايات، والى عدم قدرته سد الفراغ الذى سوف يتركونه . لكن قد تكون هنالك اسباب اخرى، منها ادراك المقتدر ان اجراء

^١عريب، الصلة : ٣٠٠ . ويرى سورديل (Vizirat, Vol.II, p. 390) ان هذه الاجراءات كانت تهدف الى حصر الصناعات التي يسمح للنصارى بامتدادها في التطبيب والجهيزة .

^٢كان الكتاب النصارى لا يعترفون بتنصيب المقتدر بسبب صغر سنه وعدم كفايته ، اما ابن الفرات فكان يرى - حسب قول سورديل - في صغر سن المقتدر فرصة لتوسيع نفوذه . (انظر (D. Sourdel, Vizirat, Vol.I, p. 376).

^٣انظر الصابىء ، الوزراء : ٢٦٠ .

^٤انظر حول كتاب دير قنّى مقال دير قنّى لميخائيل عواد في مجلة المشرق ، الجزء ٣٧ (١٩٣٩) : ١٨٠ - ١٩٨ .

العزل على اساس ديني ليس فعلا، لان الديانة لم تكن العامل الوحيد الذي جمع بين كتاب الانقلاب القنائي بدليل ان كتابا مسلميين اشتركوا فيه امثال محمد بن داود بن الجراح وعلي بن عيسى. وليست هذه سوى افتراضات وما يهمنها هو ان الدواوين تبقى على الاقل حتى بداية القرن الرابع معقل اهل الذمة من النصارى بعد ان عسسدل المقتدر عن تنفيذ اجراءاته ضدهم^٢. ونستطيع ان نقول ان العامل الديني لم يشكل مقياسا في تحديد مراتب الكتاب باستثناء منصب الوزير، فقد كان يتطلب من الكاتب الذي يحدثه ان يكون مسلما^٣.

^١ انظر عريب ، الصلة : ٢٥ .

^٢ تشير المصادر الى ان الخلافة تقبل باهل الذمة كتابا في دواوينها طالما انهم ينتمون جهرا للديانة النصرانية . اما خوف الخليفة فيكون من تظاهر الكاتب او الوزير بالاسلام مع اخفائه ايمانه بالانصرانية ، ويروي الصابي (رسوم : ٤٤٤-٤٥٤) قصة ابان بن مخلد كاتب المأمون مع الخليفة اذ ظن الخليفة انه يخبى صليبا في عمامتته فأمره بطرحها واظهار ما في داخلها .

^٣ نعطي مثلا على ذلك في خلافة المكتفي (٣٨٩-٣٩٥هـ) لم يستطع المكتفي تعيين كاتبه الحسين بن عمرو النصراني وزيرا لانه كان ذميا فقرر تعيين كاتب من خواص كاتبه هو ابراهيم بن حمدان الشيرازي . وكان من المفروض ان يحوز هذا الاخير على اللقب في حين يتولى الحسين بن عمرو تصريف الشؤون الادارية . ولم يتم هذا التعيين وانتزع القاسم ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزارة (انظر الطبري ، تاريخ ٧١: ١٠ و ٩٩ وايضا D. Sourdel, Vizirat, Vol. I, p. 353) بونشهد فيما بعد صليبا في موضوع ديانة الكاتب اذ يرى ابن الصيرفي - وقد تولى ديوان الانشاء في مصر زمن الفاطميين في اواخر القرن الخامس - انه ينبغي ان يكون صاحب ديوان الرسائل مسلما . يقول في قانسون ديوان الرسائل (تحقيق علي بهجت، القاهرة ، ١٩٠٥ : ٦٧) : "فقد وضع انه لا يجوز ان يرقى الى هذه المرتبة (أي صاحب ديوان الرسائل) الا مسلم ومع ذلك يجب ان يكون متزهبا بالمذهب الذي عليه الملك" .

III - مراتب الكتاب

يتوزع الكتاب العاملون في الجهاز الإداري في مراتب . ويتجلى هذا التمايز في الترتيب أولاً في التمييز بين صاحب الديوان وسائس الكتاب الذين يكتبون بين يديه ويمثلون لأمره . وقد أصبح لا غنى للديوان اجمالاً عن صاحب مدبر له يكون على رأسه ويتولى مسؤولية تصريف الأعمال وتوزيعها على الموكلين بها. وتذكر ان الجهشياري اورد أسماء الكتاب في العصر الاموي مشيراً الى اختصاصهم فيمسما يتعلق بكتابة الخراج او كتابة الرسائل او البريد دون ان يشير الى انهم ترأسوا هذه الدواوين. وأصبح الجهشياري يستخدم فسي مواطن عدة في تأريخه للعصر العباسي عبارة تقلد الكاتب ديسوان كذا مشيراً الى ان الكاتب كان على رأس الديوان. ولا يعطسي الجهشياري لائحة بأسماء الكتاب الذين كتبوا بين يدي اصحاب الدواوين، ولا يشير مثلاً الى وجود مبدأ لتقسيم العمل في الديوان

أذكر كذلك ان الصابي لا يكتفي بالتمييز بين صاحب الديوان وكتاب الديوان بل انه يميز بين " اصغر الكتاب " و" جومهم " (انظر الصابي ، الوزراء : ١٩٥) ، ولا نعرف بالضبط من هم المعنيون بهاتين العبارتين واذا ما كانت عبارة " وجوه الكتاب " تضم كتاباً من غير اصحاب الدواوين ممن اتقن الصناعة وبرع فيها. ونرجح ان ينتمي الى وجوه الكتاب اصحاب الدواوين والكتاب المرشحون للاستيلاء على رئاسة الدواوين بسبب تمسكهم بالصناعة ، وان ينتمي الى اصغر الكتاب، الوراقون والمحرون وغيرهم من الكتاب الذين لا يشغلون مناصب مهمة. ويشير الصابي (المصدر السابق : ١٩٥) الى انه كان في دار الوزير ابن الفرات مطبخ للخاصة ومطبخ للعمامة فكان يغرف من هذا الرجالة والبوابين واصغر الكتاب وغلمان اصحاب الدواوين. ونشير الى الحاق اصغر الكتاب بالغلمان بدلا من الحاقهم بطاقم الجهاز الإداري مما يدل على واقع التمايز في المراتب .

أ انظر الجهشياري ، الوزراء : (٣١٤-٣١٧-٣١٨-٣١٩-٣٢٠-٣٢١) ، والعبساسة المستخدمة هي " كتب فلان للخليفة على ديوان كذا " - وصادرا مسما تستخدم عبارة " تقلد الكاتب او تولى ديوانا من الدواوين " .

في المرحلة الاولى، ويستعين الجهشيارى في اماكن عدة بعبارة "يكتب بين يديه" للدلالة على وظيفة كاتب صاحب الديوان^١. وتتصف عبارة "كتب بين يديه" بالتعميم لكنها تشير الى ان كاتب صاحب الديوان كان يضع نفسه بتصرف صاحبه يستعين به هذا ساعة يشاء عندما يسرى ضرورة لذلك.

يتميز العمل في الجهاز الادارى في هذه المرحلة الاولى اذن بمرونة كبيرة. وتتوقف مسؤولية كُتاب الدواوين على مدى تنازل صاحب الديوان عن صلاحيات معينة ومدى معرفته بالصناعة واستغناؤه عن الآخرين وعلى الاطماع التي تكون لدى كاتبه والتي تدفعه السيسى المطالبة بالمزيد من المسؤوليات^٢. وقد فقدت هذه العلاقة بعض مروناتها مع ظهور الكتاب ذوي الاختصاص للقيام بالمهام المتنوعة وذلك بعد ان تعددت الدواوين وتعددت مجالسها وزاد عدد الكتاب القيمين عليها والذين ليسوا من اصحاب الدواوين. ويصعب مثلا تصور مبادرة صاحب الديوان الى كتابة النسخ، واثبات الوثائق بالسجلات الرسمية في وجود الوراق وهو الكاتب المكلف بذلك في الديوان. كذلك يشير الجاحظ الى ان صاحب ديوان الرسائل لم يكن يتولسى تحرير الرسائل بل يكلف محرره بذلك^٣، لأن المحرر هو الحافظ على المعرفة اللازمة المتعلقة بجمال الخط واخراج الكتب.

ان صاحب الديوان هو الرأس المدير للديوان. واذا تغيب لسبب اضطرارى اعطى كاتبه ملء الصلاحيات في تصريف الامور وذلك حسب مبدأ الاستخلاف^٤. والارجح ان يكون الاستخلاف قائما لكسي لا يبقى مركز صاحب الديوان شاغرا مما يشير السيسى ان غير صاحب

^١ انظر المصدر السابق: ١١٥.

^٢ انظر المصدر السابق: ١١٥- ١١٦ كيف حاول ابان بن صدقة توسيع نفوذه على حساب ابي ايوب المورياني.

^٣ انظر الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢: ٢٠٥.

^٤ انظر المصدر السابق: ٨٤، ويقول الجاحظ (رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢: ٢٠٣): "استخلف رجاء بن ابي الضحاك (صاحب ديوان الخراج في خلافة المأمون والمعتصم) حفصويه على ديوان الخراج".

صاحب الديوان هذا كان يؤدي الى عرقلة سير العمل في الديوان. ولا شك في ان نفوذ صاحب الديوان قد اتسع في اواخر القرن الثالث، وتجلى ذلك في اطلاق يد صاحب الديوان في الامور التي تتعلق بديوانه وتخويله كامل الصلاحيات فيه. فقد يبادر صاحب الديوان مثلا للمسي الاستعانة بالعدد الذي يراه مناسبا من الكتاب، ويقرر المرتبات التي سوف يتقاضونها^١.

ويرافق هذا التمايز في المراتب الذي يفرد لاصحاب الدواوين مكانا خاصا قوانين تشريعية لاصول مخاطبتهم وكيفية التعامل معهم، يلتزم بها جميع كتاب الدواوين على مراتبهم. وقد ظهر في عصر متأخر - أي في نهاية القرن الثالث حسب قول سورديل -، لقب "الرئيس" للإشارة الى صاحب الديوان الذي تولاه هذا الأخير رئاسة. ويرى سورديل ان أول حامل لهذا اللقب هو علي بن عيسى بن داود بن الجراح، سنة ٣٠٧، وذلك في وزارة حامد بن العباس للمقتدر^٢. ويقول الصابسي: "وكتب (علي بن عيسى) في الدواوين وتقلد كثيرا منها رئاسة"^٣. لكن الجهشيارى يشير الى ان مرتبة "الرئيس" ظهرت في اول العصر العباسي في خلافة المنصور^٤. وعلى هذا فقد يكون هذا اللقب يرقى الى بداية العصر العباسي، وكان يلقب الكاتب صاحب الديوان احيانا بلفظة "استاذ"، غير ان لقب الاستاذ ليس خاصا بالكتاب وغالبا ما كان يطلق على كبار القادة العسكريين ايضا^٥.

^١ انظر الصابسي، الوزراء، ١٧٧.

^٢ انظر D. Sourdel, Vizirat, Vol. II, p. 415.

^٣ الصابسي، الوزراء، ٢٨١. ويتميز الرئيس عادة بتمرسه بالصناعة واتقائه اياها على اكمل وجه. ويقول ابن جبير كاتب ابن الفرات عن علي بن عيسى انه "اذا حضر... بين يدي الخليفة فاراد ان يكتسب سرا كتب/اسحق وختم وخرط ولم يحتج الى معين" (المصدر السابق: ٦٣) وتذكر بان علي بن عيسى تولى تسيير امور الادارة عامة فسي وزيره حامد بن العباس وليس رئاسة ديوان معين.

^٤ انظر الجهشيارى، الوزراء، ١٢٦.

^٥ يشير الصابسي (الوزراء: ٥٣) الى ان ابن الفرات تدلل لمؤسس القائد عندما اعتقله وخطبه بالاستاذية.

ويشير الصابئ الى ان ابا العباس احمد بن الفرات... عمسـل ديوانا سمّاه ديوان الدار، وجمع اليه سائر الاعمال... واستناب اخاه ابا الحسن على بن محمد بن الفرات فيه واضطلع كتابسسا قلدّمهم مجالسه منهم ابو الحسن علي بن عيسى ومحمد بن داود بسن الجراح عمه. فكانا يجلسان بحضرة ابي الحسن فيأمرهما وينهاهما ويسميانه استاذا على رسم اصحاب الدواوين اذ ذاك^١.

وقد كان صاحب الديوان "الرئيس" يتمتع بامتيازات لم يكن يتمتع بها غيره من الكتاب، ومنها استخدام الخاتم اذ يقول الصولسي: "الرئيس والنظير يختم رقاعه وتوقيعاته ان شاء وان من دونهم لا يختم. وان ختم من هو دون الرئيس والنظير لزمه اثبات اسمسه على جانب كتابه الايسر تضاوّلا وتواضعا... واحسن ما ختم بسسه الرؤساء كتبهم ما عليه اسم الرئيس واسم ابيه^٢". وقد شسّرع الصولي لأصول معاملة الرئيس، ورأى ان يلتزم الكاتب ببعسـس القوانين في تعامله معه، كأن يحمل له الدواة مثلا^٣، وان يخاطبه مكاتبة باسلوب معين... فيعظم الخط ويفخمه اذا ذكر كنية الرئيس ونسبته الى شيء^٤، وان يلطف الخط في اسمه واسم ابيه ويجمسسه "لان في ذلك اجلالا للمكتوب له وفي مخالفته غض منه وتطسـساول عليه"^٥. كما ان على الكاتب ان يتجنب المشق^٥ خاصة في كتابته الى

^١ المصدر السابق: ١٣١.

^٢ الصولي، ادب الكتاب (تحقيق محمد بهجت الاثرى، القاهرة، ١٣٤١هـ) ١٤١.

^٣ انظر المصدر السابق: ٩٦... الكاتب مضطر في بعض الاوقات الى حملها (أى الدواة) ووضعها بين يدي رئيسه^٣.

^٤ المصدر السابق: ١٤٤.

^٥ مشق الخط: مدّه واسرع فيه، وقد يمشق الكاتب في حالين متناقضين "في أشد ما يكون نشاطا، لشوق يده الى الخط... وفي حال التمسب والكلال". (المصدر السابق: ٥٥).

الرئيس لانهم يتأولون ذلك ضربا من الاستخفاف وينبغي العدول عمن الشكل والاعجام في الكتابة اليهم^١. ونحن نعرف ان عدد اصحاب الدواوين ازداد مع تشعب الجهاز الادارى وتعدده، اذ كان الجهاز الادارى دائما يتجه نحو احداث دواوين جديدة كمحاولة لتقسيم العمل كما مر من قبل. وهكذا استحدثت مجالس لديوان الخراج علس اساس ان يتولى كل مجلس شاحية من الخواحي وهذا امر تحدثت عنه من قبل. وقد تطورت هذه المجالس لتصبح دواوين مستقلة^٢ وقد بلغ عدد الدواوين في خلافة المقتدر بالله اربعة وعشرين ديوانا علس رأس كل منها كاتب رئيس^٣. ولا بد من التطرق في حديثنا عس اصحاب الدواوين الى التمايز في الترتيب القائم بينهم اذ لا يقع اصحاب الدواوين في مرتبة واحدة. ويتكلم الجاحظ عن واقع التفاوت بين مراتب اصحاب الدواوين في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة^٤ ويشير الى ان صاحب ديوان الرسائل لم يكن يتمتع

^١ انظر المصدر السابق: ٥٧.

^٢ يشكل انقسام الدواوين الاصلية الى دواوين اخرى خطرا على الجهاز الادارى لانه يضيف على دواوينه ومجالسه طابع الاستقلالية لذلك كان يتبع عملية استحداث الدواوين الجديدة محاولة اعادة توحيد هسنا. ولدينا مثل على ذلك في ديوان الدار الذي احده ابوالعباس علسي ابن الفرات ليجمع سائر مجالس الخراج ويوحدها (انظر الصابي، الوزراء: ١٣١).

^٣ كان اصحاب الدواوين كما سبق واشرت في القرنين الاول والثاني يتولون رئاسة ديوان او اكثر في المرحلة الواحدة، وقد اختلفت هذه الظاهرة تقريبا في القرن الثالث وفي مطلع الرابع ليصبح صاحب الديوان مسؤولا عن ديوان واحد في الفترة الواحدة (انظر D. Sourdel, Vizirat, Vol. II, p.729 - 748).

^٤ الجاحظ رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢: ٢٠٥، وقد يكون الجاحظ في معرض الكلام عن خبرته الشخصية في هذا المجال اذ يبدو انه تولى ديوان الرسائل في خلافة المأمون لمدة ثلاثة ايام طلب بعدها ان يعفى مسن المسؤولية (انظر ياقوت، ارشاد الاريب الى معرفة الاديب، تحقيق د. س. مرجليوت، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٢٣، ٦: ٥٨).

بمرتبة مرموقة في قوله: "لا يحضر كاتب الرسل لناثبة ، ولا يفرغ اليه في حادثة ، فاذا ابرم الوزراء التدبير ، ووقفوا منها على تقدير ، طرح اليه رقعة بمعاني الامر ليضيق فيه القول ، فاذا فرغ مسسن نظامه ، واستوى له كلامه ، أحضر له محرره ، فجلس في اقرب المواطنين من الخليفة ، وامنع المنازل من المختلفة ، فاذا انقضى ذلك فهمسا والعوام سواء" ^١ . فليس لصاحب ديوان الرسائل - حسب قول الجاحظ - نفوذ يذكر ولا رأى ينتصح به ، ولا نراه يلازم الخليفة الا عند تكليفه بصياغة رسالة ما . ونستطيع ان نستنتج من كلام الجاحظ ان وضع كاتب الرسائل لم يتغير كثيرا في العصر العباسي بالنسبة لما كان عليه في العصر الاموي ، اذ ان صياغة الكاتب لمعاني الرسالة دون ان تفرض عليه عملية الاملاء ترقى الى ذلك العصر وعلى أية حال ، فان مرتبة صاحب ديوان الرسائل دون مرتبة صاحب ديوان الخراج بدليـــــــــــــــــــــــــــــــــل ان ارزاقه أقل ^٢ .

وقد اصبح هذا التفاوت الذي يشير اليه الجاحظ تمايزا فعليا فسي المراتب في أواخر القرن الثالث وبداية الرابع ينقسم بموجبه اصحاب الدواوين في ثلاث طبقات وذلك حسب ما يذكره الصابي ^٣ . ولا يشير الصابي الى كيفية توزع كافة اصحاب الدواوين في هذه الطبقات ، لكنه يشير - مثلا - الى ان صاحب المعاون - أي صاحب ديوان الشرطة - كان ينتمي الى الطبقة الاولى من اصحاب الدواوين ، بينما ينتمي صاحب البريد الى الطبقة الثالثة . وتحدد طبقات اصحاب الدواوين بالقياس الى مراتب عمال الخراج ، والحساب ، والخدم والقادة العسكريين . ويتجلى التفاوت بين هذه الطبقات

^١ الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢ : ٢٠٥ .

^٢ انظر الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢ : ٢٠٥ .

^٣ انظر الصابي ، الوزراء : ١٥٦ .

الثلاث في المخاطبات^١ . ولا بد ان يكون اختلاف المخاطبات باختلاف صاحب الديوان يشير الى تمايز قائم في المراتب بين اصحاب الدواوين . ويرقى هذا التمايز المتجلي في المخاطبات - حسب قول الصابي - الى وزارة ابن الفرات^٢ ، غير اننا لا نعرف اى وزارة من وزارات ابن الفرات هي المعنية بكلام الصابي ، اذ ان ابن الفرات تولى الوزارة ثلاث مرات بين سنتي ٢٩٦ و ٣١١ .

وتخاطب الطبقة الاولى من اصحاب الدواوين حسب قول الصابي كما يخاطب صاحب الطراز، وكان هذا في بداية القرن الرابع عشر شفيح المقتدرى، وكما يخاطب رئيس الخدم اى مفلح الاسود آنذاك، وذلك كالتالي: "اعزك الله واطال بقاءك واكرمك واتم نعمته عليك واحسانه اليك"^٣ . اما الطبقة الثانية فتخاطب كما يخاطب عامل فارس وكرمان وذلك كالتالي: "اعزك الله ومد في عمرك واتم نعمته عليك واحسانه اليك"^٤ . وتخاطب الطبقة الثالثة كما يخاطب عامل ديار ربيعة، هكذا: "مد الله في عمرك واتم نعمته عليك واحسانه اليك"^٥ . ولا يبلغ اصحاب الدواوين ابدا المرتبة الاولى مسن

^١ انظر المصدر السابق: ١٥٦ - ١٥٨ .

^٢ توفي هلال الصابي سنة ٤٤٧، وقد اشار في كتابه الى الانحطاط الذى وصلت اليه المخاطبات في عصره في قوله: "فاما الالقاب فقد خرجت عما يحاط به ويوصف، او ياتي عليه حصر، وصار لقب الاصغر اعظم من لقب الاكبر" (المصدر السابق: ١٥٠) .

^٣ المصدر السابق: ١٥٤ .

^٤ المصدر السابق: ١٥٤ .

^٥ المصدر السابق: ١٥٥ .

المخاطبات التي كان يكاتب بها عامل خراسان وتجيء في ثلاثة أسطر^١. وتتناول الفروق في هذه المخاطبات قضية الطول والعبارة، ولا بد من الإشارة إلى أن بعض الدواوين لم يكن يتقلدها كتاب في بعض الأحيان بل قادة عسكريون أدراك أمثال نازوك صاحب الشرطة فسيي^٢ خلافة المقتدر، كان ينتمي إلى الطبقة الأولى من أصحاب الدواوين^٣. في هذا الصدد يقول الصابي: إذا تقلد البريد على الوزير وأصحاب الدواوين قائد أو خادم وانفرد بذلك دون غيره مما هو أجل منه كوتب: "اعزك الله وإطال بقاءك واكرمك واتم نعمته عليك واحسانه اليك"^٣، أي كما تخاطب المرتبة الأولى من أصحاب الدواوين بينهم يخطب صاحب البريد أن كان كاتباً كما تخاطب المرتبة الثالثة^٤. ولا تحدد مرتبة صاحب الديوان نسبة للعرق أو النجب أو الدين^٥. إنما يحدد المرتبة في الدواوين التي قد يحتلها العسكر سعة النفسود. وبما أن نفوذ القادة العسكريين يفوق نفوذ الكتاب فقد احتلوا المراتب الأولى عند توليهم بعض الدواوين.

^١ المصدر السابق: ١٥٣.

^٢ المصدر السابق: ١٥٤.

^٣ المصدر السابق: ١٥٩.

^٤ صاحب البريد في نهاية القرن الثالث ومطلع الرابع هو الكاتب عبد الملك بن محمد بن عبد الملك الزياد وتولى الديوان لمدة ثلاثين سنة وكان يسمى الخراطي. (انظر المصدر السابق: ١٥٩).

^٥ لا تدخل هذه العوامل في تقرير المرتبة. ومن اللافت للخطر أن يحتل الجنود وهم في الأصل من الرقيق المراتب الأولى وأن يفوقوا الأحرار في هذا المجال، أمثال نازوك ومفلح الأسود اللذين سبق ذكرهما.

هذا فيما يتعلق باصحاب الدواوين، ويبقى الكلام عن سائر الكتاب في الدواوين، لان التمايز في الترتيب ليس مسألة خاصة باصحاب الدواوين، اذ انه قائم بين كتاب اصحاب الدواوين أنفسهم.

ويظهر التمايز في المرتبة بين الكتاب العاملين في الدواوين مع دخول الاختصاص في الادارة وظهور المناصب والوظائف المتنوعة التي احتلها الكتاب. ولم تظهر مسألة الاختصاص دفعة واحدة بل انها تمت على مراحل واكتملت تقريبا في نهاية القرن الثالث وبداية الرابع، عندما وصل الجهاز الاداري الى صيغته النهائية من حيث عدد الدواوين^١. ويعطي البطليوسي صورة عن مراتب الكتاب من غير اصحاب الدواوين على اساس الاختصاص وذلك في كتاب "الاقتضاب في شرح ادب الكتاب"، صحيح ان البطليوسي اندلسي متوفى سنة ٤٤٩؛ لكنه يتكلم عن مراتب الكتاب قديما، يقول: "انما تذكر مراتب الكتاب على ما كانت عليه في القديم واما اليوم فقد تغيرت عن رسمها المعلوم...". ولا نعرف الى اي زمن ترقى عبارة "في القديم" لكن نشير الى ان ترتيب البطليوسي لطبقات الكتاب على اساس الاختصاص لا يشمل اصحاب الدواوين بل يقتصر على كتاب الدواوين.

ويأتي في ادنى المراتب كاتب الخط، وكاتب الخط على نوعين: امسا ان يكون ورقا - اي صاحب النسخ - او محررا^٢. ويأتي في مرتبة اعلى من كاتب الخط، كاتب اللفظ - او المترسل^٣ - يليه كاتب العقد او كاتب الحساب، وهو الكاتب الذي يقوم بالعمليات الحسابية، ويكون اما كاتبيا في مجلس من مجالس الخراج، او كاتب عامل مسكن العمال في الاطراف، اي خارج الجهاز الاداري المركزي، او كاتب

D. Sourdel, Vizirat, Vol. II, p. 738-742

^١ انظر

^٢ البطليوسي، الاقتضاب: ٦٧.

^٣ انظر المصدر السابق: ٦٩.

^٤ انظر المصدر السابق: ٦٨ - ٧٠.

جيش في ديوان الاعطاء الذي يتولى الانفاق على الجند^١. وتقوم هذه المرتبة من الكتاب بالعمليات الحسابية على انواعها من تقرير ضريبة او تقرير مرتبات .

ويأتي في المرتبة الاولى من الكتاب، كتاب الحكم المكلفون تطبيق الاحكام المتعلقة بالخراج في ديوان الخراج، وتلك المتعلقة بالمعاون في ديوان المعاون، والاحكام المتعلقة بالفقه في الجهاز القضائي^٢. ومؤلف الكتاب هم كاتب صاحب ديوان الخراج، وكاتب صاحب المعاون، وأخيرا كاتب القاضي خارج الجهاز الادارى.

اما الوزير فيأتي في اعلى مرتبة ويسميه البطليوسي كاتبالتدبير^٣. ويحاول البطليوسي ان يجعل الاختصاص، او درجة المعرفة، مرجعاً ثابتاً لتحديد مرتبة الكتاب. فكلما ازدادت المعرفة في حقل اختصاص الكاتب ارتفعت مرتبته. وينبغي على كاتب الحساب، في احد مجالس ديوان الخراج، ان يزيد على معرفته الحسابية معرفة احكام الخراج، وكيفية تطبيقها، ليستطيع اعتلاء مرتبة كاتب المحاسب التابع لصاحب ديوان الخراج. لكننا نرى من خلال طبيعة العمسمل الادارى ان الامور لم تكن دائماً كذلك، اذ لم تكن درجة الاختصاص ومستوى المعرفة في تحديد مرتبة الكاتب. يذكر الجهشيارى مثسلا ان ابراهيم بن العباس الصولي، وكان صاحب ديوان الخراج فسسى

^١ انظر المصدر السابق: ٧٠ - ٧٥.

^٢ انظر المصدر السابق: ٧٦ - ٨١.

^٣ انظر المصدر السابق: ٨١.

خلافة المتوكل، لم يكن له حظ من المعرفة الحسابية والضريبية فكان يخاف ان يفتضح امره لدى الخليفة فيعرف جهله ويعزله^١. ولا بدّ مسن الاشارة ايضا فيما يتعلق بتعيين مرتبة الكاتب وفقا لاختصاصه مسن ان هوية الديوان الذى يعمل في كنفه الكاتب كانت تحدد الى حد ما مرتبته فيكون كاتبان بالاختصاص نفسه متفاوتين من حيث المرتبة بسبب عملهما في ديوانين مختلفين. وفي هذا المجال يشير الجاحظ مثلا الى التفاوت في المرتبة بين الوزّاق في ديوان الخراج والمحرّر في ديوان الرسائل، وهذا الاخير لم يكن له شأن يذكر^٢ مع ان كليهما - حسب ترتيب البطليوسى - يتمتعان بالاختصاص نفسه والرتبة ذاتهما اذ هما من كتاب اللفظ كما سبقت الاشارة. لذلك لا بدّ من عدم اخسذ تقسيم البطليوسى لمراتب الكتاب بصورة حرفية رغم ما يذكره هو مسن انه يصف واقعا كان قائما. وتنبغى تحديد مرتبة الكاتب لا قياسا على اختصاصه وحسب بل قياسا على مراتب سائر الكتاب العاملين مسن في الديوان ذاته ايضا.

ونستطيع ان نفرّد مرتبة اخرى خاصة بالكتاب الغلمان والكاتبسات الجوارى^٣، ولكن مع الاشارة الى ان هؤلاء لا ينتمون الى الدواوين بشكل دقيق بل ينسبون الى اصحابهم الا في حال اعتاقهم^٤.

^١ يقول الجهشيارى (نصوص: ٧٧): "قال سليمان بن وهب: كنت اكتب لابراهيم ابن العباس (الصولى) على ديوان الضياع وكان رجلا بليغا ولم يكن له في الخراج تقدم. وكان بينه وبين احمد بن المدير تباعد، وكان احمد مقدما في الكتابة. فقال احمد بن المدير للمتوكل: قلدت ابراهيم بن العباس ديوان الضياع وهو متخلف آية من الآيات لا يحسن قليلا ولا كثيرا".

^٢ انظر الجاحظ، رسالة في ذم أخلاق الكتاب ٢: ٢٠٥.

^٣ يعطى ابو القاسم البغدادى في "كتاب الكتاب" لائحة باسماء الكاتبات الجوارى ويتفرّد بذلك دون غيره من المؤلفين. فمن الكاتبات: عتبسة جارية المهدي وبرهان جارية البرامكة وغيرهما (انظر كتاب الكتاب: 145 D.) لكن تنبغى الاشارة الى ان النسوة الكواتب لم يعدلن قسط مناصب ادارية بل نسبن الى اصحابهن دائما بينما احتل الكتابسناغ الغلمان مناصب ادارية ادت الى اعتاقهم، ونذكر من بين هؤلاء مطير مولى المنصور الذى اعتقله وقلده ديوان البريد (انظر الجهشيارى، الوزراء: ١٠١).

ويحتل مشايخ الكتاب مرتبة خاصة . ويعرّف الصابئ مشايخ الكتاب بانهم الكتاب الذين اعتزلوا الكتابة لسبب او لآخر، وقد يكسبون هذا السبب كامنا في انقلاب الوزارة وخوف الكاتب على حياته فيعلن اعتزاله العمل وانتماءه الى مشايخ الكتاب^١ ويتقاضى رزقا خاصا بمشايخ الكتاب^٢ . كما قد يكون السبب هو اعفاساء الكاتب من العمل^٣ او بسبب التقدم في السن وعدم القدرة على ممارسة الصناعة . ويشير عبد الحميد الكاتب الى ضرورة توقيس الشيوخ في رسالته ، يقول: " وان اعدد الكبير احدكم عن مكسبه ولقاء اخوانه ، فزوروه ، وعظموه ، وشاوروه ، واستظهروا بفضله رأيسته ، وتجربته وقديم معرفته^٤ " لكن الظاهر ان هذا الامر قد تعدى - في عصر متأخر - مسألة التوقيس اذ ان مشايخ الكتاب اصبحوا يحضرون مجالس الوزراء ويشاورهم هؤلاء في شتى الامور، وذلك في نهاية القرن الثالث^٥ . كذلك فان مشايخ الكتاب عرفوا بتمرسهم بصناعة الكتابة لذلك كانوا يحاولون ان يشرعوا لبعض اصول الكتابة^٦ .

^١ انظر الصابئ ، الوزراء : ٥٤١ .

^٢ انظر المصدر السابق : ٣١٤ .

^٣ انظر المصدر السابق : ٣١٤ .

^٤ الجبهشيارى ، الوزراء : ٧٥ .

^٥ انظر الصابئ ، الوزراء : ٣٤١ .

^٦ يقول الصولي (ادب الكتاب : ١٥٠) : " اختار مشايخ الكتاب ان تكون كتب الوزراء النافذة عن الخلفاء بغير شاه المخاطب ولا نسسبون الجمع . . . " .

١ - أرزاق الكتّاب

تفاوت أرزاق الكتّاب بتفاوت مرتبتهم. وكان هذا المبدأ شافذا فيما يتعلق بأرزاق أصحاب الدواوين. يقول الجاحظ: "وحسبك بقوم انبلهم أخسهم في الرزق مرتبة ١٠٠٠ رزق صاحب ديوان الرسائل، وبلسانسه يخاطب الخلق، العشر من رزق صاحب الخراج" ١. ولا يدلني الجاحظ بمعلومات حول كمية المبلغ الذي كان يتقاضاه صاحب الخراج. ولكن صرح في الإشارة الى ان رزق صاحب ديوان الرسائل كان أقل من رزق صاحب ديوان الخراج وذلك عائد - كما سبق ان لاحظنا - السببي ان نفوذ صاحب الخراج كان أقوى من نفوذ صاحب ديوان الرسائل وعندما نتحدث عن التفاوت بين المرتبتين فاننا نعني المبلغ الرسمي المقرر لكل من صاحب الخراج وصاحب ديوان الرسائل من دون اعتبار للاموال الاضافية التي قد يحاول صاحب ديوان الخراج - أو غيرهم - ان يقطوعها لنفسه.

وقد كانت أرزاق أصحاب الدواوين في خلافة المنصور استمرارا لمسما كانت عليه ايام الامويين وقدرها للرؤساء (أى أصحاب الدواوين) والعمال ثلاثمائة درهم للرجل ٢٠٠ - على ذلك جرت ايام المأمون، فان الفضل بن سهل (وزير المأمون) وسع الجارى ٣. أما اصاغسنة الكتّاب فكانوا يتقاضون في خلافة المنصور في كل شهر عشرين دراهم ٤ وهو على الأرجح ادنى رزق يتقاضاه كاتب

١ الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتّاب ٢: ٢٠٥.

٢ يقول الصابي (الوزراء: ٧٦): قال ابو الحسن ابن الفرات سمعت ابا العباس (بن الفرات) اخي يقول: ٠٠٠ من استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة ٠٠٠٠.

٣ الجهشيارى، الوزراء: ١٢٦، ونلاحظ التماثل القائم بين اصحاب الدواوين والعمال في تقرير الارزاق.

٤ انظر المصدر السابق: ١٣١ - ١٣٢.

في ذلك الوقت . ويشير الجهشيارى الى ان كتاب القضاء كان يتقاضى من عشرين الى أربعين درهما في الشهر في خلافة المنصور^١ ، أى اكثر من اصغر الكتاب في الادارة . ويشير الجهشيارى كذلك الى ان اجور كتاب القضاء كانت متفاوتة اذ يقول: " كان لسوّار القاضي بالبصرة من قبل ابي جعفر المنصور كاتبان ، رزق احدهما اربعون درهم ورزق الآخر عشرون درهما . فكتب اليه سّوار (أى الى ابي جعفر) ، فسألته السوية بينهما"^٢ . وتشير الرواية بوضوح الى ان تقرير الارزاق لسم يكن يتم بمعزل عن صاحب السلطان - أى الخليفة - في بداية العصر العباسي . وقد يكون الجهاز الادارى يخضع ايضا لسلطة الخليفة فسي مسألة زيادة الاجور وتقريرها .

ويدل على توسيع الاجور في وزارة الفضل بن سهل رواية الخسرى يوردها الجهشيارى مفادها ان صاحب ديوان الاعطاء او الانفاق على الجند كان يتقاضى عشرة آلاف درهم في الشهر^٤ . لقد اصبح مرتسب صاحب الديوان اذا صدّت رواية الجهشيارى اضعافا كان عليه فسي خلافة المنصور . وشمل الارتفاع جميع مراتب الكتاب مع المحافظين طبعاً على النسب واستمرار التفاوت بين هذه المراتب .

^١ انظر المصدر السابق : ١١٣

^٢ المصدر السابق : ١١٤ ، كانت السوية ان انقص المؤمن اجر الاول عشرة دراهم وزادها على اجر الكاتب الثاني .

^٣ قد يشكّل كتاب القضاء حالة استثنائية من حيث استقلال القاضي التام عن الجهاز الادارى وارتباطه مباشرة بصاحب السلطان . وقد تكون هذه العلاقة هي التي جعلت الخليفة يتدخل بهذه التفاصيل الدقيقة .

^٤ انظر الجهشيارى ، نصوص : ٣٣ - ٣٤ .

وقد يكون سبب ذلك غلاء الاسعار وارتفاع مستوى المعيشة^١ . وقسود استمرت الاجور في الارتفاع بنسبة لا تعرف قيمتها بالتحديد، وجسّل ما نملك من معلومات حول الارزاق هو صورة عن الميزانية التي كانت مقررة لاصحاب الدواوين والكتّاب والجهاز الادارى عامة في خلافة المعتضد بالله . يقول الصابى: "ارزاق اكابر الكتّاب واصحاب الدواوين والخزان والبوابين والمديرين والاعوان وسائر من في الدواوين وثمان الصدف والقراطيس والكاغد سوى كتّاب دواوين الاعطاء و خلفائهم على مجالس التفرقة^٢ . من جملة اربعة آلاف دينار وسبع مائة في الشهر^٣ . وتستثنى هذه الميزانية ارزاق كتّاب ديوان الاعطاء او ديوان الجيش وربما غيرهم . غير اننا لا نستطيع التمييز بين المبلغ المقسّر للكتّاب والمبلغ المقرر للبواب مثلاً، والاموال المخصصة لشراء القراطيس، كما ان الصابى لا يورد اية معلومات حول عدد الكتّاب واصحاب الدواوين وسائر العاملين في الديوان لتعرف على وجسسه التقريب الارزاق المخصصة لكل منهم . لكننا نملك معلومات اخرى تفيد ان رزق كاتب صاحب ديوان الخراج معدّه خمسة وعشرون ديناراً في ولاية ابني الفرات على الخراج ايام المعتضد اى حوالي سنسنة ٢٩٠^٣ ، بينما كان صاحب ديوان الدار، او مجلس الدار، محمد بسمن

١ نعرف بالنسبة للاسعار انها رخصت في خلافة المنصور. يقول الجهشيارى (الوزراء: ١١٧): "ورخصت الاسعار في ايام ابي جعفر، فسوّلت لابي ايوب (الوزير) نفسه ان يشتري طعام سواد الكوفة وسواد البصرة، وطمسح في الربح".

٢ الصابى، الوزراء: ٢١، ويساوى الدينار عشرين مثقالاً وتساوى كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكل عشرة مثاقيل اربعة عشر درهما وسبعان (انظر الماوردى، احكام: ١٤٧).

٣ يقول الصابى (الوزراء: ١٤٠): "قال عبدالرحمن فحدثنى ابو الحسن سعيد بن عمرو سنجلا ان رزق ابن جبير لما كان يكتب وهو بين يسدى ابن الفرات في مجلس من مجالس ديوان الخراج خمسة وعشرون ديناراً".

اسماعيل الأنباري في وزارة ابن الفرات الاولى سنة ٢٩٦ يتقاضى خمس مائة دينار في الشهر^١، وكان صاحب ديوان السواد^٢، او مجلس السواد، ابو القاسم الكلوزاني، يتقاضى القيمة ذاتها^٣. وهنالك الاجور هي الاكثر ارتفاعا في الفترة التي ندرسها، ذلك ان مرتسب صاحب ديوان الفضوالخاتم - على بن مقلبة - كان في وزارة ابى سن الفرات الاولى اربعمائة دينار ودينار^٣. اما ارزاق الكتاب فسي الديوان من غير اصحاب الدواوين فانها كانت دون ذلك بكثير، فكان مثلا جملة ما يوزع على كتاب ديوان الدار كافة سوى صاحب الديوان خمسة وتسعين دينارا في الشهر في وزارة ابن الفسرات الاولى (٢٩٦).

ولم تتخذ ارزاق الكتاب صيغة ثابتة، بل كانت تتوقف على المبالغ التي تستطيع السلطة ان تتصرف بها وعلى السياسة المتبعة فسي مسألة الاجور. ونرى ان الارزاق سجلت ارتفاعا ملحوظا في وزارة ابن الفرات، اذ جعل رزق كاتبه ابن جبير مائة دينار بعد ان كان يتقاضى خمسة وعشرين دينارا في وزارة عبيد الله بن سليمان بسن وهب سنة ٢٧٩.

^١ انظر المصدر السابق: ١٧٧.

^٢ انظر المصدر السابق: ٣١٤.

^٣ انظر المصدر السابق: ١٧٨.

^٤ انظر المصدر السابق: ١٧٧. ان مجالس ديوان الخراج كانت تابعة للديوان الرئيسي لكن هذه المجالس كانت تعتبر كسائر الدواوين لان ارزاق كتابها غالبا ما كانت تفوق ارزاق كتاب الدواوين الاخرى. ويشير الجاحظ هذا المشكل في قوله (رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢: ٢٠٥) "يرزق المحرر - وبخطه يكون جمال كتب الخليفة - الجزاء من رزق صاحب النسخ في ديوان الخراج".

^٥ انظر الصابي، الوزراء: ١٤٠ كما انه خص يعقوب بن اصف بن الكاتب بأربعين دينارا بدل عشرة دنانير (انظر المصدر السابق: ١٤٠).

قد يكون هذا التوسيع في الاجور اقتصر على ديوان الخراج، ولكن عندما اصبح ابن الفرات وزيراً عممه على جميع الدواوين غيّر ان هذا الارتفاع لم يدم، اذ تدخل علي بن عيسى بن الجراح في وزارته الثانية سنة ٣١٥، لخفض الارزاق واتبع سياسة الاقتصاد في الاجور، ولم يطل هذا الاجراء ارزاق الكتاب وحسب بل ارزاق القضاة والعمال وجميع من لهم صلة بالاعمال^١. يقول الصابي في هذا الصدد: "اسقط (علي بن عيسى) ارزاق كل من كان يقبض برسم الدواوين مسن الكتاب وأولاد الكتال (اقرأ: الكتاب) الذين يحضرون ولا يعملون... وحذف من كان جارياً من الفرسان والرجالة برسم الخوبة مسن الكتاب والتجار ومن لا يحمل السلاح" وكان علي بن عيسى قد نظر في الجارى والارزاق فترك اصحاب الدواوين من الثلثين الى النصف وجعل لأبي القاسم الكلوزاني من خمسمائة دينار كان يقبضها فسي كل شهر عن ديوان السواد خمسة آلاف درهم وقرر لأبي الفتح الفضل ابن جعفر عن ديوان المشرق مائة دينار في كل شهر ولأبي علي بسن مقلّة عن ضياع الخاصة مائة دينار^٢.

وتعكس هذه الاجراءات سياسيتين متناقضتين، الاولى اتبعها علي بن محمد بن الفرات في وزارته الثلاث (٢٩٦ و ٣٠٤ و ٣١١) ومحمّد الخاقاني (٢٩٩)، والثانية اتبعها علي بن عيسى في توليه رئاسة الدواوين لحامد بن العباس الوزير (٣٠٦) وفي وزارته الاولى (٣٠١) والثانية (٣١٥). وتعتمد السياسة الاولى على التضييق على عمال الخراج في الولايات تضييقاً محكماً يؤدي الى زيادة المبالغ التي ترسل من الاطراف الى المركز، فيضطر العمال الى

D. Sourdel, Vizirat, vol. II, p. 422.

^١ انظر

^٢ الصابي، الوزراء: ٣١٤.

مواجهة سياسة المركز الى اتخاذ سلسلة تدابير لزيادة محصصول الضريبة بحيث تبقى حصتهم كاملة . وكان يرافق ذلك اجراءات فسي التضييق على الرعايا لدفع الضريبة كاملة . فابن الفرات ضيق على العمال منذ ولايته الخراج للمعتضد في وزارة عبيد الله بن سليمان ابن وهب (٢٧٩ - ٢٨٨) ^١ وأدى ذلك الى احداث ديوان خاص بذلك هو ديوان المرافق وهدفه .تحصيل فاض المال الذي يحتكره العمسسال لأنفسهم ^٢ كما سبق واشرت في فصل سابق ، وذلك عن طريق التحقيس في الوثائق . وفي حال عدم اعتراف العامل بالاموال المتوجبة عليه كان يعذب بشتى الوسائل لكي يقرّ بها . وكانت هذه الامسسال تسهم في زيادة الاجور ويذهب منها جزء يغذى بيت مال الخاصة . وقد حظر علي بن عيسى المرافق على العمال علما بانها طريق السى ضياع الحقوق وخراب البلاد وظلم الرعية ، كما يقول الصابى ^٤ ولم يلجأ علي بن عيسى الى التضييق على العمال بل ألغى بعسسال الضرائب التي تشغل كاهل الرعية كالمكس في مكة ^٥ . ولهذا السبب

^١ انظر المصدر السابق: ٧٦ - ٧٧ و ١٧١ - ١٧٢ .

^٢ انظر المصدر السابق: ٣١ - ٣٣ و D.Sourdel, Vizirat, Vol. II, p. 408

^٣ يقول الصابى (الوزراء: ٣٠-٣١): "وحمل (ابن الفرات في وزارته الثانية) الى المقتدر بالله في كل يوم الف دينار والى السيدة (والدة المقتدر) والامراء خمسمائة دينار... وصار جارى صاحب ديوان السواد وكتابه مع ثمن الكاغد والقراطيس نحو سبعة آلاف دينار في كل شهر" .

^٤ انظر المصدر السابق: ٢٩١ .

^٥ انظر الصابى ، الوزراء: ٢٨٦ ، والمكس ضريبة عشرية تفرض على العمليات التجارية في مكة (انظر لسان العرب، مكس) .

انخفضت الاجور في وزارته ونقصت مرتبات جميع الكتاب والقائمين في دار الخلافة من الثلثين الى النصف وذلك لتفادي الافلاس .

ويديلنا هذا الواقع - أى واقع تغير المرتبات - الى طرح السؤال التالي وهو: من كان يقرر الأرزاق؟ رأينا في عهد المنصور ان الخليفة هو المرجح الأول على الأقل فيما يتعلق بمرتبات اصحاب الدواوين. وقد تغير هذا الواقع في عصر المأمون اذ اصبح الوزير يتولى هذه المهمة، بدلالة ان الفضل بن سهل ذا الرياستيين تولاهما^١. وكان تقرير الارزاق يتم بصورة تدريجية وعلى مراحل. يقرر الوزير ارزاق اصحاب الدواوين، ويقرر اصحاب الدواوين ارزاق كتاب دواوينهم: يخاطب ابن الفرات محمد بن اسماعيل الأنباري الذي قلده ديوان الدار قائلًا: "٠٠٠ قدر ما تحتاج اليه لكتابك..."^٢. لكن لا بد ان يحوز صاحب الديوان موافقة الوزير على المبلغ الذي قرره. فالوزير - فيما يبدو - اصبح هو المرجح النهائي في مسألة تقرير الارزاق، ولا يذكر الصابي ان الخليفة المقتدر - مثلاً - تدخل شخصيا في تقدير الارزاق الا بالنسبة لمرتب الوزير، اذ قال عن تقليد محمد الخاقاني الوزارة في خلافة المقتدر سنة ٢٩٩ انه "اجرى له (اي لمحمد الخاقاني) خمسة آلاف دينار في كل شهر على رسم ابن الفرات"^٣، ويشير ذلك الى ان المبلغ الذي كان الوزير يتقاضاه كان ثابتا الى حد ما، وانما ليس بصورة مطلقة^٤.

^١ هو لقب الفضل بن سهل ومعناه رياسة الحرب ورياسة التدبير (انظر الجهشيارى، الوزراء: ٣٠٥).

^٢ الصابي، الوزراء: ٢٧٧.

^٣ المصدر السابق: ٢٦١ - ٢٦٢.

^٤ يقول الصابي (المصدر السابق: ٣٥١) ان رزق علي بن عيسى الوزير كان سبعة آلاف دينار في وزارته الثانية سنة ٣١٥.

ويتولى ديوان النفقات احتساب الاجور واشباتها في السجلات ويتم طرح الارزاق وثمان الكاغد والقراطيس من الموازنة العامة. اما مصدر هذه الاموال فيتوقف على طبيعة الديوان. وكان يحتسب أجر اصحاب مجالس الخراج على عمال النواحي التي تقع مسؤولية خراجها على مجلس او مجلسين او ذلك، ويتم ذلك باشارة من الوزير. يقول الصابي: "تقدم (اي علي بن محمد بن الفرات) الي (أي صاحب مجلس الدار) بان اسبب لنفسه ولكتابي بجارى شهرين على عمال الاهواز واسبب لعلي بن مقلدة (صاحب ديوان الفض والخاتم) بمثلته"^١. ان الاحتساب على عمال النواحي لم يكن مقتصرًا على اصحاب مجالس الخراج وحدهم بل تعداهم السيسى غيرهم من الكتاب اصحاب الدواوين^٢. انما تنبغي الاشارة الى ضرورة مرور الكتاب بواسطة صاحب احد المجالس لان طلب المال لا يمكن ان يأتي مباشرة من صاحب ديوان الفض والخاتم. اما كتاب ديوان الاعطساء او ديوان الجند وخلقائهم على مجالس التفرقة^٣ واصحابهم واعوانهم وخزان بيت المال^٤ فانهم يأخذون ارزاقهم مما يوقرونه من اموال الساقطين وغرم المخلين بدوايبهم^٥. ان مصدر ارزاق كتاب ديوان الجند مختلف عن مصدر رزق كتاب الدواوين الاخرى.

^١ المصدر السابق: ١٧٨.

^٢ في حال عدم تمام الاحتساب على النواحي كان بيت المال هو الذى يتولى توزيع المرتبات ("Diwan", vol. II, p. 334, ر EI²).

^٣ مجالس التفرقة هي بمثابة عرض عسكري يقام بحضور الخليفة ويتم فيه تقييم عناصر الجيش من حيث الرمي والحلية وامور اخرى. ثم يجرى تقرير ارزاق الجند وفقا لمراتبهم وبقاء مظهرهم. وكان الكتاب في مسنده المجالس يسجل ملاحظات القائد او الخليفة فيما يتعلق بكل عنصر عيسى حدة (انظر الصابي، الوزراء: ١٣ - ١٤).

^٤ المصدر السابق: ٢١.

^٥ ولا بد ان تكون مصادر ارزاق القاضى والكتاب في الجهاز القضائىي مختلفة عن مصادر اموال الكتاب في الادارة. ويقول كاهن ان الارجسح ان يكون هذا المصدر من الغرم والمصادرات التي يلجأون اليها ومسكن بيت مال الخاصة (انظر (C. Cahen, Islam I, p. 79).

ان اكثر ما يميز توزيع الارزاق هو عدم موافقة الاجور لمعدل العمل،
اذ ان هنالك دائما تفاوتاً بين المستويين^١ . ويكون التفاوت امساً
على جهة الاستباق، اي استباق الاجر للعمل، او على جهة التأخير،
أي تأخير الأجر نسبة للعمل. اما المثل الاول فيتم فيه دفع
ارزاق عدة شهور مسبقاً. يقول الجهشيارى ان الفضل بن سهل امس
ان يحمل لريان الكاتب ارزاق ثلاثة أشهر وذلك فوراً بعد تقلبته
الانفاق على العسكر^٢ . وفي المنحى نفسه سيب عبد الله بن اسماعيل
الانبارى وعلي بن مقله لانفسهما جارى شهرين^٣ . وكان تأخير الارزاق
ايضاً امراً شائعاً، يقول الصابى: " قال ابو القاسم : تأخرت ارزاق
الكاتب في وزارة حامد بن العباس (٣٠٦) . . . فلما تقلد ابو الحسن
بن الفرات الوزارة الثالثة (٣١١) وعرف ذلك انكره وعجب من
استمراره وانفذ المستحقين^٤ الى العمال للمطالبة به فقبضوا فسي
مدة عشرة اشهر جارى اربعة عشر شهراً^٥ ولم يكن اجر الكاتب ينقطع
دائماً عند انقطاعه عن العمل، وكان هنالك رسم يقضى بدفع
مرتبات لمشايخ الكاتب او الذين تم اعفاؤهم من العمل،

^١ كان من المفروض ان يتم دفع الاجور شهرياً. اما الشهر فثلاثون
يوماً، وقد يحسب على انه خمسة وثلاثون يوماً في بعض الاحوال. كما
كان الشهر خمسين يوماً فيما يتعلق بأرزاق المطبخين (انظر
الصابى، الوزراء: ١٨).

^٢ انظر الجهشيارى، نصوص: ٣٤.

^٣ انظر الصابى، الوزراء: ١٧٨.

^٤ المستحدث شخص ينفذه الذليفة الى الاطراف ليحاول بشتى الوسائل
ان يستخرج الاموال من العمال (انظر المصدر السابق: ٢٠١).

^٥ المصدر السابق: ٢٠١.

يقول الصابئ: " كان (حامد بن العباس) اجرى له (اي لعلي بن مقله) ثلاثة آلاف درهم كل شهر برسم مشيخة الكتاب وكان يقبضها السى ان شكبه ابن الفرات^١ . وقد قدر في خلافة المقتدر مبلغ ما جرى على مشايخ الكتاب وعلى الزمى^٢ خمسمائة دينار وذلك فيما يتعلق بكتاب ديوان الاعطاء فقط، وقد اقر ابن الفرات هذا المبلغ^٣ .

وقد كان الكاتب يحصل عدا المرتب الذى يتقاضاه دخلا آخر من قيامه باعمال مؤقتة في حقل الكتابة تكون مصدر رزق له ، ولدينا مشمل على ذلك في كتابة الامان. وقد حصل على بن مقله من كتاب الامانات لابن الفرات مائة الف دينار او نحوها^٤ . نضيف السى ذلك الهدايا في الاعياد ولم تكن نقدا بل عينا، يقول الصابئ: " كان الرسم جاريا بان يفرق على القواد والفرسان... والرجالة... واصحاب الرسائل... ووجوه الكتاب واصاغرهم وخزان الدواوين في كل عيد من شاة الى عدة بعرا...^٥ " وكان يحدث احيانا ان يصل الذليفة

^١ انظر المصدر السابق: ٣١٤، وهذا الاجراء ليس بمشابهة تعويض السى تقاعد لان الكاتب كفيل بان يعود ليمارس صناعته ساعة تكون الاحوال مناسبة لذلك. ولا نعرف ما اذا كان لصغار الكتاب حق في تقاضى مرتب المشيخة .

^٢ الزمى: ذوى العاهات، ولا نعرف ما اذا كان الحاق مشايخ الكتاب بذوى العاهات يدل على ان بين هؤلاء من اقدمه الكبر وعجز عن الاستمرار في تعاطي الصناعة .

^٣ انظر المصدر السابق: ١٤٦ .

^٤ انظر المصدر السابق: ١٢٠، ثم ذلك في وزارة ابن الفرات الاولى التي تقلدها بعد اخفاق محاولة ٢٩٦ . في خلع المقتدر وتنصيب ابن المعتز حفيد المتوكل ويقول ابن الفرات لكاتبه (المصدر السابق: ١٢٠) "... لا ترد احدنا عن امان يطلبه فقد افردتك لذلك لانه باب مكسب كبير وقال (ابن الفرات) لمن حضر: أشيعوا قولي وتحذثوا به بين العمام والخاص ليأنس المستوحش ويأمن المستتر".

^٥ المصدر السابق: ٢٦٦ .

احد الكتّاب اذا اعجب بجملة قالها او بخطه او بشعره اذا كان يقرض الشعر وتلاه عليه فاستحسنه الذليفة . والروايات على مثل هذا كثيرة في كتاب الجهشيارى . يروى مثلا ان المأمون وصل محرّره الاحول "لانه كان يعجبه خطه" ^١ . ويورد الجهشيارى روايات اخرى بهذا الصدد وقد يكون قسما منها موضوعا وليس حقيقة تاريخية ، وحتى لو كانت حقيقة فانها لا يمكن ان تشكل مصدر رزق بالنسبة لجميع الكتّاب لان احتمال حدوشها كان ضئيلا ومتوقفا على هوى الذليفة .

ويعتقد بالنسبة للمرتبات انه كانت تحدث تجاوزات كما سبق ورأينا في مسألة تأخير الارزاق ، وان الامر كان يخضع عادة لمشيشسة الذليفة او الوزير او للظروف المستجدة ، فكان الدفع يتم او لا يتم ، لكن في كلتا الحالتين كان العمل في الجهاز الادارى يتم بصورة طبيعية ولا يبدر من جانب الكتّاب ما يعرقل مسيرة الامور . ولتسم تحدث ازمة في الدواوين بسبب عدم دفع الاجور . بل الظاهر ان الكتّاب كانوا يتحملون تأخير الدفع دون اللجوء الى العصيان او الى التمرد وحتى دون احتجاج شفوى .

ب - كسب الذسيس

لم يتوقف مصدر رزق الكاتب اذن على المرتب الذى يتقاضاه ، وعلى الهدايا التى كانت السلطة تنعم بها عليه من وقت لآخر . وقد كسان الكتّاب ، على مراتبهم يقومون باعمال اختلاس تدرّ عليهم امسساوالا اضافة منها عمليات التزوير . ويسمح بالتزوير طبيعة الجهسسان

^١ انظر الجهشيارى ، نصوص : ٤٧ .

الادارى البيروقراطي الذى يقوم على اساس التدوين، والاشبيسات بالسجلات، بحيث تشكل هذه مرجعا عند الضرورة. ولا يمكن اضافة صفة قانونية رسمية على عملية تملك مثلا الا في حال اشباتها فسيى الدواوين. وهنا يأتى دور الكتاب بصفتهم قيمين على الجهتساز الادارى ومكلفين بتسجيل المواد، اذ لا يمكن ان تتم أى عملية تسجيل دون وساطتهم. والكتاب معروضون لقبول المرشى منذ نشأة الدواوين^١. وكانت الرشوة تعتبر لهذا السبب امرا طبيعىسا وان كان غير قانوني. سأل عبد الملك بن مروان احد كتآبسه: "أقبلت هدية منذ وليتك؟ فقال: امورك مستقيمة، والاموال دائرة، والعمال محمودون، وخراجك موثر، فقال له: اخبرني عما سألتك عنه؟ فقال: نعم قد قبلت"^٢. فكان ان صرفه عبد الملك عن خدمته^٣.

وكانت الرشوة منتشرة كذلك في عملية تملك الاراضي. يقسول الجهشيارى "وحكى ان هشاما اقطع، قبل ان تفضى اليه الخلافة، ارضا يقال لها دورين، فارسل في قبضها، فاذا هي خراب، فقسسال لذويد - كاتب كان في الشام -: ويحك كيف الحيلة؟ فقال لسه: ما تجعل لسي؟ فقال: اربع مائسة دينسار، فكتسب

^١ لا يعني ذلك ابدا انه لم يكن من بين الكتاب جماعة كانت تترفع عن تقبل المرشى، يروى الجهشيارى (الوزراء: ١٩٩): "قال احمد بسسن المدير الكاتب: كنت اتقلد مجلس الاسكدار في ديوان الخراج، (فسيى خلافة الرشيد) وكانت نفسي تنازعني على اشياء لم تكن تنالها، وكنت ارفع نفسي عن التعرض لكسب الذهب".

^٢ الجهشيارى، الوزراء: ٤٣-٤٤. وقبول الهدية هو تدخل بين الكاتب والسلطة بحيث لا يعود يخدم هذه الاخيرة بل الطرف الذى وهبسه الهدية. ويعتبر هذا العمل بالنسبة للسلطة من صفة اللؤم والدناءة والذيانة، وقد اتهم عبد الملك كاتبه بجميع هذه الامور.

^٣ انظر المصدر السابق: ٤٤.

دورين وقراها ثم امضاها في الدواوين^١ . ويروى الجهشيارى انه لما اعتلى هشام سدة الخلافة صرف الكاتب الذى تقبل الرشوة ولم يقبسل به في دواوينه^٢ . هاتان الروايتان ترجعان الى العصر الامسسى وتشيران الى ان الرشوة كانت قائمة في صفوف الكتاب في قلسسب الدواوين، وقد ظلت كذلك في العصر العباسى اذ يقول الجهشيارى: " ان الخبر اتصل به (اى بالذليفة المنصور) ان احداشا يزورون في ديوان داره ، فامر باحضارهم ، وتقدم بتأديبهم"^٣ ، اى بضرهم ولا نعرف في اى شيء تم التزوير، لكن نشير الى ان الذليفة المنصور عسرف بالامر ولا نفاجاً بذلك لان المنصور عرف بتفقدده اعمال الدواوين حتى ضاق الكتاب بذلك^٤ . ونلاحظ في المثل السابق ان المنصور لم يصرف الكتاب المسؤولين عن التزوير كما حدث في العصر الاموى مع الذليفة عبد الملك والذليفة هشام . وقد يعود تفادى الصرف وعدم اللجوء اليه الى الصعوبات التي تنتج عنه ، لاسيما عندما تتوزع مسؤوليسسة التزوير على عدد من الكتاب كما في المثل السابق، فضلا عسسن ان الصرف لا يؤدى في هذه الحال الى استئصال الرشوة والقضاء علسى التزوير بقدر ما يؤدى الى زعزعة الجهاز الادارى نتيجة تغييسر افراد طاقمه .

^١ المصدر السابق: ٦٠ - ٦١ .

^٢ انظر المصدر السابق: ٦١ .

^٣ انظر الجهشيارى، الوزراء: ١٣٦ .

^٤ يقول الجهشيارى (المصدر السابق: ١٣٩ - ١٤٠) : " وحكى انه ثقل علسى كتاب المنصور تفقدده الاعمال، ومراعاته لها، فقالوا لمتطبيسه: لو زيننت له شرب التبيذ حتى يتشاغل عنا، لاعظمت المنة عندنا، فوعدهم بذلك" .

ولا شك في ان اكثر الدواوين تأثرا بالرشوة كان ديوان الخراج ، وان احداث ديوان الازمة بمبادرة من الخليفة المهدي عمل على الحسد^١ نسبيا من تسرب اموال الدولة وذلك بتولي هذا الديوان العمليات الحسابية التي تقارن قيمة الضريبة النظرية بقيمتها الفعلية^١ . ويدطلب ذلك توفر الاصول او الوثائق المتعلقة بكل ارض على حدة في الادارة المركزية . ولهذا السبب كانت الرشوة تتم في المركز حيث السجلات الرسمية - لا في الاطراف - على الأرجح .

ان ما يحتاج اليه الجهاز الاداري للمحول دون التزوير والاختلاس هو وجود رقابة مستمرة على كتاب الجهاز الاداري يخضع لها هؤلاء دون انقطاع ولا نعرف مدى توفر رقابة كهذه في الدواوين . بل ان مسسا يرويه الجهشيارى يشير احيانا الى عدم تتبع قضايا الرشوة والاختلاس ، اذ يذكر ان الرشوة كانت شائعة في اواخر خلافة الرشيد مثلا ، اى حتى بعد استحداث ديوان الازمة . ويقول الجهشيارى بهسدا الصدق : " دخل الرشيد يوما على ام جعفر ، فقال لها : قد تهتك كاتبتك سعدان فاعزليه ، قالت وبأى شيء تهتك ؟ قال : بالمرافق والرشا حتى قال فيه الشاعر :

صب في قنديل سعل دان مع التسليم زيتا
وفي قناديل بنيه قبل ان تخفى الكميتسا

فقلت له : وقد قال الشاعر في كاتبتك ابي صالح يحيى بن عبد الرحمن (على ديوان الخراج) اشنع من ذلك ، فقال : وما قال ؟ قالت :

قنديل سعدان على ضوئسه فرج لقنديل صالح
تراه في مجلسه اذوصا من لمة للدرهم اللائح

^١ انظر ما سبق : ٢٨٠ .

فقال لها: كذب على كاتبي وكاتبك^١. وتشير هذه الرواية بوضوح الى شيوع الرشوة في الدواوين وعدم تدقيق الخليفة في الامر. ونلاحظ كيف كانت الرشوة تتم في ديوان الخراج حيث عمل ابو صالح يحيى بن عبيد الرحمن كاتب الرشيد. وقد كان اهل الخراج يلجأون الى تخفيف عبء الضريبة عليهم بان يرشوا كتاب الديوان. ونورد في هذا الصدد رواية اوردها الصابي، وهي تدور حول حادثة وقعت في ولاية ابي العباس بن الفرات ديوان الخراج في خلافة المعتضد في نهاية القرن الثالث لكنها تدل على ان التزوير يرقى الى زمن بعيد، و ابو العباس كان اول كاتب تصدى له وحاربه، ومعرفتنا باصول الرشوة تعود الى محاولته الحؤول دونها وضبطها. قال ابو الطيب احمد بن اسماعيل وكان يكتب بين يدي ابي العباس بن الفرات: "جاءني رجل من التتساء بالسواد ومعه توقيع بنقل مقاسمة بيدر له من رسم ثقيل الى رسم خفيف... وبذل لي مائة دينار على امضائه وكتب الكتاب بمقتضاه. ففعلت واخذت المائة دينار وتسلم الكتاب". لقد تقبل الرشوة كاتب صاحب ديوان الخراج الذي تخوله مسؤولياته اخذ المبادرة في كتساب الكتب. ثم اتت المرحلة الثانية التي تم فيها اثبات التوقيع في السجلات لكي يصبح معمولاً به ويفترض رشوة الكتاب القيمين على مجلس السواد الذي يدخل البيدر المذكور في اعماله.

^١ الجهشيارى، الوزراء: ٢٥٦. ولهذه الرواية دلالة معينة اوردها الجهشيارى بعد نكبة البرامكة لكي يشير الى الفراغ الادارى الذى خلفوه والى عجز الخليفة الرشيد عن تدبير امور دواوينه بعد غيابهم.

^٢ تولى ابو العباس بن الفرات ديوان الخراج في وزارة عبيد الله بن سليمان بن وهب للمعتضد سنة ٢٨٠، وكان خبيراً في شؤون الخراج (انظر الصابي، الوزراء: ٨-٩).

^٣ الصابي، الوزراء: ١٩٦.

ومتى أثبت التوقيع في الديوان أصبح له طابع رسمي وتعامل معه
ديوان الازمة على ذلك الاساس هكذا فعل صاحب البيدر اذ ائتمسه
"برهم (اي كتاب مجلس السواد) بجملة حتى اشبهتوه عندهم"^١ . ان
الرشوة كفييلة بان تنال جميع الكتاب المعنيين لكي يستزوا الامر.

ويتوقف نجاح التزوير او اخفاقه على صاحب الديوان. وكان ابي
العباس صاحب كفاية في هذا المجال، ونراه يتتبع الامر من جهته
بوسائله الخاصة، وكانت المراسلة المستمرة بينه وبين سائس
العمال كفييلة بان تزوده بالمعلومات اللازمة. وقد علم ابو العباس
بامر عملية التزوير التي سبق ذكرها وياشر التحقيق فيها واستجوب
الكتاب. يقول الصابي: "اقبل (ابو العباس) يدفعه (اي الكتاب)
الى واحد واحد من الكتاب الذين في مجلسه ويسأله عن صاحب الخط
... وسلمه الى احمد بن يزيد المدير وقال له: امض به الى الديوان
وخذ خطوط اصحاب المجالس وخلفائهم بما عندهم من العلم به وجثني
بنسخته اذا وجدتها في مواضعها"^٢.

لكن كما كان لصاحب الديوان وسائله الخاصة لمعرفة الامور كسنان
لكتاب المجالس اساليبهم الخاصة في الاستقصاء حول ما يجري فسي
مجلس رئيسهم والاحتياط لذلك، فقد "سبق الخبر الى الكتاب ... فما
منهم الا من قطعه (اي التوقيع) واخرجه من شك الورق ورمى به في
المستراح او اعطاه غلامه حتى اخرجه من الديوان وخبأه في خفائه
او تحت الارض. ولما دار عليهم ابن يزيد انكروا وجدوا ما فيسه
من علاماتهم وخطوطهم فاخذ خطوطهم على ظهر الكتاب بما ذكره
وجاء به الى ابي العباس"^٣.

^١ المصدر السابق: ١٩٩.

^٢ المصدر السابق: ١٩٩.

^٣ المصدر السابق: ١٩٦ - ١٩٧.

كانت اذن فعالية التدبير في اغلب الاحيان ضخيلة والاجراءات المتخذة لاتجدي حتى عندما يحدث ان يعرف صاحب الديوان بحصول تزوير. وبسبب ضآلة فعالية التدبير ظلت الرشوة المتمثلة بالتزوير امرا شائعا في اطار ديوان الخراج ومجالسه. لذلك جاء رد صاحب البيدر علسسي تردد احد الكُتاب في قبول الرشوة في محله اذ قال: "وكم في الدواوين من توقيع يجرى هذا المجرى ولا يؤبه له ولا يتنبه عليه".^١ وهما هذه الاشارة تدل على شيوع الرشوة في صفوف كتاب الدواوين. ويضاف اليه ذلك ان الانتباه الى الامر والتحقيق فيه لم يكن بالضرورة يفضح الفاعل مع انه كان يبطل مفعول التزوير.

ويدخل التحقيق عنصرا جديدا يحاول فيه الوزير او صاحب الديوان ان يعرف كيف تم الاختلاس فيأخذ خطوط الكتاب اي اعترافهم الخطي بتهمة التزوير او انكارهم لها. ومن المفروض ان يؤدي التحقيق الى جمع معلومات شتى حول طريقة التزوير وطبيعته والكتاب المسؤولين عنه وان يتصف البحث لذلك بالشمولية. وقد تكون الظروف هي التي أملت ضرورة اجراء تحقيق لمعرفة ادق التفاصيل المتعلقة بالتزوير ولتفادي بالتالي حدوثه مرة اخرى، ذلك لان تزوير سجلات ديوان الخراج يهدد موارد الدولة الاساسية التي تعتمد عليها وهي محصول الضريبة. من المحتمل ان يكون التحقيق من ابتداء ابي العباس بن الفرات ولا يذكر الجهشيارى في تأريخه للعصرين الاموى والعباسي ان خليفة او وزيراً حقق في موضوع الاختلاس كما مر معنا في المثل السابق.

وتعود صعوبة ضبط الاختلاس ايضا الى اشتراك اصحاب الدواوين انفسهم في ضروب الاختلاس، لان الاختلاس لم يكن شأن كتاب الدواوين وحسب بسبل

^١ المصدر السابق : ١٩٧.

رؤسائهم ايضا. وذلك امر بالغ الخطورة لان لرئيس الديوان كامسل الصلاحيات في التصرف بشؤون ديوانه^١ وذلك لا سيما بعد اطلاق يده في ذلك في نهاية القرن الثالث كما سبق ورأينا. وليس هنالك ما يشير الى عدم قيام اصحاب الدواوين بعمليات الاختلاس، وحتى حين كان يلجأ هؤلاء الى فرض رقابة على دواوينهم فانهم لسهم يترفعوا شخصيا عن كسب خسيس الاموال. يشير الصابي^٢ الى ان صاحب الازمة الحسن بن مخلد في وزارة ابن الفرات الاولى (٢٩٦) وضع يده على ثلاثين الف دينار من بيت المال ادعى ان الخليفة امسرها بها لنفسه ولم يتنبه احد للامر. وكان الحسن بن مخلد حسسب شهادة خادمه اجسره^٣ " على اخذ مال السلطان".

غير ان لاصحاب الدواوين وكبار الكتاب والوزراء اساليبهم الخاصة في الافادة من المنصب الاداري. واذا حدث ان اختلسوا فانهم لسهم يكونوا يكتفون بذلك احيانا ويسلكون طريقا آخر يعود عليهم بسهم بربح اكبر لان سعة نفوذهم تمنحهم الفرصة لذلك. ويدخل فسيحي اطار العمليات غير القانونية قبول اصحاب الدواوين وكبساار الكتاب بالتلجئة او الالجا. ويقوم بهذه المبادرة، اي مبادرة التلجئة، صغار الملاكين وتقضي بنقل ملكية الارض اسميا للسسي الوزير او احد وجوه الكتاب من اصحاب النفوذ. هذا هسسو نظام الحماية الذي كان شائعا على الاقل منذ بداية العصر

^١ لقد استغل الكتاب احيانا ذلك واستخدموا اسم الوزير او صاحب الديوان للاحتيلاء على مبالغ ضخمة، يزوي الجهشيارى (الوزراء : ١٠٠) على لسان طريف - صاحب البريد - كاتب ابي ايوب وزير المنصور - كتسب فحملها ولم يعلم بها ابو ايوب.

^٢ الصابي، الوزراء : ٧٧ - ٧٨.

العباسي، ويروي الجهشيارى: " انه جاء رجل من اهل الاهواز الى ابي ايوب المورياني وهو وزير، فقال له: ان ضيعتي في الاهواز قد حمل عليّ فيها العمال، فان رأى الوزير ان يعيرني اسمه اجعله عليها، واحمل اليه في كل سنة مائة الف درهم فقال: قد وهبت لسيديك اسمي^١. فالكاتب الوزير يتوسط هنا ليذهب الضريبة عن ارض الملجأة اليه.

ويشير الجهشيارى الى واقع التلجئة في مقدمته على سبيل تحذير صاحب السلطان منه مما يشير الى ان التلجئة كانت شائعة في عصره. يقول مخاطباً صاحب السلطان: " واعلم ان من اهل الخراج من يلجئ بعرض ارضه وضياعه الى خاصة الملك وبطانته لاجل امرين... اما الامتناع من جور العمال، وظلم الولاة... واما لدفع ما يلزمهم من الحسق والكسر^٢. ويشير كلود كاهن الى انه كان يرافق تخفيف الضريبة عن الارض بتوسط الوزير او الكاتب مطالبة هذا الاخير بحقوق له عليها^٣. وكان هذا الاجراء يفضي في نهاية المطاف الى نزع الملكية من صاحب الارض لصالح صاحب النفوذ. ويعتبر هذا التدبير غير قانوني، غير ان صفار الملاكين كانوا يلجأون اليه وهو السبب في زوال الملكية الصغيرة تدريجياً لصالح الملكية الكبيرة في رأى المستشرق كاهن^٤. ولا شك ان عملية التلجئة كانت تؤدي الى تخفيض عائدات الضريبة المتوجبة على الارض لصالح الملاك او ثم لصالح صاحب النفوذ،

^١ الجهشيارى، الوزراء: ١١٨.

^٢ المصدر السابق: ٧. والكسر ما لا يستخرج من الاموال لغياب اهله او موتهم (انظر المصدر السابق: ٧).

^٣ انظر ما سبق ص: ١٠٢.

C. Cahen, Islam I, p. 80-81.

^٤ انظر

وهي تعمل على تجيير اموال الضريبة بصورة لا مباشرة .

نستنتج من ذلك ان الوزير او الكاتب كان يحتفظ لنفسه بهامش يسمح له بتعاطي اعمال غير قاضونية في نطاق وظيفته الديوانية طلبا لمزيد من الرزق. لكن تعاطي هذه الاعمال لا يعني انه لم تكن هنالك محاولات قامت بها السلطة لضبطها والحوول دونها، نذكر مثلا ان علي بن عيسى حاول محاربة التزوير والرشوة عند توليه الوزارة مسن ٣٠١ الى ٣٠٤ ثم من ٣١٥ الى ٣١٦ واثناء رئاسته على الدواوين من ٣٠٦ الى ٣١١، وذلك لتفادي وقوع السلطة في عجز مالي، وقصر سياسته الضريبية على اساس توفير الاموال اللازمة عن طريق محاربة اختلاس كل من العمال والكاتب ودون الاعتماد المفرط على عائيدات ضريبة الاطراف كما سبق ورأينا^١. ولا نعرف مدى نجاحه في مسنده الاجراءات لكن لا شك في ان تكون ادت نسبيا الى عدم تسرب امسوال الدولة ولو لفترة وجيزة ذلك ان علي بن عيسى لم يتول شسسون الادارة الا بصورة متقطعة منذ بداية القرن الرابع حتى سنة ٣١٦ .

وكان الحصول على الاموال الاضافية يتم بطريقة اخرى غير التزوير. كان يحدث مثلا ان يرشو العمال كتاب الدواوين لمعرفة ما يدور في ديوان الخراج من امور تتعلق بصرفهم او عزلهم. والتضييق عليهم، وكانت هذه الطريقة في الاستعلام شائعة جدا، هدفها استباق العامل للامر ومبادرته الى تلافي خطر بعده عن الحضرة حيث يقرر غيره مسن الوزراء واصحاب الدواوين مصيره . وكان ذلك يسهم في تسرب المعلومات من المركز الى الاطراف^٢. لكن مهمة الكاتب لم تكن تنحصر

^١ انظر الصابئ ، الوزراء : ٢٩١ .

^٢ انظر المصدر السابق : ١٧٣ - ١٧٤ .

في نقل المعلومات بل غالباً ما كان يكلّف بذكر العامل والتغاضي بحامده وصفاته على مسمع من صاحب الديوان ليحببه اليه . ان هذا النوع من الدعاوة كان هدفه وقاية العامل من الاخطار الى قد يتعرض لها اذا انقلب عليه صاحب الديوان . يقول ابو عبد الله زنجي كاتيب ابني الفرات عند توليها ديوان الخراج في خلافة المعتضد : " كسنان النرسي الاكبر ^١ عبد الله بن الحسن صار الي في بعض الايام مسلماً عليّ ثم سألتني اجمال خلافته بحضرة ابي العباس بن الفرات وحفظ غيبه ومراعاة ما يجري من ذكره ووضع غلامه بين يدي صرة فيهما ثلاثمائة دينار وتختين فيهما ثياب وسامني قبول ذلك . . . وكسنان النرسيون بفضل عداوتهم لهما (اي لابني الفرات) قد توّصلا الي بسرّ كتابهما وخزائنها وحجابها وغلمانها والفرّاشين " ^٢ .

وكان كسب خسيس الاموال يتخذ احيانا شكل الاستيلاء المباشر على اموال السلطة . وكان الكتاب يستولون احيانا على الاموال المخصصة لدفع المرتبات . يقول الصابي : " رفع الي ابي الحسن بن الفرات ان جماعة من الكتاب في ديوان الجيش المتولين للعتاء احتسبوا على الجند بما لم يعطوهم اياه واخذوه لنفوسهم واقتطعوه من دونهم ، فانكر ذلك وعظم في نفسه ، وكشف عنه فوجده صحيحاً ورأى الاقدام على مثله غليظاً ، فقبض على القوم الذين فعلوه فمّنهم من ضربه وأدبهم ومنهم من ارتجع منه ما حصل في يده ومنهم من صفح عن جرمه ^٣ . وليست القضية هنا مسألة رشوة بل اختلاس فالوزير اذن يملك

^١ النرسيون ، ويقصد بهم عبدالله بن الحسن النرسي واخوته ، كانوا يتقلدون عدة نواحي من سقي الفرات (انظر الصابي ، الوزراء : ١٠٤ - ١٧١ - ١٧٢) .

^٢ المصدر السابق : ١٧٢ - ١٧٣ ويضيف الصابي (المصدر السابق : ١٧٣) : " فلما قبض ابنا الفرات على النرسيين واخذ ما كان في منازلهم من الاعمال والكتب وحمل الي دارهما وميزاء وجدا فيه شبتا بما بوبه النرسيون اسبابهما " .

^٣ المصدر السابق : ٢٣٨ .

وسيلة الاستطلاع على ما يجرى في ديوان الاعطاء ، ولا نعرف بالضبط كيف يتم اعلامه في هذه الحالة ، فيلجأ الى تأديب الكتاب .

ولقد استمر التأديب اسلوباً يتبعه الوزير - للتذكير بسهر السلطة على مصالحها - منذ بداية العصر العباسي وبالتحديد منذ خلافة المنصور كما مر من قبل . ومن اللافت للنظر ان يحمل التأديب الذى يكممن بالتوبيخ والتأنيب والضرب أبعاداً تربوية هدفها اصلاح الكاتب . غير ان التأديب لم يكن الاجراء الوحيد الذى يلجأ اليه الوزير اذ نراه يصفح عن عدد من الكتاب ويسترجع الامسوال من بعضهم الآخر ويعتقل آخرين . ولا نعرف لماذا كان العقاب يتنوع رغم ان الجندة المرتكبة واحدة هي الاختلاس . لكن الصابئ يشير الى انه كانت تتم احيانا تدخلات من قبل كبار الكتاب وكبار المسؤولين لصالح هذا الكاتب او ذاك . ولقد كتب احد الكتساب المعتقلين الى احد المقربين من ابن الفرات " يسأله خطيبا الوزير في بابہ والتلطف في اطلاقه " . وقد استجاب ابن الفسرات للطلب واطلق المعتقل . ونرى رغم تنوع الاجراءات ان البصر لم يكن وارداً .

ونستطيع ان نتساءل حول مدى فعالية اللجوء الى تأديب الكتاب وما اذا كان يؤدي فعلاً الى اصلاحه . وقد يكون استرجاع الامسوال من فئة من الكتاب هدفاً من اهداف التأديب لكن الهدف الاهم هو التذكير بوجود السلطة وقدرتها على اخضاع من تريد والافصاح عمّن تشاء . وهكذا يظل شبحها مخيماً على الجهاز الادارى يلوح بالتدخل في اية لحظة لترد لنفسها الاعتبار .

وننتهي في هذا الفصل من الكلام عن طبقة الكتاب وامتيازاتها وما واقع المراتب والمرتبات لننتقل الى الكلام على صناعة الكتابة اى على الاصول والقواعد التى ينبغى ان يلتزم بها الكاتب فسسى امتيانه صناعته والمستوى الثقافى الذى كان مطلوباً منه .

الفصل الرابع

=====

صناعة الكتابة وتكويينها
الكاتب الاخلاقي والحقافسي

I - آلة الكتابة

اقتضى العمل في الدواوين - لا سيما في ديوان الرسائل - اتقان الكاتب صناعة الكتابة وتمرسه بها إذ أصبحت هذه أشبه بحرفة مسن الحرف، وأصبح الكتاب ينشدون بلوغ مستوى معين من الاتقان، لذلك فقد تفننوا في اخراج الكتب، وفي ابتداء شتى الخطوط، وكانوا يهتمون بأدق التفاصيل المتعلقة بعملية الكتابة.

وكانت "مهارة" الكاتب تتوقف على اصلاحه "ادوات الكتابة"، والسيطرة عليها سيطرة كاملة. أما آلة الكتابة فتألف أولاً من الصحائف، أو القراطيس، أو الطوامير^١ التي كانت تستخدم في السجلات والمكاتبات الرسمية. وقد استخدم الأمويون في دواوينهم أوراق البردي على الرسم الذي كان جارياً لدى البيزنطيين^٢، وكانت مصر هي مصدر هذا النوع من القراطيس. ويشير الجهشيارى إلى أن البردي كان مسن المواد الثمينة في صدر الإسلام، حتى أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر كتابه ".... بجمع الخط كراهية استعمال الطوامير فكانت كتبه إنما هي شبر أو نحوه"^٣. ولا نعرف بالضبط متى استعملت

^١ تشير لفظة القراطيس عادة إلى ورق البردي ثم أصبحت هذه اللفظة تطلق على كل أنواع الورق المخصص للكتابة دون تخصيص، كذلك الأمر بالنسبة للمهارة وهي نوع من الخزف التي كانت تستخدم للكتابة، فإن هذه اللفظة كسابقتها أصبح لها معنى عام يشمل جميع المواد الكتابية (انظر لسان العرب، قرطس) و أيضاً مقال حبيب زيات، صفح الكتابة وصناعة الورق في الإسلام، مجلة المشرق، ١٩٥٤، مجلد ٤٨: ٤٦٨).

^٢ انظر الصابى، رسوم: ١٢٦.

^٣ الجهشيارى، الوزراء: ٥٣ ويضيف الجهشيارى (المصدر السابق: ٥٣) "وروى عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم أن أباه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يسأله قراطيس فكتب إليه عمر: إن دقق القلم وأوجسز الكتاب فإنه أسرع للفهم".

العباسيون بالجلود في الكتابة الديوانية وفقا لما كان متبعها في الادارة الساسانية^١، والارجح ان يكون ذلك تم بعد خلافة المنصور، اذ يشير الجهشيارى الى العدد الهائل من الصحائف التي من نسوع ورق البردى في دواوين المنصور، حتى ان دعا الخليفة بصالسيح، صاحب المصلى، فقال له: "اني امرت باخراج حاصل القراطيس فسبي خزائننا، فوجدته شيئا كثيرا، فتولت بيعه وان لم تعط بكل طومسار الا دانقا^٢... قال صالح: ... فانصرفت من حضرته على هذا. فلمسا كان في الغد دعائي، فدخلت عليه، فقال لي: فكرت في كتبنا وانها قد جرت في القراطيس، وليس يؤمن حادث بمصر، فتنقطع عنا القراطيس بسببه، فنحتاج الى ان نكتب فيما لم نعوّده عمالنا. فدع القراطيس استظهارا على حالها. ولهذه العلة كانت الفرس تكتب في الجلود والرق وتقول: لا نكتب في شيء ليس في بلادنا"^٣.

وتشير هذه الرواية الى ان القراطيس هنا هي اوراق البردى، بدليل ان مصدرها مصر، والارجح ان تكون جزءا من ضريبة الخراج التسيبي كانت تجبى احيانا عينيا في العصرين الاموي والعباسي، ووجودها في الخزائن دليل على ذلك^٤. وتشير آخر الرواية الى الخوف مسن انقطاع القراطيس، والرغبة في المحافظة عليها، تحسبا لاي طارئ^٥. ليس اذن ما يدل على ان العباسيين في خلافة المنصور استخدموا الجلود في الكتابة، وقد يكون هذا الامر تم فيما بعد

^١ وكانت تستخدم الجلود خاصة في كتابة العرب وملوكهم في الجاهلية و صدر الاسلام، ويبدو ان مصاحف القرآن والتوراة كتبت في الجلود (انظر حبيب زيات، صفح الكتاب: ٢٧).

^٢ الدانق: سدس الدرهم، انظر لسان العرب (دثق).

^٣ الجهشيارى، الوزراء: ١٣٨.

^٤ انظر ما سبق ص: ٣.

^٥ ويبدو ان الخوف من انقطاع القراطيس ادى الى محاولة زراعة البردى خارج مصر. وقد ورد في تاريخ اليعقوبي (تحقيق مارتن شيودور هوشيا، ليدن، ١٨٨٣، ٢: ٥٧٧) ان المعتصم لما بنى سامراء اتى بفلاحين مسن مصر ليزرعوا البردى ويقوموا بصناعة القراطيس، فلم تأت قراطيسهم جيدة بل كانت خشنة جافة.

في العصر العباسي. ونعرف ان سجلات الدواوين كانت مكتوبة في الجلود في خلافة الامين^١. واذا كنا نجهل تاريخ دخول الجلود الدواوين على التحديد، فاننا نعرف ان الورق او الكاغد دخل الدواوين في خلافة الرشيد على يد الفضل بن يحيى البرمكي^٢. ويتميز الورق عن البردي او الجلود بتوكره وبضآلة كلفته^٣. لكن الأرجح الا يكون الكاغد قد حال كليا محل البردي والجلود. والدليل على انه لم يستخدم بصورة استثنائية في الدواوين ما ورد على لسان الصولي في قوله: ان "كتيب عبد الله بن طاهر (والي خراسان) الى اسحاق بن ابراهيم^٤ من خراسان ان يوجه اليه باقلام قصبية كتبا نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم. اما بعد، فاننا على طول الممارسة لهذه الكتابة... وجدنا الاقلام القصبية، اسرع في الكواغد وامر في الجلود، كما ان البحرية منها اسلس فسي القراطيس"^٥. صحيح ان هذه الرواية تعود الى مطلع القرن الثالث لكننا نستدل من خلالها ان الكتابة على الجلود كانت قائمة. وتشير رواية اخرى، مصدرها ابن المدبر (٢٧٩) الى استمرار الكتابة على

^١ انظر حبيب زيات، صفح الكتاب: ٤٦٣.

^٢ انظر المصدر السابق: ٤٨٧.

^٣ يقول الصابي (رسوم: ٢٦): "الذي جرت به العادة القديمة في الكتيب السلطانية ان تكون في القراطيس... فلما انقطع حملها وتمسك وجودها عهد الى الكاغد الشيطاني". ونشير الى ان الورق كان يوتى به في البداية من الصين وكانت اسعازه مرتفعة جدا، واستمر ذلك حتى سنة ١٣٣ تقريبا عندما قام الاسرى الصينيون بصناعته فسي خراسان، واشتهر بعد ذلك الكاغد الممرقندي حيث كان يصنع السورق (انظر حبيب زيات، صفح الكتاب: ٤٨٣ - ٤٨٤، ٤٨٦).

^٤ لم تأت المصادر على ذكر اسحاق بن ابراهيم.

^٥ الصولي، ادب الكتاب: ٦٨ - ٦٩.

اوراق البردى اذ يقول مخاطبا الكاتب: "تجنب الاقلام الفارسية مما استطعت فانها ما تصلح الا للكواغد والرقوق" دون البردى. ولا بسد ان تكون الصحائف على انواعها الثلاث مستخدمة وان بصورة متفاوتة في دواوين الادارة ، وذلك حتى اواخر القرن الثالث . وتشير رواية الصابي بوضوح الى ذلك في تحديده للميزانية المخصصة للمسحوق الكتابية وهي على ثلاثة انواع : الصحف، والقراطيس، والكاغسد ، ولا نعرف ايا منها كان اوسع انتشارا. اما سعر المواد الكتابية فاختلف باختلاف العصور: يشير الجهشيارى الى ان سعر صحيفة البردى الواحدة كان درهما في خلافة المنصور^٣ ، وقد وصل سعره في خلافة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) الى درهمين^٤ . ومردّ الصعوبة في تحديد سعر القراطيس والكاغد وغيرهما من المواد الى انه كان يضاف عادة الى ميزانيات مرتبات الكتاب في الديوان ، فيصعب تمييزها عن هذه الاخيرة . يقول الصابي في هذا الصدد متحدثا عن ميزانية مجلس السواد: " ٠٠٠ جارى ديوان السواد وكتابه ، مع شمن الكاغسد والقراطيس، نحو سبعة آلاف دينار في كل شهر" . للكاغد والقراطيس قيمة معينة تتجلى في كيفية استخدامها حسب اقيسة محددة تختلف باختلاف الموضوع . ولا شك ان الرغبة في الاقتصاد هي التي املت على الكتاب فكرة الالتزام بقياسات معينة بحيث لا تذهب الصمصم

^١ ابن المدبر، الرسالة العذراء : ٢٣ .

^٢ الصابي ، الوزراء : ٢٠ .

^٣ الجهشيارى، الوزراء : ١٣٨ .

^٤ حبيب زيات، صحف الكتابة : ٤٨١ .

^٥ الصابي ، الوزراء : ٣١ ويشير الجهشيارى (نصوص: ٣٤) الى ان الفضل بن سهل عرض على ريان كاتبه تولي الانفاق على بعض الجنود على ان يكون رزقه عشرة آلاف درهم ورزق كاتبه ثلاثة آلاف درهم وقراطيسه الف درهم . يشكل اذن المبلغ المخصص للقراطيس في هذه الرواية ثلث المبلغ المخصص للكاتب .

هدرا فيتم اقتصاصها وفقا للحاجة ويظل بيت المال قادرا على تغطية نفقاتها.

هذا فيما يتعلق بالمواد المخصصة للكتابة ، وقد رأينا انه من الصعب تحديد مدى انتشار كل نوع منها ، كما انه من الصعب تحديد الموضوعات التي تخصص فيها كل نوع ومعرفة طبيعة المواد الكتابية المستخدمة في مراسلة صاحب السلطان وتلك المستخدمة في تدوين السجلات الرسمية . مثلا لا نعرف ما اذا كانت السجلات تدون في الرقوق لصلابتها ومقاومتها الزمن وعوامل التلف ام ان التدوين في الكاغد كان مفضلا لثباته وكلفته وسهولة التصرف به ومحوه وتصحيح ما يكتب فيه ، فكل نوع مسن هذه الانواع يتمتع بنوع ايجابية وسلبية ، ولا شك ان تنوع انتشار المواد الكتابية على انواعها كان رهنا بتغير العهود والازمنة وrehن الاحداث التاريخية التي كانت تعرض الخلافة فينتشر نوع عيسى حساب نوع آخر^١ .

اما الآلات الاخرى التي كان الكاتب يستعملها في : الدواة . ويسمى الصولي تبلييل صوفة الدواة بالحبر : الاقة الدواة . واذا كانت مسن قطن قيل : كرسفة الدواة^٢ . وقد يكون للدواة محرك لتحريك المسداد ، كما قد ترفع الدواة عن الارض عند الكتابة بواسطة آلة توضع بهسا ، فتصبح في متناول الكاتب ، لا يحتاج الى الانحناء لكي يغط قلمسه بالمسداد .

ثم هنالك القلمسم ويتكون من قصبسة ، ومن سنيسن : مسن ايمن وسنن ايسر . . . فاذا كان الايسن اعلى من الايسر قيل : قلم محرف . . . فاذا كانا مستويين قيل : قلم مستوي

^١ ويروي الشعالي في كتاب الخاص الخاص (تحقيق حسن الامين ، بيسروت ، ١٩٦٦ : ٩٠) كيف خفت القراطيس في ايام المعتز والمستعين بسبب الفتنة " . . . فضاقت الصحف بكتّاب الدواوين " .

^٢ البطليوسي ، الاقتضاب : ٨٤ وانظر تعريف الصولي للكرسفة فسمي ادب الكتاب : ١٠٠ .

^٣ انظر الصولي ، ادب الكتاب : ١١١ - ١١٢ .

السنين" ^١. اما احداث السنين في القلم فهو القط. والمقط الآلة التي يقط بها القلم ^٢. وللقلم شق يسحب منه المداد، وقد يذئب القلم من اي يكون طويل الذئب ^٣. ولا بد للعناية بالقلم من استخدام السكين او المبراة "وقال بعض الكتاب: "السكين مسن الاقلام يسنها اذا كلت، ويلصقها ان نبت، ويطلقها اذا وقفت، ويلمها اذا تشعثت" ^٤.

هذه هي الآلات الاساسية المستخدمة في عملية الكتابة. ولا بد بعهد الفراغ من تعدادها، من التعويل على كيفية اخراج الكتب وتصديرها وتأريخها وختمها وغير ذلك من الامور التي كانت تتطلبها كتابة الرسائل.

II قانون الكتابة

لكتابة الرسائل احكام خاصة بها، ينبغي ان يلتزم بها الكاتب وتشكل ما يمكن ان نسميه "قانون الكتابة". ويسعى قانون الكتابة ليجعل هذه الاخيرة تخضع لمعيارية معينة. فقد تناول عدد كبير من المؤلفات والكتب هذا الموضوع، وبحثت في معايير تقييد الخط واللغة والدعاء والتصدير والاسلوب. ولقد وضع بعض الكتاب عددا من هذه الكتب مثل ابن المدبّر الكاتب صاحب الرسالة العذراء وابي بكر الصولي الكاتب وقد لا تبلغ هذه المؤلفات نتيجة واحدة بشأن موضوع واحد، قد يقع تناقض بين كتابين يعالجان الموضوع ذاته، لكننا رغم ذلك لا نستطيع ان نتكلم عن مدارس مستقلة تناولت "التشريع" لصناعة الكتابة. لذلك تلحق مضمين هذه المؤلفات دائما على صعيد من الاصعصعدة،

^١ البغدادي، كتاب الكتاب : p.131 .

^٢ انظر الصولي، ادب الكتاب : ١١٠ .

^٣ انظر البغدادي، كتاب الكتاب : p. 132 .

^٤ انظر الصولي، ادب الكتاب : ١١٥ .

وتمضي في ذلك سبيل ما اتبعه السلف. وغالبا ما نقع على مؤلف يتبنى موقفا محايدا من موضوع اختلفت حوله الآراء فيذكر مثلا الصيغتين المتناقضتين اللتين اتبعهما السلف دون ان يعمل الخيار فيهما.

لقد عمل الكتاب الديوانيون وغيرهم من الكتاب المؤلفين على استنباط "احكام" لكتابة الرسالة الديوانية، فأصبح لهذه الرسالة "احكامها"، كما للخراج احكامه التي قلما تتغير والتي قلما نقسح فيها على بدع مستحدثة. وكاتب الرسائل، - مثل كاتب الخراج - لا بد له من تحصيل معرفة معينة في حقل اختصاصه تتعلق بكيفية كتابة الكتب وكيفية اخراجها. وسوف نحاول استخراج هذه القوانين عامة بالاعتماد على الكتب التي "قننت احكامها" ونرى انها تناولت ادق التفاصيل المتعلقة بالكاتب وبالكتاب.

اول ما ينبغي على الكاتب ان يفعله هو استصلاح آتته التي هي السمة الكتابة. وقبل الاستصلاح يأتي اختيار الآلة التي تخضع لأوصاف محددة، يقول الصولي: "فحكّم الدواة مثلا، ان تكون متوسطة في قدرها، نصفها في قدها، لا باللطيفة فتقصر اقلامها ولا بالكبيرة فيثقل حملها". لان الكاتب ولو كان وزيرا له مائة غلام موسومون بحمل دواته، مضطرب في بعض الاوقات الى حملها ووضعها ورفعها بين يدي رئيسه حيث لا يحسن ان يتولى ذلك منها غيره^١. ولا بد ايضا من العناية باللاقة السدواة، اي بوضع الليقة فيها وشرط ذلك، على ما يقول ابن المدبر مخاطبنا الكاتب: ان تكون هذه "نقية من الشعر، والوذح، لثلا يخرج على حشره قلمك ما يفسد كتابتك، ويشغلك بتنقيته"^٢. والليقة بحاجة الى مسن يتعهد بها، يقول الصولي: "بمعنى بتعهد الليقة والكرف بالمسح والكافور. وان غيرت في كل يومين او ثلاثة كان آمن لتغيرها. وربما

^١ الصولي، ادب الكتاب : ٩٦.

^٢ ابن المدبر، الرسالة العذراء : ٢٢ - ٢٣.

اغفل ذلك، فاستكرهت الراححة، وظهر في نتنها ما يخجل له. وتهيئاً ذلك على بعض الكتاب حتى ظن رئيسه انه أبخر، فشكا ذلك الى نديم له، فقال: ما عرفت ذلك منه ولكن اغفل ذلك من امر دواته، وتفقدتها. فقال الرئيس: عذره في بخره ابسط عندي منه من نتن دواته لانه فسي ذلك مضطر، وهو في ذاك مختار^١. اما القلم فيرى ابن المدبر انه من الافضل ان يكون بحرياً، اي ان يسسؤخذ من القصب الذي ينبت قرب الماء. والاقلام على انواع، واكثرها انتشاراً حسب ابن المدبر هو القلم المحرف الكوفي، والتحريف يكون عادة الى اليمين. يستخدم هذا القلم في الكتابة في السجلات، اي في الدواوين بالاضافة الى استخدامه في مراسلة الملوك^٣.

واما القلم فعلى انواع، وقد يكون محرفاً، او مستويًا (اي يستسوي فيه السنان)، كما انه قد يكون مدوراً اي "ليس فيه تحريف البتة" بحسب ما شرحه ابو حيان التوحيدى^٤، وينبغي ان تكون برايتهسه حادة: "... فان محل القلم من الكاتب، محل الرمح من الفارس"، لذلك ينصح ابن المدبر الكاتب ان يستخدم "سكيناً طواوسياً" ويضيف قائلاً - مخاطباً الكاتب - : "تفقد الانبوبة قبل بريكتها، لئلا تجعلهسا منكوسة... ولا تطل شق القلم، فان القلم لا يمج المداد من شقسه الا بمقدار ما احتملت شبتاه...". ويقول الصولي بهذا الصدد لغلام كان يكتب بين يديه: "ليكن قلمك صلباً بين الدقة والغليظ،

^١ الصولي، ادب الكتاب : ١٠١.

^٢ انظر ابن المدبر، الرسالة العذراء : ٢٥.

^٣ انظر المصدر السابق : ٢٤.

^٤ التوحيدى، الرسالة في علم الكتابة، ضمن ثلاث رسائل للتوحيدى (تحقيق المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥١) ٣١.

^٥ ابن المدبر، الرسالة العذراء : ٢٤.

ولا تبره عند عقدة ، ولا تجعلن في انبوبة انبوبة ، ولا تكتبن بقلم ملتو ولا ذى شق غير مستو. واختر من الاقلام ما يضرب الى السمرة^١ ، وأحد سكينك ، ولا تستعملها لغير قلمك. وتعهده بالاصلاح يصلح. وليكن قطك صلبا ، ليمضي الخط مستويا لا مستطيلا. وابر قلمك بين التحريف والاستواء. واذا كتبت الدقيق فأمل قلمك الى اقامة الحروف لاشباع الخط ، واذا جللت^٢ فألى التحريف^٣ .

هذا بالنسبة للقلم. اما المداد ، فالحصول عليه ليس سهلا ، ويشرح ابن المدبر كيفية الحصول عليه يقول: " خذ من المداد الفارسي خمسة دراهم ، ومن الصمغ العربي درهما ، وعصا مسدوقا نصف درهم ، ورماد القرطاس المحرق درهمين ، ثم تسحقها وتغربلها وتجمعها ببياض البيض ، ثم بندقها واجعلها في الظل ، فاذا احتجت اليها ، اخسدت منها مقدار حاجتك فكسرتة ، وحشوت به دواتك ، وان نقتته بماء السلق حتى ينحل ، ويذوب ، ويذهر ثم امددت من مائة دواتك كان اجسود وانقى^٤ .

اما القراطيس فاستخدامها وقصها يخضع لاصول معينة تعرض لها الصولي في كتابه "أدب الكتاب" بالتفصيل. ويتوقف حجم القراطيس على مرتبة المخاطب والمخاطب، يقول الصولي: " يكتب الامام فسي الثلثين من الطومار الى ملوك الملك والى عماله ، ويكتب عماله اليه في مثل ذلك ، ويكاتبه وزيره في النصف في امور العامة الديوانية فاما الخاص الذي يكتبه بخطه او يكتب بين يديه

^١ وقد يكون اختيار الاقلام الضارية الى السمرة هو بسبب نضجها وصلابتها نسبة للاقلام اللينة التي قد تنقص بسهولة .

^٢ جللت الخط اي عظمته .

^٣ الصولي ، أدب الكتاب : ٥٤ .

^٤ ابن المدبر ، الرسالة العذراء : ٢٣ .

باملأته ففي خمسين ويكاتبونه في مثل ذلك في الخاص، والعسام، الآ
من كان منهم في ادنى الطبقات، فانه لا يكاتب الا في النصف فسي
الحالتين جميعا، وتكاتب الاكفاء في الاثلاث والارباع... والاسداس
للتوقيعات^١. ونستطيع ان نعرف القياسات على الوجه الصحيح
اذا عرفنا قياس الطومار. فالطومار هو الصحيفة الكاملة يبلسغ
طولها حوالي مترين ونصف المتر وعرضها الشبر^٢. بامكاننا علسي
اساس ذلك ان نحدد قياس كتب الامام الى الملوك والعمال على انها
بلغت مترا ونصف المتر تقريبا. اما التوقيعات فلم يتعد طولها
ربع المتر. ولم يكن الطومار يستخدم كاملا الا استثناء. ورغم
الاقتصاد في الطوامير فان استخدام ظهورها كان مستكرها. يقسول
الصولي في هذا الصدد: "وقد كره الناس الظهور، وأمر بتسبيرك
استعمالها في النسخ وانشائها، فكيف في المكاتبية^٣ وقيل: هسي
تفسد النيات، وتذيع الاسرار بما في باطنها، وتشعث الخطوط، وتغرض
من سمو الدولة"^٤. لقد تعددت الاسباب وراء ترك استعمال الظهور
وهذه الاسباب جمالية اجتماعية وسياسية. لكن تنبغي الاشارة السسي
ان استخدام الظهور كان شاعرا في التوقيعات في الرقع التي كانت
ترفع الى ديوان المظالم، او الى الخليفة^٥. وبما ان استخدام
الظهور لم يكن مستحبا فان محو القراطيس لاعادة استخدامها فسي
الكتابة كان شاعرا، يقول ابن المدبر: "ويتم ذلك بمحو ما كتب
على بعضها". واما محوها (اي القراطيس) فعلى قدر لطف الكاتب
وتأنيه، غير انه ينبغي له الا يلقط السواد في القرطاس الا بمشعل

^١ الصولي، أدب الكتاب : ١٤٨.

^٢ انظر حبيب زيات، صف الكتابة : ٤٧٤- وتحديد الطومار يكون علسي
انه جزء من القرطاس الذي جرى الصاقه ومماينته ليصبح طوله حوالي
خمسة عشر مترا "وهو اقل ما كان يطلب ويباع" (المصدر السابق: ٤٧٤).

^٣ الصولي، أدب الكتاب : ١٤٩.

^٤ الجهشيارى، نصوص : ٦٨.

الشمع المسخن واللبنان الممضوغ وما اشبههما، ثم يكون لقطه رويدا رويدا كلما لقط جانبا حوله الى الجانب الآخر^١. وكان المحو يتم احيانا بالغسل، والجلود هي المواد الوحيدة التي تتحمل الغسل^٢.

وتأتي بعد مرحلة تحضير الصحائف مرحلة اخراج الكتاب. ويبدأ الكتاب بعبارة " بسم الله الرحمن الرحيم" يليها اسم المرسل واسم المرسل اليه اي: " من فلان الى فلان"^٣، ثم يلي ذلك دعاء للمخاطب يكتب تحت عبارة " بسم الله الرحمن الرحيم"، قال الصولي: ويستقبون ان يخرج الكلام عن بسم الله الرحمن الرحيم فاضلا بقليل ولا يكتبونها وسطا^٤. ويلى الدعاء عبارة " اما بعد"، ثم يبدأ الكاتب بانشاء الكتاب وينتهي الكتاب بالتأريخ، ويذكر الشهر واليوم والسنة. ولا يقع التأريخ الا في عجز الكتب^٥. يكتب الكاتب الكتاب، ثم يعرضه، اي يمرره على طرفه بعد فراغه منه لئلا يقع فيه خطأ^٦.

^١ ابن المدير، الرسالة العذراء: ٢٨.

^٢ انظر حبيب زيات، صدف الكتابة: ٤٦٣. وانظر ايضا رسالة التوحيدى في احراق كتبه في معجم الادباء ٥: ٣٨٦ - ٣٨٧.

^٣ بدأ هذا التقليد في بدء الرسالة بعبارة بسم الله الرحمن الرحيم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (انظر الجهشياري، الوزراء: ١٤).

^٤ الصولي، ادب الكتاب: ١٤٤ ويرى البغدادي (كتاب الكتاب P.134) ان العنوان هو الخاتم وليس ما يرد في اول الرسالة.

^٥ انظر الصولي، ادب الكتاب: ٣٦.

^٦ انظر المصدر السابق: ١٨٤.

^٧ انظر المصدر السابق: ١٢٧.

ويحرره بعد قراءته ، "وتحرير الكتاب خلوصه كأنه خلص من النسخ التي حرر عليها، وصفا عن كدرها^١ ، فتوضع نسخ منه في الديوان، وتنفسد النسخة المحررة، ولا يتم انفاذها قبل تزيينها أي رش التراب على المداد كي يجف^٢ وطبها ثم سحابتها. والسحابة هي ما شد به الكتاب بقشرة الصديفة أو القرطاس^٣. ويلى السحابة تطيين الكتاب، أي ختمه^٤. هذه هي مراحل اخراج الكتاب عامة.

ولا بد لنا من التطرق الى مضمون الكتاب، وكيفية الدعاء والتصدير وما يتعلق بذلك. فالتصدير أو العنوان هو تحديد للطرفيين المتكاتبين، والتصدير شكل من العنونة يبدأ به باسم كاتب الرسالة قبل المخاطب، يقول الصولي: " ولا يكاتب بالتصدير الامام، ولا ولسي عهده، ولا وزيره، فاما الامام فيكتب بالتصدير الى كل من خاطبه مسن عامل حرب وخراج وقضاء، في الكتب المدونة المنعوتة بالعهود والعقود وجباية الفيء والحمول والنفقات والاقطاعات والامارات والفتوح ومسا جرى هذا المجرى ويبدأ بنفسه"^٥. اما الدعاء فغالبا ما يرافسق التصدير في الكتابة، ويأتي بالاضافة الى ذلك في آخر الكتب اذا كان المخاطب هو الامام وولي عهده، ووزيره، وللثلاثة الدعاء نفسه تقريبا،

^١ انظر المصدر السابق: ١٥٦.

^٢ انظر ابن درستويه، كتاب الكتاب (تحقيق ابراهيم السامرائي وعبد الحسين الفتلي، الطبعة الاولى، الكويت، ١٩٧٧) ١٥٦.

^٣ انظر البغدادي، كتاب الكتاب . D. 134 .

^٤ انظر المصدر السابق: D. 135 .

^٥ الصولي، ادب الكتاب: ٤١.

الا انهم قالوا : سلام على امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، وكذلك لولي عهده في التصدير والدعاء الاخير، ولم يقولوا للوزير "وبركاته" ليفرقوا بين المحلّين، وقد كتب بعضهم في عجز الكتاب الى الوزير "وبركاته" ، اما في التصدير فلا، وذلك للفرق بين المجلس^١ . ويقبول البطليوسي فيما يتعلق بالادعية ان مراتب المخاطبين التي ينبغي ان يراعيها الكتاب ثلاث: "والمرتبة العليا تنقسم الى ثلاثة اقسام: فاعلاها مرتبة الخليفة ، ووزيره ، ومن كان نظير الوزير عنده ، ثم مرتبة الامراء ، ومن جرى مجراهم ممن هو دون الوزراء ، ثم مرتبة العمال واصحاب الدواوين... والواجب ان تجعل للخليفة مرتبة ارفع من كل مرتبة والا يشاركه فيها وزير ولا غيره"^٢ . ويعدد البطليوسي اصحاب المرتبة الثانية على انهم الاصدقاء والاخلاء^٣ . واما المنتهون الى المرتبة الثالثة فينقسمون في ثلاثة اقسام: "اعلاها مرتبة مسن قرب محله من محل الكاتب، والثانية مرتبة من له رئاسة عليّية والثالثة مرتبة الحاشية... من الاولياء والخدم"^٤ . اما الصولي في رأيه يخالف رأي البطليوسي ، اذ يرى ان الوزير هو نظير الامير ، وليس اعلى منه مرتبة ، يقول: " يكاتب الوزير الناس على مقاديرهم ورتبهم من السيف والقلم ومنازلهم ، فدعاؤه لامسراء الاقاليم الكثيرة المجموع لهم حربها وخراجها وسائر اعمالها كدعاء النظير اذ نقص قليلا في صدور كتبه ويختصها بمثل ذلك... فاما دعاؤهم له فاذا تاروا ان يكون بغير التصدير وبالوزارة"^٥ .

^١ الصولي ، أدب الكتاب : ٤٠ .

^٢ البطليوسي ، الاقتضاب : ٦٩ .

^٣ انظر المصدر السابق : ٦٩ .

^٤ البطليوسي ، المصدر السابق : ٦٩ .

^٥ الصولي ، أدب الكتاب : ١٥٠ .

وتدفع جملة الدعاء لاصول معينة: يخاطب ذوو الشأن في المخاطبات الرسمية بصيغة: "اطال الله بقاءك"، وهي صيغة مفضلة على صيغة "ابقاك الله طويلا" لأنها حسب قول ابن المدبر أرجح وزنا، وانبيه قدرا، في مخاطبة الملوك^١. ويحذر الصولي الكاتب من عسسد الالتزام باصول الادعية، ويحذره على الالتزام بها دون زيادة او نقصان فالزيادة غير مستحبة لأنها قد تعتبر تملقا. وتحط من قدر الكاتب، كما ان النقصان قد يجر عواقب وخيمة^٢. اما الدعاء الاخير فيقع على صيغة "اكرمك الله وأبقاك" وهي تعتبر افضل مسن صيغة " جعلت فداك"، يقول ابن المدبر ان الكتاب جعلوا "اكرمك الله وابقاك" احسن منزلة في كتب الظرفاء والادباء من "جعلت فداك"، على اشتراك معناه، واحتماله ان يكون فداء من الخير كما يكون فداء له من الشر... على ان كتاب العسكر وعوامهم قسسد اولعوا بهذه اللفظة وجعلوها هجيراهم في مخاطبة الشريسة والوضيع والصغير والكبير^٣.

يبقى الكلام عن تأريخ الكتب والرسوم المتبعة في ذلك. يقسسع التأريخ عادة في عجز الكتب، ويضع لاصول معينة، يقول ابسن درستويه: "واما الشهور فانها مذكرة كلها الا جمادى وليس شسيء يضاف اليه شهر الا ثلاثة، الربيعان، ورمضان، يقال: شهسسر

^١ ابن المدبر، الرسالة العذراء: ١٢ وكذلك لم يجيزوا ان يكتبوا بمثل "ابقاك الله وامتع بك" الا الى الحرمة والاهل والتابعسسع والمنقطع اليك (المصدر السابق: ١٢).

^٢ الصولي، ادب الكتاب: ١٦١.

^٣ ابن المدبر، الرسالة العذراء: ١٢ ويقول الصولي (ادب الكتاب: ١٥٠): "واجتنبوا ان يقولوا للوزير في الدعاء جعلني الله فداك". وانظر ايضا حول فوضى المخاطبات في بداية القرن الهجرى الخامس الصابى، الوزراء: ١٥٢.

رمضان، وشهر ربيع الاول، وشهر ربيع الآخر، وشهر ربيع^١ . اما صيغة التأريخ فتكون باستخدام لفظة "ليلة" بدل لفظة شهر لانها تدل على ان الشهر قد انقضى^٢ . وقد يؤرخ الكاتب بمجهول الايام والليالي، فاذا كتب لثلاث ولم تذكر الايام والليالي ... فهو محمول على معنى المعنى، وان كان العدد مذكرا فهو على الايام خاصة والليالي داخلية معها، وان كان مؤنثا فهو على الليالي خاصة والايام داخلية معها^٣ . ويختلف التأريخ باختلاف المدة المتبقية من الشهر فيقال مثلا: لسبع ليال خلون من المحرم^٤ ، فان كان الماضي (من الشهر) اقل من نصف الشهر قلت: "لكذا ليلة مضت (او خلت) من شهر كذا، وان كان الباقي (من الشهر) اقل من نصف الشهر قلت: لكذا ايضا بقيت"^٥ . يقسم الشهر اذن الى قسمين يستخدم بموجبهما فعل خلا، او مضى، وهما بالمعنى نفسه او فعل بقي. ويستخدم في حال انقضاء خمس عشرة ليلة عيسارة: لخمس عشرة ليلة خلت او للنصف من شهر كذا ولا يقال بقيت الا فسي الليلة السادسة عشرة^٦ . وهذا الرسم في التأريخ خاص بالكتّاب "وقد كره اهل الورع ذلك لانهم لا يدرون كم بقي لنقصان الشهر وتمامه فيكتبون لاحدى وعشرين ليلة خلت والكتّاب على غير هذا"^٧ .

^١ ابن درستويه ، كتاب الكتاب: ١٤٩ والصولي ، أدب الكتاب: ١٨٠ .

^٢ انظر الصولي ، ادب الكتاب: ١٨١ وابن درستويه ، كتاب الكتاب: ١٤٣ - ١٤٤ .

^٣ ابن درستويه ، كتاب الكتاب : ١٤٥ .

^٤ المصدر السابق : ١٤٥ .

^٥ ابن المدير ، الرسالة العذراء : ٢٦ .

^٦ الصولي ، أدب الكتاب : ١٨٣ .

^٧ المصدر السابق : ١٨٣ .

ويفسّر ابن المدبر ذلك "بأن تاريخ الكتاب ليس من الاحكام في شيء" وما على الكاتب ان يكتب الا بما ظهر وتبين لا بما يظن^١. الا ان اكثر ما تضاربت حوله الآراء في قواعد الكتابة مسألة النقط والاعجاسام والشكل في الكتب. يقول ابن المدبر: "اياك والنقط والشكل فسي كتابك الا ان تمر بالحرف المعطل الذي يعجز عن استخراجك، فلأن يشكل علي الحرف أحب الي من ان يعاب بالاعجام. وقال المأمون: "اياكم والشونيز في كتبكم، يعني النقط والاعجام"^٢. ونستخلص من رأى ابن المدبر انه لا يلجأ الى النقط والاعجام لاسباب تتعلق بعلاقة الكاتب بالمخاطب، اذ ان اللجوء الى النقط والاعجام تحقيق للمكتوب لسه من شأنه الحد من قدره ومن معرفته. ويرى الصولي مراعاة المراتب في تبني الشكل او تركه، فاذا كان المخاطب اجل من صاحب الكتابة ترك الشكل حتى في الالفاظ التي يمكن ان تلتبس على القارئ، اما اذا كان المخاطب اجل من المخاطب فان احتمال اللجوء الى الشكل والاعجام يصبح واردا لانه يجرى مجرى الزيادة في الايضاح له، ونفسي الارتياح عنه، وايجاب الحجّة عليه. لكن الأحسن ألا يستعان بالشكل والاعجام عامة وذلك لانهما معنيان باحترام منزلة المخاطب وليس بطلب الوضوح في الرسالة. اما رأى ابن درستويه فمختلف، اذ يرى ضرورة استخدام النقط لا سيما بالنسبة للحروف التي "في حال الاتصال" كالفاء والقاف والنون والياء^٣، ويستغنى عن نقط هذه الحروف فسي حال انفرادها، "فمن نقط هذه في حال انفرادها وانقطاعها ممسما بعدها فقد تكلف موضوعا عنه"^٤. اما بالنسبة للشكل فيقول

^١ ابن المدبر، الرسالة العذراء: ٢٧ ويدل ما ورد على لسان الصولي وابن المدبر على ان قلنون الكتابة مستقل الى حد ما عن احكام الدين.

^٢ المصدر السابق: ٢٥.

^٣ الصولي، أدب الكتاب: ٥٧.

^٤ ابن درستويه، كتاب الكتاب: ٩٦.

ابن دستوريه : " ومن شأن كتاب الدواوين التخفيف واغفال الشكل من كل ما وضع ولم يلتبس كما كان ذلك شأنهم في النقط ، فاذا ألبست الكلمة او الحرف فتقيدها لازم على جميع المذاهب " ^١ .

ومن الموضوعات التي تعرض لها قانون الكتابة الخط ، ويتطلب جماله سلامة اليد ، اذ ينبغي ان يحافظ الكاتب او الخطاط على مرونة يده " ... فلا يباشر شيئا ... من رفع او وضع خاصة اذا كان ذلك الشيء ثقيلًا ... " ^٢ ، كما ينبغي معالجة تشنج اليد بسالنوم ، والعدول عن الكتابة في تلك الاوقات . ويتم بعد امتحان اليد اصلاح القلم ويتوقف ضغط اليد على القلم على الخط الذي يكتبه الكاتب به وعلى تصوير الحرف ، يقول ابن دستوريه : " اعلم ان من الحروف والمسندات والتعريفات ما يكتب بوجه القلم ، ومنها ما يكتب بحرفه ، ومنها ما يكتب بعرضه ، ومنها ما يكتب بسننه . وقد رسم الكتاب في كل ذلك رسما يعمل عليه " ^٣ ، ويقول التوحيدى في هذا الصدد : " يا هذا اذا حرفت قلمك فلا تشقل عليه يدك ، واذا قومته فلا تخففها عنه " ^٤ .

^١ المصدر السابق : ١٠١ .

^٢ يقول التوحيدى (الرسالة في علم الكتابة : ٣٤) : " وقال احد الكتاب : ولقد رفعت يدي بسوطي الى الدابة مرارا في بعض الايام ومنعتها به فتغير خطي مدة " .

^٣ انظر المصدر السابق : ٣٥ .

^٤ ابن دستوريه ، كتاب الكتاب : ١١٩ .

^٥ التوحيدى ، الرسالة في علم الكتابة : ٣٣ .

اما الخطوط فكثيرة متنوعة ، يميز ابن درستويه بين الثقيل والخفيف^١ .
واشهر الخطوط هو الخط الرثاسي الذي كانت تتم فيه المراسلة بين
السلطان ورعاياه او بينه وبين الملوك وشرطه في جمع الحروف وتباعد
السطور^٢ . وكان يستخدم لكتابة المؤامرات خط يسمى بقلم المؤامرات
كان يكتب به الوزراء للامام اما خط السجلات فهو بالنسبة للبطليوسي
خط الثلثين المنحدر عن الجليل^٣ ، وهو الخط الذي يكتب به
الوزراء ، وهو مختلف كلياً عن خط المحررين .

ويتبني في تحرير الكتب الالتزام بالروية والصبر لكي يحسن الخط ،
وقد قال علي ابن زيد النصراني الكاتب : " اعلمك الخط في كالمسنة
واحدة لا تكتب حرفاً حتى تستفرغ في مجهودك في كتابة الحرف المبدؤ
به ، وتجعل في نفسك انك لا تكتب غيره حتى لا تعجل عنه الى غيره " .^٤

ويميز ابن درستويه اصول الخط المتبعة بالنسبة لبعض الحروف دون
غيرها وهذه الاصول هي اول المَطَّ (او المد) ، وتصح في الكلمات التي
على أربعة احرف " " واقبح المد ما كان في كلمة على اقل مسن

^١ انظر ابن درستويه ، كتاب الكتاب : ١٢٠ .

^٢ يقول البطليوسي (الاقتضاب : ٨٨) : " اخذ ابراهيم بن السنجرى الخط
الجليل عن اسحاق بن حماد واخترع منه خطاً اخذ منه فسماه الثلثين . . .
ثم اخترع قلماً اخذ من الثلثين وسماه الثلث . . . وكان يوسف بن
المخيس اذا اخذ عن اسحاق الخط الجليل اخترع منه قلماً آخر اهل من
الجليل تاماً مفرط التمام مفتاحاً فاعجب ذا الرياستين الفضل بن سهل
وامر الكتاب الا يحروا الكتب الا به وسماه الرثاسي " . ويقسم
الجهشياري (الوزراء : ٣٠٦) : " كان ذو الرياستين يقول لكتابه : قاربوا بين
الحروف لئلا يسافر البصر سقراً بعيداً في حروف قليلة " .

^٣ انظر البطليوسي ، المصدر السابق : ٨٨ .

^٤ ابن درستويه ، كتاب الكتاب : ١٢١ .

أربعة أحرف . ولا يجوز ذلك الا عند الضرورة لتتمة سطر او نحو ذلك ...
ومن بنات الثلاثة ما يجوز مده ، ومن ذوات الاربعة ما يقبح مسده ...^١
وبالإضافة الى المد هنالك التعريق ، ويخص حرف الياء .^٢ واما الادغام
اي ادغام حرفين سوية : " فمما يحسن ادغام السين في حسن ، سجع ، والهاء
في مثل هما ، واليهما وبينهم ، ونحو ذلك " .^٣ ويضيف ابو حيان التوحيدي
الى هذه الاصول نوعا آخر هو الخط المحلى بالتجويف ويكمن في اقامة
الحاء ، والخاء ، والجيم ، وما اشبهها على تبيض اوساطها .

وتراعي بالنسبة للكتاب اجمالا حسب قول ابن درستويه " تسوية جنبتي
الكتاب ، وحواشيه ، وتوسيع فصوله ، والمط في أول كل فصل فيه ، وفسى
آخره مطة ... " ، ومما تعدل به السطور ان تجعل اعلى الفاتها ، ولاماتها ،
وكافاتها ، المتنصبة ، وطاءاتها متآزية على مقدار واحد غير متفاضلة
الرؤوس وتجعل اسفل الحروف المعرقة كالصادات والسينات والنونيات
والياءات بمقدار واحد ...^٤ وينتهي اخراج الكتاب ، بعد الفراغ من
تحريره ، بسحايته ، وينبغي الا تكون غليظة الا في العهود ، والسجلات ،
كذلك لا ينبغي ان تعظم الطينة التي فيها يكون الختم .

^١ ابن درستويه ، كتاب الكتاب : ١٢١ .

^٢ انظر المصدر السابق : ١٢٢ - ١٢٣ .

^٣ المصدر السابق : ١٢٣ .

^٤ التوحيدي ، الرسالة في علم الكتابة : ٣٢ .

^٥ ابن درستويه ، كتاب الكتاب : ١٢٦ .

^٦ انظر ابن المدبر ، الرسالة العذراء : ٢٧ .

ومن اللافت للانتباه ان كتب الكُتّاب تشير الى الحيلة التي يفيد منها هؤلاء الكُتّاب فيتمكنون من ان يفلتوا من الرقابة ، يقول الصولي : "كان مشايخ الكُتّاب وزهاد العمال يختارون ان يكون الذي يرفعونه عسسن جماعاتهم الى دواوين السلطان بخط غير جيّد ومداد غير حالك ، في صحرى مظلمة ليثقل على من يرد عليه من المتصفحين فيعدل عنها الى غيرها^١ . هذه الحيلة هي الطمس . لكن حيلة الكاتب قد تأخذ شكلا آخر مناقضاً للأول وان لتفي بالغرض ذاته وهذا الشكل هو تحسين الخط وتنميقه بحيث يدعو الناظر اليه الى ان يقرأه وان اشتمل على لفظ مرذول ومعنى مجهول فيكون الطمس في اخفاء المعنى على ان يجعل الخط وفي كلتا الحالتين يتوخى الكاتب الابهام في المعنى . اما الحيلة الاخرى فتكون بتغيير الخط في الكتابة لان التحقيق الذي كان يجري بشسآن الوثائق لمعرفة الصحيح من المزور كان اول ما يدقق في الخط ليتبين صاحب الرقعة فيكون الخط هو الذي يفضح الكاتب ، وهذا ما يسمى بتسبب الخط ، يقول الصولي : " وقد عجبت من بعض الكُتّاب قال : ادعى رجل مسن الحاق الانساب ، بالأثار والاشباه . فقال له قائل : اعجب والله من هذا ما يبلغنا من تمييزهم الخطوط والحاق كل خط بصاحبه ، أو ما تسرى العازم على خيانة ، او دفع حق ، يغير خطه حتى اذا جحد لم ينسب اليه " . ولقد كان من شأن شيوع التزوير بتغيير الخط ان نشأ علسم الحاق الخطوط باصحابها ويتم بان يحضر الرجل المتهم ، ويطلب منسه الكتابة امام الوزير للتمييز بين خط الرقعة وخطه ، يقول الصولسي واصفا حادثة كهذه : " املى الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب علسى الرجل (المتهم) كتابا طويلا ردد فيه مثل الحروف التي في رقعتسه فتبين لسليمان ان الخط خطه ، وانه صنع في كتاب الرقعة ، ولم يكتسب

^١ الصولي ، أدب الكُتّاب : ٤٢ .

^٢ المصدر السابق : ٤٢ .

^٣ المصدر السابق : ٤٣ .

على طبعه... فحكّم عليه سليمان فاعترف الرجل بالخط... فقبل لسليمان كيف وقفت على ذلك فقال: انه يصنع في الرقعة كلها الآ في احسب قذفتها سجيته"^١. وتميز هذه الرواية بين خط الطبع وخط الصنعة وهذا الأخير ابعدهما ما يكون عن الطبع. والخط - صنعة - اشبه ما يكون فسي عصرنا بالكتابة على الآلة الكاتبة، لان الغرض منه هو تجريد الكتابة عن شخصية الكاتب. وتتضمن محاولات الافلات من التحقيق، وتسريب المعلومات السرية للغاية، استحداث "شفرة" معينة خاصة بالمتكاتبين، قد تتخذ هذه شكل الاستعارة وقد اعطى الجهشيارى مثلاً على ذلك تنصيب يوسف بن عمر والي اليمن على العراق وخلق خالد بن عبد الله القسري وذلك بأمر الخليفة هشام بن عبد الملك فقد بعث كاتب الى احد عمسال خالد في العراق كتابا يقول فيه: "ان القوم قد بدا لهم في البعثة اليك بالشوب اليماني"^٢. وتم بهذه الوسيلة ابلاغ خالد مع ضمان سلامة الكاتب.

ويشير الصولي الى اسلوب في المكاتبية يكون في استخدام ابجديسمة "رمزية" معينة - اذا صح التعبير - جعلها الصولي على منازل القمصر التي تسبق استتاره واستهلاله. اول هذه المنازل: "الشرطين" ومسي معادلة للهمزة، ثم البطين المعادل للباء، والثريا للجيم، وما الى ذلك^٣. غير ان ابن المدبر يرى ان هناك وسيلة افضل لتضمين الاسرار يقول: "الطف من ذلك (اي من استخدام الابجدية) ان تأخذ لبنا حليبا فتكتب به في قرطاس، فيذر المكتوب اليه عليه رمادا من رماساد القرطاس فانه يظهر... وان احببته لا يقرأ بالنهار ويقرأ بالليل فاكتمه بصرارة السلفاة"^٤.

^١ المصدر السابق: ٤٤.

^٢ الجهشيارى، الوزراء: ٦٣.

^٣ انظر الصولي، أدب الكتاب: ١٨٦ - ١٨٧.

^٤ ابن المدبر، الرسالة العذراء: ٢٨ - ٢٩.

يبقى هنالك موضوع^١ يتطرق اليه بعض المؤلفين وذلك تجنباً لمبادرة تستكره للكاتب، يمتنع ابن المدبر مثلاً عن ذكر كيفية فض الكتب ونزع الطين عنها على ان يتم تطيينها بعد ذلك بحيث لا يشعر احد انه قد تم الاطلاع عليها. يقول ابن المدبر: " واما قراءة الكتب المختومة والتلطف لفض خواتمها، فما لا نذكره خوفاً من سفيه"^١.

هذه هي الخطوط العامة (والقواعد) الخاصة بصناعة الكتابة وقد اوردناها بشكل موجز. تكمن سمة هذه القواعد في انها تنقل من كاتب لآخر وانها تحفظ وقد وضعت لهذا الغرض بالذات. تم تحديد هذه القوانين احياناً بصورة سلبية اي على سبيل ذكر مساساً لا يستحسن ذكره او كتابته في الكتاب كاجتلاب الشعر مثلاً اذا كان لغير الكاتب^٢ وقد تم تحديد الكتابة احياناً بذكر ما تختلف فيه عن الشعر^٣.

ولا بد بعد الفراغ من اخراج الكتاب اجمالاً من التطرق السلي مضمون الكتاب ويتضمن البحث في صفات للكتابة تسهم في ابتداء نوع ادبي خاص بالكتاب. ان الكاتب يرغب في السيطرة على الوسائل اللغوية التي تمكنه من التصرف بها والابداع فسيبي ميادينها، وقد حاول الكتاب الالتزام بمعيارية لغوية معينة

^١ المصدر السابق: ٢٨.

^٢ يقول ابن المدبر (الرسالة العذراء: ٨٧-٨): " ان اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء والجملة الرؤساء عيب واستهجان للكتب الا ان يكسون الكاتب هو القارض للشعر والصانع له".

^٣ لا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر " (المصدر السابق: ١٩).

^٤ يقول ابن المدبر (المصدر السابق: ٣٤): " فان منيت بحب الكتابة وصناعتها والبلاغة وتأليفها وجاش صدرك بشعر معقود، اودعتك نفسك الى تأليف الكلام المنشور وتهيباً لك نظم هو عندك معتدل، فسلا تدعون الثقة بنفسك والعجب بتأليفك ان تهجم به على امسائل الصناعة... ولكن اعرضه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجاً بغيره...".

مكنتهم من الحفاظ على نمط معين من البلاغة . ولن نخوض في بحثنا هذا في مسألة البلاغة لانها قضية معقدة تتطلب بحثا مستقلا ونكتفي بالاشارة الى ان الكتاب كانوا يتوخون البلاغة في الكتابة وذلك قبل ان تنشأ في الدواوين مدرسة التصنيع الادبية . وننتقل بعد هذه الاشارة السسي موضوع اخلاق الكادب الذي هو من صلب بحثنا .

III - سلوك الكادب واخلاقه

لا يتناول قانون الكتابة الامور المتعلقة باخراج الكتب وحسب، ولا يقف عند هذا الحد من علاقة الكادب بآلته وبموضوع صناعته . ان هذا القانون شامل بحيث عالج عددا من الامور التي تخص الكادب بصورة او باخرى، بما فيها جسده وسلوكه . يضبط سلوك الكادب رغبة بزيادة كفايته "ومهارته" اي "اشاقته" ، ونعني بالمهارة استخدام آلة الكتابة على اكمل وجه ، والقيام بما تتطلبه من حركات انيقة مهما استغرقت هذه الحركات من وقت . لهذا السبب بالذات اطلق على الكتابة عيسارة "صناعة الكتابة" . نحن هنا بازاء صناعة معينة في نطاق مشغل، او محترف ، يتطلب من الصانع فيه درجة معينة من الحدق والمهارة . لكن المهارة ليست هنا تعبيراً عن علاقة الكادب بآلته وحسب، بل انها مرتبطة بطرف آخر - قد يكون الخليفة او احد جلسائه - يستطيع ان يعترف للكادب بالمهارة او ان يعييره بعدمها .

وتدخل المهارة في مفهوم المروءة التي هي فضيلة هامة للكادب بشكل خاص، ان يقول ابن المدبر مخاطباً الكادب : " واجعل لقلمك برايسسة حادة ، فان تعثر يد الكادب وقت قطع القرطاس، ناقص مروءة تيسسه ، ومخل بظرفه . وان قدرت الا تقطع القرطاس اذا فرغت من كتابيسسك الا بخراطوم قلمك، فافعل، فان ذلك اكمل لمروءتك، وابدع لظرفيسسك

وقطعه^١ . ويعبر ابن المدبر عن كيفية قطع القرطاس باناقة وذلك مراعاة لنظر صاحب السلطان فيذكر ان ذلك يتطلب من الكاتب تدريباً على معالجة آتته بحيث يكون مستعداً لاداء عرضه امسسام الخليفة ، فانه قد يستدعى للذخوع للامتحان في اية لحظة .

وينبغي ان تساعد الالة الكاتب على اظهار مهارته واناقته وتسهيل مهمته الكتابية ، يقول الصولي عن الدواة : " ينبغي ان يكون عليها من الحلية اخذ ما يتهيأ ان يتحلى الدوى بها من وثاقة ولطساف صنعة ، ليأمن ان تنكسر او تنفصم عروة في مجلس رياسة او مقسسام محنة^٢ . ويصف الصابي^٣ الكتابة في حضرة الخليفة قائلاً : " متسسى اراد الوزير ان يكتب شيئاً بحضرة الخليفة ، اذا امره به ، فقسد كانت العادة جارية بان يكون في خذ الوزير او الكاتب دواة لطيفة بسلسلة ودرج ومطينة فيها اساجي وطين ، فاذا اراد ان يكتب ، علسق الدواة في يده اليسرى و أمسك الدرج بيده اليمنى ، واذا فرغ اصلح الكتاب وأسماء ، ووضع الطين عليه وختمه وأنفذه^٤ .

هذه هي مراحل اخراج الكتاب وتتم جميعاً على مرأى من الخليفة في مجلسه ، وينبغي على الكاتب او الوزير ان يكون عارفاً تمام المعرفة بما يتطلبه اخراج الكتاب لكي لا يكون مضطراً الى الاستعانة بكاتب آخر من اجل السحاية ، وبآخر للتطيين ، وغيرهما . ان اظهار العجز عن القيام بصغير الامور وكبيرها يخل بسمعة الكاتب ويشير الى النقص في معرفته ، وهو بغنى عن كليهما . ان عدم قيام الوزير ببعض الامور التي تعتبر مهينة لا ينبغي ان يكون عسناً عجز

^١ ابن المدبر ، الرسالة العذراء : ٢٣ ، وينبغي ان تفهم عبارة "مروءة" الواردة في النص على انها مختلفة عن المعنى الذي اعطي لها في العصر الجاهلي فهي لا تعني الشجاعة والنخوة وغيرهما من صفات الفتي الجاهلي بل اللياقة والاناقة .

^٢ الصولي ، أدب الكتاب : ٩٦ .

^٣ الصابي ، رسوم : ٦٦ .

عن ترفع^١، وقد يحسن الذليفة التمييز بين هذا وذاك.

ان آلة الكاتب واصلاحه لها يدلان على اخلاقه . فلا يكفي مثلا ان يكون الكاتب متواضعا ، بل ينبغي ان تشير بساطة آلته الى تواضعه ، يقبول الصولي مثلا متحدثا عن الدواة : "ينبغي ان تكون الحلية (اي حليسة الدواة) ساذجة ، لا حفر ولا شباب فتحمل القذى والذئس، ولا نقش عليها ولا صورة ، لان ذلك من زى اهل التوضّع ، لا سيما في آلة يستعان بهسا على مثل هذه الصناعة الجليلة المستولية على تدبير المملكسة . وان أحرقت الفضة حتى يكون سوادها اكثر من بياضها فان ذلك احسن وابلغ في السرو واشبه بقدر من لا يتكشّر بالذهب والفضة"^٢ . ان علسى الكاتب ان يعمل على اقناع السلطان بتواضعه وقناعته وضى الصولي متحفظا في مسألة استخدام الكاتب للمرفع ، والمرفع آلة ترفع بهسا الدواة عن الارض، يقول: "قال بعض الكتّاب، المرفع ضرب من الكبسر وفضيلة من الآلة ، وترقه مفرط لا يليق بذوى التقدّم في العمل، والصبر عليه ، والتجرد له ، وما يسرع عليه الا كلّ ذى نخوة ورياسة محدثسة ، وهو احسن في مجالس الخلوات منه في الجماعات . . . واذا عجز الكاتب عن الاستمداد من الدواة عن الارض فيغنم رفعها الى يده بهذه الألسنة وتقريب متناولها فهو عمّا سوى ذلك من تمشية الاعمال وتنفيذ الامور أعجز"^٣ . ان لاستخدام المرفع اذن - في نظر الصولي - سيشتين : الاولى الاشارة الى الترفّ ، والثانية الاشارة الى العجز ، وكلاهما مسسـن الامور المستكرهة لدى صاحب السلطان . وتشير الرواية بوضوح

^١ انظر الصولي ، أدب الكتّاب : ٠٢٦ .

^٢ الصولي ، أدب الكتّاب : ٠٩٦ .

^٣ المصدر السابق : ٠١١١ .

الى ان كتابة الكتف في حضرة الخليفة هي غير كتابتها بمنأى عنه .

وكما ان الآلة ناطقة بتواضع الكاتب او ترففه وبحدائقته او عجزه ، فان سلوكه العام بمعزل عن آلتها ينطق بالشئ ذاته . ان ضبط سلوك الكاتب يتعدى دائرة معالجة الآلة في الكتابة الى الالتزام بمبدأ اللياقسة عامة بمجرد ان يكون الكاتب في حضرة الخليفة . يتناول مفهوم اللياقة ضبط النظر والحركة يقول الصابي : " وسبيله (اي الكاتب) ان يقسّم الالتفات الى جانبيه وورائه والتحرك ليده ، او شيء من اعضائه ... وان يغض طرفه عن كل مرأى الا شخص الخليفة وحده ... والا يسهر احسدا في مجلسه ، ولا يشير اليه بيده ولا عينيه ، ولا يقرأ رقعة ولا كتابسا يوصلان بين يديه الا ما احتاج الى قراءته عليه ، وأذن له فيسسه ، ولا يخاطب من يخاطبه في تعرف امر منه ، او اقامة حجة عليه ، الا بأخذ الالفاظ وأشد الاستيفاء " ^١ . وينبغي على الكاتب كذلك خفض صوته فسي الحديث وتجنب السعال والعطاس والبهاق والاكل والشرب ليكون " جسمسا صدى لا يخرج منه شيء ... ولا يدخل اليه شيء " ... وان يجعل وقوفه من اول مدخله الى حين مخرجه في موضع رتبته ، من غير ان يتجاوزه الى ما فوقه او دونه ... واذا خرج وهو يشاهده ، جعل خروجه تراجع السي ورائه لثلا يوليه ظهره ، فاذا غاب عن طرفه استقام في مشيه " ^٢ .

ويضع مظهر الكاتب الخارجي ايضا - بحسب قول ابن المدبر - لشروط معينة : وقد شرط الحكماء في صفات الكاتب " طول القامة ، وصغر الهامة ، وخفة اللهازم ^٣ ، وكثافة اللحية ... ومن كمال آلة الكاتب ان يكون بربّ الملابس ، نظيف المجلس ، ظاهر المرورة ، عطر الرائحة ، ... ولا يكون مع ذلك فضفاض الجثثة ، متفاسوت الاجزاء ، طويصل اللحياسة ،

^١ الصابي ، رسوم : ٣٥ .

^٢ المصدر السابق : ٣٤ - ٣٥ .

^٣ اللهازم : عظم ناتئ تحت الاذنين (انظر ابن المدبر ، الرسائل - العذراء : ٨) .

عظيم السهامه ، فانهم زعموا ان هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاء والفتنة^١ ان مظهر الكاتب يخطق بذكائه كما ان آله تنطق بتواضعه . ولمراعاة اصول اللياقة على المرء^٢ . . . ان يجعل بين ثيابه شتساء صيفا جبة فيها قطن يمنع ظهور العرق وان يواصل السواك^٣ .

اما الكلام فهو اخطر الامور واصعبها ضبطا ولا ينبغي ان يبادر احسد الى الكلام الا اذا سألته الذليفة ذلك او اذن له به^٤ . كذلك ينبغي حسب تصور ابن قتيبة : " ان يجانب المرء شنيع الكلام ورفث الممزج^٥ . وتكمن حصافة الكاتب في احسانه تمييز المواقع التي يصلح فيها من الكلام من تلك التي يصلح فيها الصمت : غير ان الصمت محمود اكثر من الكلام ، يقول الصابي : " واحتمل هجنة العي في هذا المقام ، فانها هجنة مأمونة ، وان لم تكن على الحلم محمولة لم تكن الى العجسز معدولة^٥ . ولا بد ان يعمل المرء الروية قبل القول ، يقول الصابي : " . . . واحذر زلات قولك وفلتاته ، وعاصر ما يمتلك من شهواته ولذاتسه ، واجعل جوابك عما تراعي قواعد وشخاف بواتقه ، اشارة لا افصاحا ، وتعليل لا اغراقا . . . " ويضيف الصابي محذرا طبيعة مخاطبة السلطان : " ودع الشكوى فانها ثقيلة على السلطان ، والامح فانسه من اكبر دواعي الحرمان^٧ .

^١ المصدر السابق : ٨ - ٩ .

^٢ الصابي ، رسوم : ٣٣ .

^٣ المصدر السابق : ٣٣ وانظر حول سلوك المستشار زبال ، تكون : ٧٢ .

^٤ ابن قتيبة ، ادب الكاتب (تحقيق محمد معيني الدين عبد الحميد ، الطبعة الثالثة ، مصر ، ١٩٥٨) ١١ . ويقول الصابي (رسوم : ٨٨) : " واحذر ان يسوردك موارد المزح الى ما يغيب السلطان منك " .

^٥ الصابي ، رسوم : ٨٨ .

^٦ المصدر السابق : ٨٧ - ٨٨ .

^٧ المصدر السابق : ٨٨ .

وليس الكلام الذى يصدر في حضرة الذليفة موضوع ضبط من حيث تأويل المعنى وحسب بل من حيث الشكل ايضا. فلا ينبغي ان يلحن احد فسي حضرة الذليفة لان ذلك يسيء الى المتكلم، وهو اما ان يؤوله علسى انه استهتار بمعرفة الذليفة، اما على انه جهل من جانب الكاتب بيد ان العكس لا يجوز. فالذليفة قد يلحن احيانا، وقد يخطئ فسي انشاد الشعر او رواية الحديث، ولكن من العار ان يؤخذ ذلك عليه جهرا، وان استحسن ان يشير اليه بلباقة من طرف ذفي، يقسوسول الصابى: " وان اتفق السلطان ان يقول قولا ملحونا، او يسسروى حديثا مرفوعا، او ينشد شعرا مكسورا، لم يكن لمن يحضر مجلسه ... ان يرد ذلك مواجها ومصرحا، بل يعرضه مشيرا وملوحا، ويورد فيه من النظائر والاشكال ما يكون طريقا الى معرفة الصواب". فتدخل الكاتب يتم اذن بمنتهى اللطف والتهديب ليعيد الى صاحب الملطسان مكانته والى اللغة والحديث والشعر سلامتها.

اما التصديف فهو من الامور التي يستكره حدوشها كذلك في مجلس الذليفة، ويصحف الكاتب عادة عند قراءة الكتب الخالية من النقطة والاعجام، وغالبا ما يجز التصديف العار على المصحف يقول الصولسي: "وقع من الكتاب تصديف في كثير مما قرأوه في مجالس الذلفاء حتى احصيت عليهم غلطات سقطوا بها في عصرهم، وبقي عارهم عليها".^٢

يقوم سلسوك الكاتب بحسب الامثلة السابقة على مبيسسا الاحتراس لان اعسداده على اهبة الاستعداد ليعيروه باصغر هسفوة تصدر عنه. ان عدم الالتزام باصول اللياقسة يعسسرس الكاتب لانتقام من يسعسى به لدى الذليفة. والخوف مسن

^١ الصابى، رسوم: ٥٢.

^٢ الصولي، أدب الكتاب: ٥٨. والتصديف هو رواية الخطأ عن قسراءة الصدف باشباه الحروف. انظر لسان العرب (صف).

الواهي والساعي هو الذي يبحث الكاتب على استصلاح آلته ، وضبط سلوكه ، وكلامه ، ووضعيته اجمالاً . وتقع على الكاتب مسؤولية سدّ جميع المنافذ الذي يمكن ان تشكّل مدخلاً للسعي به ، او للحطّ من منزلته ، بمبادرة من اعدائه .

هذا الصراع القائم بين الكتاب مرده الى رغبة الكاتب في زيمسادة نفوذه على حساب غيره بلجوئه الى الحيلة ، كما سبق ان رأينا فسي الفصل الثاني . وفي كتاب الأدب الكبير مقاطع عن علاقة المتولّيين اعمالاً للسلطان ، بمن فيهم الكتاب بعضهم ببعض ووصف للسلوك السيّد يندبغى ان يكون عليه هؤلاء وهذه العلاقة هي علاقة التآخي كما يستدّيهما كتاب الأدب الكبير لكنها اشبه بعلاقة الأقران المتنافسين^١ اذ يقوم التآخي على مبدأ اللياقة والتهديب اكثر مما يقوم على مبدأ الحسب والصرافة . يبحث المرء حسب كتاب الادب الكبير عن الصديق ليس لحاجة الى الثواصل وبعثاً عن عاطفة معينة بل سبيلاً الى اتقاء شر العزلة ، يقول : " ... اعلم ان انقباضك عن الناس يكسبك العدوّة وان تفرسك لهم يكسبك صديق السوء"^٢ . ان مفهوم الصداقة هذا وطريقة السلسوك قد اشاراً حفيظة ابي حيان التوحيدى في كتابة عن الصداقة^٣ اذ ان الصداقة بالنسبة له لا يمكن ان تقوم على مبدأ الرغبة والرغبة ، " واما الكتاب وأهل العلم فانهم اذا خلوا من التنافس والتحاسد... فربما صحت لهم صداقة وظهر منهم الوفاء وذلك قليلاً"^٣ . والواقع ان اصلاح الذات ومناشدة المتولي اعمالاً للسلطان التحلّسي

^١ انظر الادب الكبير : ٧٦ .

^٢ انظر الادب الكبير : ٧٨ .

^٣ التوحيدى ، كتاب الصداقة والصديق (شرح وتعليق على متولي صلاح ، مكتبة الآداب ، مصر ، ١٩٧٢) ٦ ؛ ويشير منسكويه في كتاب الهوامل والشوامل (تحقيق احمد امين واحمد صقر ، القاهرة ١٩٥١ : ٧٠) الى التحاسد بين اصحاب المنزلة الواحدة في قوله : " معظم السبب في ذلك الحسد الذي يعتسرى اكثر الناس ، لا سيما اذا كان المحسود قريب المنزلة من الحاسد " .

باخلاقية معينة يدخل حسب الادب الكبير في اطار الاحتراس وليس في الالتزام بمشال اخلاقي معين، يقول الكتاب: "واعلم انه كلما بسده احد بشيء يعرفه من نفسه، وقد كان يطمع في اخفائه عن النفس، فيعيره به معير عند السلطان او غيره، الا كاد يشهد عليه وجهه وعينه ولسانه، للذي يبدو منه عند ذلك، والذي يكون في انكساره وفتوره عند تلك البداة". ان خوف الانسان من ظهور نفسيته على حقيقتها هو الذي يحدثه على اصلاح ذاته وليس مثالية اخلاقية معينة. وقد يكون الاشكال الذي يقع حول موضوع اخلاق الكتاب هو الذي يفسر عدم معالجة ابن المدبر مثاله وعدم تطرق الصولي اليه في كتاب "ادب الكتاب" واشارة عبد الحميد اليه بصورة عامة في رسالته. اما الجاحظ فقد ورد في رسالته في ذم اخلاق الكتاب ما يدل على انحطاط اخلاق هذه الطبقة ونفور الجاحظ منها لهذا السبب ويظهر هذا الانحطاط - حسب الجاحظ - في محاولة الكاتب الايقاع بنظيره وفي علة "الشرة" القائمة في فئة الكتاب عامة اي الرغبة الشديدة في كسب الاموال بشتى الطرق وعدم القناعة. لكن الظاهر ان الجاحظ كتب رسالة اخرى في مدح اخلاق الكتاب ولم تصلنا هذه الرسالة، كما ان رسالته في ذم اخلاق الكتاب هي رد على رسالة اخرى كتبها ادهم في مدح الكتاب مما يشير الى تباين الآراء بالنسبة لـ اخلاق هذه الطبقة. اما ابن قتيبة فقد تكلم عن ضرورة ان يؤدب الكاتب نفسه في قوله: "نحن نحب لمن قبل عنا واثم بكتبتنا ان يؤدب نفسه قبل ان يؤدب لسانه، ويهدب اخلاقه قبل ان يهدب الفاظه، ويصون مروءته عن

^١ الادب الكبير: ٠٨٩

^٢ انظر الجهمياري، الوزراء: ٧٤ - ٧٥

^٣ انظر الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢: ٢٠٤

^٤ لقد اورد ابن المدبر جملة من هذه الرسالة في قوله: "قال الجاحظ: ما رأيت قوما امثل طريقة في البلاغة من هؤلاء الكتاب، فانهم التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا... (الرسالة المذمومة: ٣٥)

دناءة الغيبة ، وصناعتة عن شين الكذب^١ . لكن ابن قتيبة لا يتكلم عن واقع اخلاق الكتاب كما انه لم يتناول باسهاب هذا الموضوع بل انسه اكدفى بالاشارة اليه بصورة عابرة .

ان وضع معايير اخلاقية تحرم الكذب والذميمة بصورة فعالة لا يمكن ان تتحقق في حقل الصراع على النفوذ المحترم ، والقائم في فئسة الكتاب ، والذي يستمر بصورة مستترة في حضرة الخليفة .

ان اللياقة التي هي طريقة سلوك الكاتب اشبه بالسلوك الدبلوماسي منه بالمثال الاخلاقي والعاطفة الصادقة^٢ . وهذه اللياقة خاصة بالكتاب ربما اكثر من سواهم وبها يتميزون عن الخدم مثلا الذين غالبا ما يكون سلوكهم بعيدا عن المروءة ، والى ذلك يشير الجهشيارى في رواية شديدة الدلالة حيث يقول : " كان الفضل والحسن ابنا سهيل - والمأمون ولي العهد - عند بعض الخدم المتقلدين للاعمال في ايام الرشيد ، وانه دخل على الخادم فتى كان يلي له شيئا فلما رآه ضحك ، ثم قال له : هذه مشية تعلمتها بعدك . فانظر اهي احسن ام ما كنت امشي حتى انتقل عنها ثم غير مشيته وجاء فجلس واتى برعوشات كثيرة ، فلم يزل الخادم يحتال له ، حتى خرج ، ثم قال لهما : ان بعض الناس يحب ان يظهر خاصية ليست له . فلما خرجا من عنده ، قال الحسن للفضل : تعذب نفسك ثلاثين سنة من ذى قبل ، بالصيانة والمروءة وطلب الادب ، ومثل هذا يلي الاعمال^٣ . وهذه الرواية تدور في عصر الرشيد بعد نكبة البرامكة واستعانتة لتصريف اعماله بغير الكتاب وتعيينه

^١ انظر ابن قتيبة ، ادب الكاتب : ١١ ، والغيبة اغتيال الرجل صاحبسه ليوقع به " وأن يتكلم الرجل خلف انسان مستور بسوء او بما يغمه لسو سمعه ان كان فيه ، فاذا كان صدقا فهو غيبة او ان كان كذبا فهيسو البهت والبهتان . " انظر لسان العرب (غيب) .

^٢ انظر زيغال ، تكوون : ٧١ .

^٣ الجهشيارى ، الوزراء : ٢٨٠ - ٢٨١ .

الخدم في المناصب الادارية^١ ومولاه الخدم لم يتحلوا باللياقسة
والمروءة والادب بل كانت اخلاقهم مغايرة لاخلاق الكتاب وقد اشسار
تصرفهم حفيظة الحسن والفضل الكاتبين.

وليس للكاتب كذلك اذا اتبع - اصول اللياقة والمروءة - ان يقبسل
على الملذات، بل عليه ان يراعي شهواته، ويحدد ابن المقفع ضرورة
الابتعاد عن النساء: " واعلم ان من اوقع الامور في الدين، وانكسها
للجسد وادلفها للمال، واضررها بالعقل، وازراها للمروءة، واسرعها
في ذهاب الجلالة والوقار، الغرام بالنساء"^٢. ان اللهو والصيد وحب
الشراب والعشق من صفات الشعراء وليس الكتاب^٣، وان تحلوا بهسا
احيانا. ويورد الجهشيارى رواية في هذا الصدد، تدور حول كاتب
يتحلّى بهذه الصفات، هو على بن ابي كبير، كاتب موسى بن ابيسي
الزرقاء على فارس، وكان شاعرا طريفا صاحب شراب ولهو، وقد قسسال
مخاطبا صاحبه: " فهل شربت - اصلحك الله - شرابا قط، حتى لانست
اعطافك، وسخت نفسك، / حبب اليك جلساؤك؟ قال: لا والله؟ قال: فهل
خرجت في صيد فبادرت اصحابك الى طريدتك، ووشيت عن دابتك، وتوليت
ذبحها بيدك؟ قال: لا والله؟ قال: فهل عشقت حتى ارسلت وكاتبست،
ووعدت وتوقعست؟ قال: لا والله، قال: فوالله ما ذقت لذة العيشش

^١ يقول الجهشيارى (المصدر السابق: ٢٦٥): "وذكر الفضل بن مروان ان امور
البريد والاخبار في أيام الرشيد كانت مهمة وان مسرورا الخادم كان
يتقلد البريد والخراطة. ويخلفه عليه ثابت الخادم. قال: فحدثني
ثابت: ان الرشيد توفي وعندهم اربعة آلاف خريطة لم تفض".

^٢ الادب الكبير: ٨٩. وحول صفة نسب الكتاب لابن المقفع انظر مقسسال
احسان عباس السابق ذكره في مجلة مجمع اللغة العربية ل: ٦٠٢.

^٣ لكن هذا لا يعني ان اللذات منسوخة من حياة الكاتب وقد ورد فسي
الادب الصغير: "وعلى العاقل الا يكون راغبا الا في احدى ثلاث خصال:
تزود للمعاد، او مرمة لمعاش، او لذة في غير حرام".

قط، ولا تفلح ابدا" ^١ ليس هذا الكاتب رغم صنعه ممن تنتمي اخلاقه الى اخلاق الكتاب .

غير ان عدم اقبال الكاتب على الملذات لا يعني مطلقا زهدا فسيحي الحياة ، وان عنى عفة ورياسة . لا تتفق صناعة الكتابة مع الزهد . واذا احس الكاتب انه راغب عن الدنيا ، ينبغي ان يتحقق من ذلك قبل ان يتخذ قرارا نهائيا وقد ورد في كتاب الادب الصغير قول يخاطب فيه الكاتب المتولين لاعمال السلطان ومن بينهم الكتاب قائلا : " ان رأيت نفسك تصاغرت اليها الدنيا اودعتك الى الزهادة فيها على حال تعدد منها عليك ، فلا يفرّك ذلك من نفسك على تلك الحال ، فانها ليست بزهادة ، ولكنها حرج واستخزاء ، وتغيّر نفس عندما اعجزك من الدنيا ، . . . ولكن اذا دعوتك نفسك الى رفض الدنيا وهي مقبلة عليك ، فاسرع الى اجابتها" ^٢ واما الفقر ، فانه كالزهد لا يتفق مع المروءة . ويقول صاحب الادب الصغير : " والفقر داعية الى صاحبه مقت الناس ، وهو مسلبة للعقل والمروءة ، ومذهبة للعلم ، والادب ، ومعسدة للتهمة ، ومجمعة للبلايا" ^٣ . فاذا كان التواضع مستحبا فان الفقر في نظر صاحب الادب الصغير - مستكره لانه يذهب بالفضائل الاخرى ، يقول : " وليس خلة هي للغني مدح الا هي للفقير عيب" ^٤ .

اما الشجاعة فهي ليست من اخلاق الكتاب ابدا بل من اخلاق الجنديّة وهي مستكره لدى الكتاب ، كما يقول الصابي : " وما شيء اقبح من بذي قلم من تعاطي الشجاعة والتخلق باخلاق الجنديّة وقد حكسي ان عبيد الله بن سليمان ^٥ كان واقفا بحضرة المعتضد

^١ الجهشيارى ، الوزراء : ٣٠٢ .

^٢ الادب الكبير : ١٠٣ - ١٠٤ .

^٣ الادب الصغير : ٣٤ .

^٤ المصدر السابق : ٣٤ .

^٥ وزير للمعتضد بالله سنة ٢٧٩ (انظر الصابي ، الوزراء : ٨ - ٢٠) .

بالله ، صلوات الله عليه ، اذ افلتت سبع من يدي سباع ، وهرب الناس من بين يديه ، وعدا عبيد الله مذعورا ، ودخل تحت سرير ، وثبتت المعتضد بالله في موضعه ، فلما أخذ السبع وعاد عبيد الله السسي حضرتته قال له المعتضد : ما اضعف نفسك يا عبيد الله . . . فقال له : قلبي يا امير المؤمنين قلب الكتاب ونفسي من نفوس الاتباع لا الاصحاب ، فلما خرج قال له اصحابه في ذلك ، فقال لهم : . . . والله ما خفت السبع لانني كنت اعلم انه لا يصل الي ، ولكنتي اعتمدت ان يسرى الخليفة قصور منتي وقصر همتي ، فيأمنني ولا يخاف غائلتي^١ . فهذه الرواية تشير الى ان الشجاعة امر اذا تحلى بها الكاتب او الوزير به فينبغي ان يكتمه ولا يظهره .

هذه هي اخلاق الكتاب وهي تكتسب بتهذيب النفس والتغلب عليها ، اذ انها لا تقول بترك الطبع يعمل على سجيته انما تعتمد على مبدء التطبع بحسب مبادئ وشروط معينة حاولت في ما مضى من هذا الفصل ان احدثها .

IV - زي الكاتب

للكتاب زي خاص يميزه عن غيره . واعتماد زي خاص يكون له همدف معين وهو قدرة الخليفة على تحديد هوية الوafd عليه مباشرة . ويشير الجهمشيارى الى وجود مثل هذا الامر منذ ايام الفرس ، قبل الاسلام ، اذ يقول متحدثا عن ملوك فارس : " كان رسم ملوك فارس ان يلبس اهل كل طبقة ممن في خدمتهم لبسة لا يلبسها احد ممن في غير تلك

^١ الصابي ، رسوم : ٤٨ .

الطبقة ، فاذا وصل الرجل الى الملك ، عرف بلبسته صناعته ، والطبقة التي هو فيها . فكان الكتاب جميعا في الحضر يلبسون لبستهم المعهودة . فاذا سافر الملك تزيوا بزّي المقاتلة^١ .

ولا نعرف بالضبط متى اصبحت للكتاب في الدولة الاسلامية زي خاص لهم ولا نملك معلومات حول زي الكاتب في العصر الاموي ، وتعود الروايات التي تدور حول زي الكاتب الى العصر العباسي الى خلافة المنصور ، وكان هذا الخليفة يتطلب من الكاتب ان يكون كامسوس اللباس وذلك حسب ما يورده الجهشيارى في قوله : " انكر ابسسو جعفر (المنصور) على محمد بن جميل (صاحب الخراج) شيشسا ، فامر ببطحه ، فقام بحجته ، وازال ما ادعى عليه ، فامر باقامته ، ثم لحظ سراويله ، فاذا هو كتان ، فانكر ذلك انكارا شديدا ، وامر به فبطح ، وضربه خمسة عشرة درة ، وقال : " هذا جزاؤك علسسى سوء اختيار مثل هذه السراويل ، فلا تعادوه^٢ . تشير هذه الرواية الى ضرورة معاينة الكاتب للبسته كما انها تشير الى ان للخليفة حق الاطلاع على لبسة الكاتب وهذه لا يجوز ان تكون مهمة . وهذه الرواية التي سبق ذكرها ، ان اشارت الى موقف الخليفة من زي الكاتب ، فانها تحدد بالتفصيل طبيعة هذا الزي والقسط

^١ الجهشيارى ، الوزراء : ٠٣ .

^٢ المصدر السابق : ٠١٣٤ .

التي يتألف منها. وجلّ ما نملك من معلومات حول زي الكاتب في مطلع العصر العباسي هي انه كان مختلفا عن زي الوزير مثلا. ويتألف زي الوزير من الدراعة وهو ثوب مفتوح من الامام، على مستوى القطن، تزيينه الازرار والعروات^١. لكن الدراعة ليست الزي الرسمي الخاص بالمناسبات وأيام الموكب، والزي الرسمي لها هو القباء^٢، وهو شبه بالبدلة العسكرية ويتقلد الوزير السيف عندما يلبسه، وهو ذو لون أسود وهو اللون الرسمي لدى العباسيين أيام الموكب^٣. يوصف القباء على انه ثوب ضيق من الاعلى يشدّ الصدر حتى المنكبين شمس يتسع، ويلفّ حول المنكبين زناران او ثلاثة اما الاكمام فضيقة وطويلة^٤. ولا نستطيع ان نحرف على الوجه الصحيح من هو اول وزير تزييا به. تشير رواية للجيشياري الى ان اصحاب الدواوين كانوا احيانا يلبسون القباء والسيف ويعطي مثل عيسى بن يزدانبيروند السدي تقلد نفقات الخاصة في وزارة الفضل بن الربيع للرشيد (١٧٨ - ١٩٣ هـ) يقول: " كان عيسى بن يزدانبيروند اول من لبس شاشية من الكتاب. وكان سبب ذلك انه احتاج الى لبس القباء والسيف من اجل ما يتقلده من نفقات الخاصة. فلبس شاشية"^٥. وتشير هذه

^١ انظر Dozy, R., Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les arabes (Amsterdam, 1845) (دراعة)

^٢ انظر الصولي اخبار الراضي بالله والمتقي بالله (ترجمة M. Canard Alger, 1946) p. 163, no. 5. الفرنسية

^٣ الصابي، رسوم: ٧٤ رقم ١.

^٤ انظر Dozy (قباء).

^٥ الجيشياري، الوزراء: ٢٦١.

الرواية الى ان المتقلد لنفقات الخاصة كان يتزيا بزى الوزراء الذى هو امبه باللباس العسكرى، لكن عيسى بن يزدانيرود رأى ضرورة الاشارة الى صنعته والى انه ليس بوزير ولا بقائد فاضاف الشاشيسة الى الزى. والشاشية هي قلنسوة اى قبعة تغطي اعلى الرأس وقسمها اصبحت فيما بعد رسما للكتاب وجزءا من زيهم^١.

اما زى الكتاب فهو يتألف اولا من جبة، ذلك حسبما يورده الجاحظ في رسالته عن الكتاب حيث يقول: " يتوهم الواحد منهم (اى الكتاب) اذا عرض جبته وطول ذيله، وعص على خده صدغه... انه المتبسوع ليس التابع...^٢ الجبة لباس مفتوح على الصدر وكان الكتاب يلبسونها عريضة، ويطولون ذيلها، ولا تعرف اذا كان لها لون معين. كما اننا لا نعرف اذا كانت لبسة الكتاب واحدة على مراتبهم اى اذا كانت لبسة اصحاب الدواوين هي ذاتها لبسة صغار الكتاب والوراقين. قد يكون الزى الاساسي هو نفسه ويضاف اليه بالنسبة لاصحاب الدواوين بعض الوشي والتنميق لكننا لا نستطيع ان نتحقق من ذلك. لكننا نستطيع ان نقول ان زى الكتاب لم يقتصر على الكتاب بل كان يتزيا به من ليس من الكتاب، يقول الجهشيارى: " كان مخلصد بواب ديوان الخراج ببغداد في خلافة الرشيد الى ان مات وكان يتزيا بزى الكتاب^٣ .

وكان لمشايخ الكتاب زى خاص هو الطيلسان ولونه اخضره والطيلسان حسب وصف دوزى طرحة توضع على الرأس فوق العمامة او على الكتفين ويكون من الموصلي^٤، ويرى دوزى ان الطيلسان هو لباس القضاة كما

^١ انظر الصابى، رسوم: ٤٣ - ٤٥.

^٢ الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢: ١٩١.

^٣ الجهشيارى، الوزراء: ٢٦٣.

^٤ انظر Dozy (طيلسان).

ان القباء لباس الجند^١ . وتشير رواية اوردها الصابيء السبي ان الطيلسان كان لباس الكتاب الذين تركوا الخدمة ، يقول الصابيء : " واما ابو المنذر النعمان بن عبد الله (كاتب علي بن عيسى) ، فقد تاب من خدمة السلطان ولبس الذف والطيلسان ، وحضر مجالس الوزراء بهما كما تحضر مشايخ الكتاب^٢ . وهذه الرواية تدور بعد ذلك علي بن عيسى وتنصيب ابن الفرات في الوزارة سنة ٣٠٤ وقسسد خاف كاتب علي بن عيسى علي نفسه فكان ان اعلن حياده ولبس الصابيء الطيلسان دلالة علي تركه الخدمة .

وقد يلبس الكتاب الطيلسان علي سبيل التنكر او التواضع يقسمول الصابيء : " ووافي علي ابن عيسى من مكة في ايام وزارة ابي القاسم الخاقاني (حوالي سنة ٣٠٠) . . . للاشراف علي مصر والشام . فدخل مصر وتحدثه حمار وعليه طيلسان^٣ . فكان علي بن عيسى يتولى اذن الاشراف علي مصر والشام وقد تزييا بهذا الزي اما تواضعا او رغبة بالدخول خلفا ليفاجيء عامل مصر .

واذا كان الذف حسب رواية الصابيء الاولي هو حذاء مشايخ الكتاب الذين تركوا الخدمة فانه ايضا جزء من زي الكتاب العامل فسي الديوان . والذف هو الحذاء الفارسي الذي لا نعل له ولا رباط ، وهو عال يتعدى الكاحل ويستطيع الكتاب ان يضع فيه كتابا بل ذنجسرا^٤ ويستحسن الا يكون لون الذف احمر .

^١ انظر المصدر السابق (طيلسان) .

^٢ الصابيء ، الوزراء : ٤١ .

^٣ الصابيء ، الوزراء : ٣١٩ .

^٤ انظر الصولي ، اخبار الراضي . 6 ، no . 163 , p .

^٥ يقول الصابيء (رسوم : ٧٥) : " ومما ينكر دخول الداخل الي دار الخلافة بنعل او ذف احمر . . . لان الاحمر لباس الذليفة وبعده الخوارج عسسن الطاعة " .

ويشمل زى الكاتب تسريحته يشير الجاحظ في رسالته الى ان الكاتب كان يعقص على خذّه صدغه ، ويتحذف الشابورتين^١ . اما عقص الصدغ فهي تسريحة ترخى فيها النواحي حتى تصل الذؤ فتعقص عليه واما تحذف الشابورتين فقد اختلفت حوله الآراء يرى شارل بيلا ان فعسل حذف مرادف لقص، وحذف الشابورتين اي قص الشعر على هيئة الرقشم "٧" بحيث تسيل القصة الى وسط الحاجب^٢ ، بينما يرى سورديس ان الشابورتين تعني الطرحة التي توضع على الرأس وتشكل مسنن الجانبين على الصدغين بحيث يسيل وسطها على الجبين^٣ . امسا دوزى فلا يأتي على ذكر الشابورة وقد يدعم ذلك موقف بيلا السبذى قال ان الشابورة ليست من اللباس . واللحية ايضا جزء من حليسة الكاتب وكان من المستحسن ان تكون كثيفة دون ان تكون طويلة^٤ .

هذه هي المعلومات المتوفرة حول زى الكاتب وهي ليست وافرة لكنها تشير الى ان الزى كالسلوك كان يخضع لاصول معينة .

^١ الجاحظ، رسالة : ١٩١ .

d'Etat,

^٢ انظر Al-Gahiz, Une Charge contre les secrétaires / trad. Ch. Pellat in Hesperis, 1956, vol. 43, p. 34, no. 12.

^٣ انظر البغدادي، كتاب الكتاب^١، no. 125, p. 125. ويتبنى سورديل هذا المعنى لان تحذف الشابورتين وردت في مخطوطة البغدادي على انها "تحذف الشابورتين" . واذا صح تفسير سورديل فان ذلك يخلق مشكلة بالنسبة لاعتلاء الشاشية الذي هو رسم لدى الكتاب . هل توضع الشابورتان فوق الشاشية ام تنزع الشاشية وتحلان محلها ؟

^٤ انظر ابن المدبر، الرسالة العذراء : ٨ - ٩ .

V - ثقافة الكاتب

يحصل الكاتب عادة معرفة معينة خاصة به وقد اشار عبد الحميد فسي رسالته الى المواد التي ينبغي ان يكون الكاتب ملما بها. ولسم يحدد عبد الحميد معارف الكاتب نسبة لاختصاصه في حقل معين مسس بقول الكتابة ، وذلك انه توجه في رسالته الى الكتاب عامة وخاطبهم قائلا: " فنافسوا ، معشر الكتاب في صنوف العلم والادب ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بكتاب الله عز وجل ، والفرائض العربية ، واجيدوا الخط ، فانه حلية كتبكم ، واروا الاشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها وايام العرب والعجم واحاديثها وسيرها ، . . . ولا يضعفن نظركم فسي الحساب فانه قوام كتاب الخراج منكم" ^١ . فاذا نظرنا الى قول عبسد الحميد وجدنا ان المعارف التي يحث الكاتب على التحلي بها تدخل في اطارين: الاول ما يحتاج اليه الكاتب للقيام بمهامه الادارية كالتقان اللغة العربية والخط والحساب . وفي هذا المجال يسسرى سورديل انه كان ينبغي ان يكون الكاتب مؤهلا للقيام بأى عمل فسي اى ديوان . ان مثال الكاتب هو الذى يتقن على السواء كتابة الكتب ومساحة الارض وفرض الضرائب وتقريرها وتولي الانفاق علسى الجند والنظر في المظالم والمعاون بالاضافة الى الكتابة بعسارة سليمة وان يحسن التحرير . اما الاطار الثانى فيدخل فيه ما يحتاج اليه الكاتب ليكون لنفسه "ثقافة عامة" هي ثقافة دينية تاريخية ادبية حسب ما يراه عبد الحميد . ونرى ان عبد الحميد اراد فسي تحديده لثقافة الكاتب ان يتخطى المعرفة المحصورة في نطاق العمل الادارى نحو معرفة لا تقيم مع الصناعة سوى روابط بعيدة وغيسر مباشرة . وتتصف هذه المعرفة الاخرى بالشمولية وتتناول معظم مسس الآداب والعلوم بصورة نسبية وتجعل من الكاتب " موسوعة صغيسرة" يمكن ان تشكل مرجعا عند الضرورة .

^١ الجهشيارى ، الوزراء : ٧٥ .

ولقد حصل فعلا عدد من الكتاب هذا المستوى من المعارف، ويسسورد الجهشيارى مثلا على ذلك في ابي ايوب المورياتي، كاتب المنصسور، الذى كان يقول متحدثا عن نفسه: " ليس من شيء الا وقد نظرت فيسه الا الفقه، فلم انظر فيه قط، وقد نظرت في الكيمياء والطبسسب، والنجوم، والحساب، والسحر"^١. وتعطينا "ثقافة" ابي ايوب لمحسنة عن معارف الكاتب، ونلاحظ ان الفقه لم يكن جزءا من هذه المعسارف وقد يكون الفقه من ابعء الامور عن اهتمامات الكاتب، لا يحتسساج اليه هذا الاخير الا في حال محاولته التوفيق بين احكام الشريعة و احكام الخراج في الواقع، وهذه كثيرا ما تكون متناقضة^٢. امسا علم النجوم والسحر فيفيد منهما الكاتب شحصيا على سبيل التنبوء بمستقبل معين ينبغي ان يحترس منه. وتزدهم في كتاب الجهشيارى تلك الروايات التي تدور حول معرفة الكاتب بقدره عن طريق مراقسسنة النجوم او تفسير الاحلام^٣. وكان الكاتب المنكوب يلتبس احيانا سسا الخلاص عن طريق الرقيا والسحر^٤. ولا تهمنا هنا مدى فعالية هذه الاعمال بقدر ما يهمنا سبب انتشارها وهو ان الكاتب مهءد باستمرار في ماله ووظيفته وحياته.

^١ الجهشيارى، الوزراء: ٩٧.

^٢ يقول البطليوسى (الاقتضاب: ٨٠): "٠٠٠ ويمضي ضمان الثمار والغلات وابواب المال ولا يمضي ذلك الفقهاء لان تضمين الغلة قبل الحصاد ضرب من المخابرة التي نهي عنها وبيع الثمار قبل ظهور صلاحها من بيع الغرر وبيع ما لا يملك ٠٠٠ و لاجل هذا رأى قوم من الكتاب ان يجعلوا مكان تضمين الغلات تضمين الارض".

^٣ يقول الجهشيارى (الوزراء: ٢٧٩): " ولما خص الفضل بن سهل بالمأمون، وتبين نجابته ودلته النجوم على انه يلي الخلافة، طالبه بان يكتب له رقعة بذطه ٠٠٠".

^٤ انظر الجهشيارى، نصوص: ٦٦ - ٦٧، وتدور الرواية حول ابن المدبر الذى سجنه الواثق فدلم بان الواثق سوف يموت بعد ثلاثين يوما فعمل على تسجيل حلمه لكي يتحقق، فكان ان تحققت الرؤيا واخلي سبيل ابن المدبر.

غير ان تحلي ابي ايوب بهذا المقدار من العلوم لم يكن القاعدة وشرى الجاحظ في رسالته يعيّر احد الكتاب من اصحاب الدواوينيين باتقانه الحساب دون غيره من العلوم في قوله: "استقضسى (اى الخليفة المأمون) على ديوان الخراج والجند ابراهيم الحاسب، والحسن بن ابي المشرف، فلحق ابراهيم من سائر الآداب والعلوم علم الحساب فقط ولم يفتزع اليه في قضية ولا في رأى"^١.

ان الشمولية التي كان ينشدها عبد الحميد "لثقافة" الكاتب نادرا ما كانت امرا واقعا. واخفاق الكتاب اجمالا في الامساح بشتى العلوم هو الذى حدث ابن قتيبة مثلا على وضع كتابه فسي أدب الكاتب ليكون مرجعا يعول عليه هذا الأخير. يقول ابن قتيبة: "فاني رأيت كثيرا من كتاب اهل زماننا... قد استطابوا الدعوى، واستوطنوا مركب العجز، واعفوا انفسهم من كد النظر، وقلوبهم من تعب التفكير، حين نالوا الدرك بغير سبب وبلغوا البغية بغير آلة، ولعمري كان ذلك فائنا همة النفس"^٢ يحاول ابن قتيبة معالجة ظاهرة جهل الكاتب التي كانت متفشية في زمانه. ومعالجة المعالجة لا تأتي على صعيد القيام بالعمل الادارى في قلسب الدواوين بل على صعيد الاتصال بصاحب السلطان والقدرة على احاطته بالامور التي ينبغي ادراكها. فالكاتب ينبغي ان يكون على اهبة الاستعداد للاجابة عن اى سؤال يبدر من الخليفة، واذا عجز الكاتب عن الرد عد ذلك عارا عليه. يقول ابن قتيبة: "واى موقف اخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفساء وارتضاه لسه، فقرأ عليه يوما كتابا وفي الكتاب: "ومطر نسسا مطرا كثر عنه الكلاء، فقال له الخليفة ممتحنا له: وما الكلاء؟ فتردد في الجواب وتعشسر لسانه، شمم قلسسال:

^١ الجاحظ، رسالة في ذم اخلاق الكتاب ٢: ٢٠٤.

^٢ ابن قتيبة، ادب الكاتب: ٠٦.

لا أدري^١ . وتشير رواية ابن قتيبة على ان سؤال الخليفة لم يكن عن جهل بل عن معرفة ، فانه اراد ان يمتحن الكاتب، لكن الامر لم يكن كذلك دائما اذ كان السؤال من صاحب السلطان يأتي احيانا عن جهل، لذلك ينبغي ان يحتاط الكاتب في تحصيله المعارف لجميع ما قصد يعترضه من امور يرغب صاحب السلطان في معرفتها .

ان علاقة الكاتب بالخليفة هي التي تقرر في المطاف الاخير تكوينه الثقافي وليس قيامه بامور تصريف ديوان معين وحسب^٢ ، والخليفة يحوز على المعرفة اللازمة بثتى الامور بسبب توسط الكاتب، فالكاتب هو اذن صلة الوصل الضرورية بين السلطة والمعرفة وهو يصبح بذلك خزان معرفة يعول عليه الخليفة ويستعين بمعرفة . لهذا السبب ينبغي ان يعمل الكاتب على التكثُر من المعارف وامتلاكها . وتصب جهسود ابن قتيبة في هذا الاتجاه وتحدث الكاتب على طلب العلم لكتسي لا يفسح المجال لغيره ممن لا ينسب الى السلطة بالتدخل فسياسي شؤونها . ان للسلطة الحق في معرفة الامور وللكتاب امتياز اعلامها ، وهذا من شأنه ان يجعل السلطة تركز على اسس علمية ادبية يفهم منها الكاتب في التحليل الاخير وتجعل المعارف على انواعها تصب في السلطة وتغذيها . ولا يمكن ان يتصف هذا النوع

^١ المصدر السابق: ٧ ويروي ابن قتيبة حادثة اخرى تبرهن عن جهل الكاتب يقول (المصدر السابق: ٨٧) : " ولقد حضرت جماعة من وجوه الكتاب والعمال ... ودخل عليهم رجل من النخاسين ومعه جارية ردت اليه بسن شاغيسة زائدة ، فقال : تبرأت اليهم من الشفا ، فردوها علي بالزيادة . فكم في فم الانسان من سن ، فما كان فيهم احد عرف ذلك ، ... فهل يحسن بمن اهتمت به السلطان على رعيته وأمواله ... ان يجهل هذا في نفسه " .

^٢ لا يتناول كتاب ادب الكاتب تلقين الكاتب اصول الصناعة بل انه يهتم بالمعارف الجانبية . يقول ابن قتيبة (المصدر السابق: ٩) : " ولا بد لسه (اي للكاتب) مع كتبنا هذه ، من النظر في الاشكال لمساحة الارضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية ، والمثلث الحاد ، والمثلث المنفرج ... " .

من المعرفة بشكل عام بالحياد السياسي بل هو سلاح سياسي في ايدى الكتاب يستمدون منه شرعية وجودهم في السلطة .

ان على الكاتب - حسب تصور ابن قتيبة - ان يكون ملما بالقرآن واصلو الفقه واللغة وقواعدها ودلالة الالفاظ وعلم الكواكسب والشعر. لكن هذه المعارف التي يحدث الكاتب على التحلي بهسا يصفها بانها "كتبا خفايا" ^٢ وضمها واعفاها من التطويل والتثقيل لان هدفها تعليمي. ان لفظة خفايا تشير الى المستوى الثقافي المتوسط الذي يتمتع به الكاتب رغم كل شيء وهو دون مستسوى كبار العلماء والادباء اللغويين. تجتمع هذه المعارف تحسنت لفظة " ادب " وطالب الأدب هو الكاتب .

ونلاحظ ان ابن قتيبة يتفق مع عبد الحميد في حثه الكاتبسب التزود بالعلوم القرآنية والفقه الديني ذلك ان هذه العلوم كانت مهملة اكثر من غيرها وقد عبر ابن قتيبة عن ذلك فسي قوله : " وارفح درجات لطيفنا ان يطالع شيئا من تقديم الكواكب وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق، ثم يعترض على كتاب الله بالطمع وهو لا يعرف معناه" ^٤ . وقد اشار الجاحظ كذلك السسي اهمال الكاتب العلوم الدينية في قوله : "ومن الدليل على ذلك،

^١ يقول زبال (تكوّن : ٤٤) : "نحن هنا بعيديون عن صورة الحكيم اليوناني الذي قد يبدو بحثه عن الخير والعلم بعيدا عن السلطة . للمعرفة في اليونان طابع التعميم والحياد السياسي وسهولة المنسسال وقابلية النقل (داخل المدارس الفلسفية) ، هذا الطابع ينفسي باطنية المعرفة التي تتحكم مثلا في كلية ودمنة ، فهذه مرتبطة بالسلطة تحتكرها طبقة معينة ولا تعلم" .

^٢ ابن قتيبة ، ادب الكاتب : ٨ .

^٣ هذا ما لا نراه مثلا في كتاب صبح الاعشى الذي وضع موسوعة لا مثيل لها بالنسبة للكاتب تحوى التاريخ والجغرافية والخط وشتى العلوم لكنها لا تحوى على الفقه (انظر القلقشندى، كتاب صبح الاعشى فسي صناعة الانشا، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩١٩ ، ١٤ جزء) .

^٤ ابن قتيبة ، ادب الكاتب : ٣ .

انه لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره ، ولا علمه تفسيره ، ولا التفقه في الدين شعاره ، ولا الحفظ للسنن والأشعار عماده ، ... وان أشسر الفرد منهم السعي في طلب الحديث ، والتشاغل بذكر كتب المتفقهين ، استثقله اقرانه ، واستوخمه الآفه^١ .

يعير الجاحظ في رسالته الكاتب باهمال القرآن والانكباب على التراث الساساني والمعرفة الفارسية في قوله : " ثم الناشء فيهم اذا وطئ مقعد الرياسة ، وتورك مشورة الخلافة ... وروى لبرزجمهر امثاله ، ولاردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع ادبسه ، وصير كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليله ودمنة كنز حكيمته ، ظسسن انه الفاروق الاكبر في التدبير"^٢ . ولا شك ان الجاحظ يشير فسيحي هذا القول الى شعوبية الكتاب التي كانت شائعة في عصره . لكسسن لا شك ايضا ان هذه الكتب والمؤلفات التي تكلم عنها الجاحظ على اساس انها " معدن " ثقافة الكاتب هي كتب يحتاج اليها الكاتب لانها تدور حول بيئة الكتاب وعمل السلطان .

هذا هو رأي الجاحظ في " ثقافة " الكاتب ولا بد بعد الفراغ منه مسن الاشارة الى المؤلفات المتأخرة نسبيا والتي تناولت موضوع معرفة الكاتب كمثل " ادب الكتاب " للصولي و" الاقتضاب في شرح ادب الكتاب " للبطليوسي . ونلاحظ ان كلا المؤلفين تناول موضوع اتقان الصناعات ومعرفة اصولها اكثر مما تناول موضوع المام الكاتب بثقافته عامة . ولا نعرف ما اذا كان لهذا الامر دلالة معينة بالنسبة للمستوى الثقافي المطلوب من الكاتب .

ويرى الصولي ضرورة معرفة الصناعات على اكمل وجه وتعمق الكاتب في حقل اختصاصه وان يكون ذا ادب لان اتقان الصناعات " والادب " همسا رصيد الكاتب الوحيد ، وهو يقسول في هذا الصدد : " لا ينبغي لمن رفعتة حال وساعده جسده ، وهو يؤسس من نفسه تقصيرا

^١ الجاحظ ، رسالة في دم اخلاق الكتاب ٢ : ١٩٤ .

^٢ المصدر السابق ٢ : ١٩١ - ١٩٢ .

في الادب، وتخلفا عن صناعة الكتابة ، ان يهتتر بحظه ، واقبال الايام عليه في وقت فانها دول منقلبة واحوال منصرمة^١ . ويتكلم الصولي عن واقع اختبر فيه سرعة انقلاب الاحوال على الكاتب ونكبة الخليفة له . لذلك يعتبر اتقان الصناعة والكفاية التي يتمتع بها الكاتب من العوامل التي قد تحول دون التضحية به . وليس كلام الصولي عبثا ، اذ نملك امثلة عديدة على كتاب نجوا من السجن بل من الموت بفضيل حاجة الخليفة الى معرفتهم لتستقيم امور الدولة ، مثل ابن سني الفرات^٢ .

ولمعرفة الكاتب عند الصولي صفة تراكمية ، شعني بذلك انه مسنن المفروض ان يكون صاحب الديوان ، او رئيسه حاصل على جميع المعارف التي تدخل في اختصاص ديوانه ، فمعرفة صاحب الديوان تتكون مسنن مجموع معارف كتاب ديوانه التي تضاف الى معرفته الخاصة ، وذلك لكي يستطيع الرئيس ان يصرف امور ديوانه منفردا فلا يكون بذلسك تحت رحمة احد الكتاب . يقول الصولي في هذا الصدد : " ومع ذلسك فان الاتباع اذا احسوا من الرؤساء بتفويض اليهم ، على قلة علمهم منهم واضطرار الى كفاءتهم ، . . . انتقل الامين عن مر الوفاء السني حلاوة الذيانة"^٣ . وتشير رواية الصولي بوضوح الى ان الكفاية مفتاح السلطة ، اذ يستطيع الكتاب ان يفيدوا من معرفتهم ليتعمدوا على صلاحيات الرئيس ويكون ذلك مقدمة للحلول محله . ان المعرفة قد تقرر النفوذ رغم ان اصحاب النفوذ لم يكونوا دائما من اصحاب المعارف^٤ .

^١ الصولي ، ادب الكتاب : ٢٥ .

^٢ انظر ما سبق ص: ١٠٠ .

^٣ المصدر السابق : ٢٦ .

^٤ يقول الجهشيارى (نصوص: ٧٦) : " سمعت ابا الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح يقول وقد جرى ذكر عبيد الله بن يحيى (بن خاقان وزير المتوكل) : " لم يكن له من الصناعة حظ ، الا انه ايد باعوان وكفاة من كتاب الزمان ، وكان واسع الحيلة حسن المداراة " .

أما البطليوسي فإنه يربط معرفة الكاتب بطبيعة اختصاصه ، فكاتب الرسائل يحتاج حسب قول البطليوسي " . . . إلى الاستكثار من حفظ الرسائل والخطب والأمثال والأخبار والأشعار ومن حفظ عيون الحديث ليدخلها في تضاعيف سطوره " ^١ . ويحتاج كاتب العقد أو كاتب الحساب إلى معرفة العمليات الحسابية من جمع وتفريق وتضعيف وتصريف ونسبة . وإذا كان كاتب عقد في مجالس الخراج " . . . فعليه أن يعرف أحكام الخراج وما يجب رده على العمال من النفقات ومردود الجارى ومسا ينبغي أن يحتسب لهم به وأن يعلم ما تحمد فيه آثار العمال وما تدم فيه آثامهم " ^٢ . ويضيف كاتب العقد في ديوان الاعطاء إلى معرفة الحساب معرفته بحلى الجند ومراتبهم ، فيصف كل واحد منهم بحليته أى عمره وقامته ولونه وجبهته وعينه وأشفه وأسنانه وشفته ، ثم يصف شيات الذيل وصفاتها ^٣ ، وذلك كله يؤهله لتحديد مراتب الجنود . أما كاتب ديوان الخراج فتكمن معرفته في تحديد

^١ البطليوسي ، الاقتضاب : ٦٨ .

^٢ والتصريف هو التثمين ، دشمين الورق بالنسبة للعين والعين بالنسبة للورق (المصدر السابق : ٧٠) وكانت العمليات الحسابية تتم بالعد على الأصابع وعلى مفاصل الأصابع . ويضيف البطليوسي (المصدر السابق : ٧٠) : " وأن خفت أيديهم في العقد والحساب وأسرت كان ذلك أنبل لهم وأزيد في كلامهم " .

^٣ المصدر السابق : ٧١ .

^٤ المصدر السابق : ٧١ . ويعالج ابن قتيبة في ادب الكاتب مسألة صفات الذيل وعيوبها في فصل كامل وقد يكون ذلك لتلقين كتاب ديوان الاعطاء .

^٥ يصف الصابي (الوزراء : ١٣) كيفية تحديد مراتب الجند . يخضع الجنود عامة لامتحان في الرماية وركوب المطية ويسجل مستواهم بجيد أو وسط أو دون الوسط وذلك في حضرة الخليفة والوزير ، ويقرر كاتب الاعطاء أرزاق الجند على أساس نتيجة الامتحان .

وجوه الاموال اى الفيء والصدقة والغنيمة واحكام كل منها^١. وينبغي على كاتب المعاون ان يكون عارفا بالحدود والعقوبات الخاصة بالجنايات والفتن^٢.

هذه هي المعارف الأولية التي ينبغي ان يحصلها الكاتب والتي تسمح له باتقان صناعته. ونرى كيف تطور مفهوم المعرفة وتغير عن مفهوم عبد الحميد واصبح المؤلفون ينشدون الاختصاص الادق على حساب الثقافة العامة والمعرفة الشاملة.

لقد اكثر المؤلفون عامة من وصف الامور التي ينبغي ان يكون الكاتب ملما بها لكنهم لم يصفوا لنا كيف كان الكتاب يتعلمون هذه الصناعة وأين. ولا يذكر التاريخ ان كانت هناك في العصور التي ندرسها مؤسسات مهمتها تأهيل الكاتب لامتحان هذه الصناعة، لذلك نرجسح ان يتم تلقين الكاتب في قلب الدواوين وكان يساعد على ذلك كسسون الصناعة وراثية في بعض الاحيان^٣، فيتدرب الابن على يدى والده وهذا امر اشار اليه الجهشيارى منذ العصر الاموى في قوله: " وكان قحسدم (كاتب هشام بن عبد الملك على الخراج) يعيب صالح بن عبد الرحمن (كاتب هشام) لتعظيمه ابنه، واعتماده في الامور عليه، فصنع قحسدم بابنه مثل ما عاب"^٤. ان هذه الرواية واضحة في الاشارة السسسي تدريب الآباء للابناء. لكننا لا نستطيع ان نصدر حكما قاطعا ببيان الصناعة كانت تلقن في الدواوين دائما. ولقد اشار ابن قتيبة السى ان تلقين الكاتب كان يتم بصورة نظرية "في الدفاتر"^٥، ونعرف ان معنى

^١ البطليوسى، الاقتضاب: ٧٩.

^٢ المصدر السابق: ٨١.

^٣ انظر ما سبق ص: ١٠٩.

^٤ الجهشيارى، الوزراء: ٦٤.

^٥ ابن قتيبة، ادب الكاتب: ٩ - ١٠.

الدفاتر يدخل في اطاره الوثائق الموجودة في الديوان^١ ممسما
يشير الى ان الكاتب كان يتعلم في الديوان. ويرى ابن قديبسة
في ذلك مأخذا على الكاتب وقد عبّر عن ذلك في قوله : " لا بدّ لسه
(اي للكاتب) . . . ان يمتحن معرفته بالعمل في الارضين ، لا فسي
الدفاتر ، فان المخبر ليس كالمعاشين"^٢.

وتبقى في جميع الاحوال قضية تلقين الكاتب معلقة بانتظار ان تتوفر
لدينا معلومات اكثر حول هذا الموضوع.

^١ انظر الجهشيارى ، الوزراء : ٨٩ .

^٢ ابن قديبة ، ادب الكاتب : ١٠ .

خاتمة

فقد عرف العرب الكتابة في مجال التنظيم الإداري منذ العصر النبوي وترقى الخطوة الحاسمة في ذلك المجال الى خلافة عمر بن الخطاب وتأسيسه ديوان الجند. وقد أدت الفتوحات التي قامت بها القبائل الاسلامية الى ضرورة تنظيم هذه الامصار اداريا. وتم ذلك في خلافة معاوية مع تأسيس ديواني الخراج والبريد اللذين توفرا في جميع الولايات تقريبا. اما الجهاز الإداري فكان يتشكل من كتاب عسرب واعاجم: الكتاب العرب يتولون كتابة الرسائل والكتاب الاعاجم - اي الموالي - يتولون دواوين الخراج. وقد تأمنت مع بقاء بعض الكتاب الفرس في مناصبهم مسألة جباية الضريبة، لكن ادى ذلك ايضا الى استمرار هيمنة اعمية حتى ان بادر الخليفة عبد الملك ابن مروان الى تعريب الدواوين. وقد ادى التعريب الى جعل اللغة العربية لغة رسمية في الادارة كما ادى الى زعزعة وضع الكتاب الموالي واستبدال كتاب منهم بكتاب عرب، لكن هذه التدابير استغرقت مدة طويلة واستمرت آثارها حتى مطلع العصر العباسي تقريبا. وكان للكتاب في انتقال الأمر الى بني العباس دور يلعبونه وتحالفات اقاموها مع الامويين او مع خصومهم لكنهم كانوا فسيحي التحليل الأخير يطالبون باستتاب أية سلطة شرعية تؤمن لهم مناصبهم الادارية. وتميز مطلع العصر العباسي باتجاه السلطنة الادارية نحو المركزية وذلك بتقوية الجهاز الإداري في المركز بحيث تخضع له الاطراف وتصل الضريبة كاملة الى مركز الخلافة. وقد استحدثت لهذا الغرض عدة دواوين تمتعت باختصاص دقيق وقامت بالحسابات اللازمة لضبط محصول الضريبة وطريقة انفاقه. لكن الجهاز الإداري لم يبلغ صيغته النهائية - من حيث عدد الدواوين - قبل مطلع القرن الرابع.

لقد ادى بلوغ الجهاز الإداري هذا المستوى من التعقيد الى تغيير أساسي في مهمة من يتولى المرتبة الثانية في الدولة (أعني الوزارة) كان الوزير بادئ ذي بدء هو الشخص الملازم للخليفة يعاونه على تصريف الشؤون الادارية ويكون بمثابة مستشاره في الامور السياسية وقد يكون كاتبها كما كان في معظم الاحوال. لكن صفة

الكتابة لم تعد ضرورية فيما بعد عندما تولى الوزير فعليا رئاسة دواوين الادارة . وقد مرّ تطور المرتبة الثانية - بعدة مراحل - نذكر من بينها منافسة القادة العسكريين الكتاب على تسيير الامور الادارية ، وتدخلهم بالشؤون الادارية بصورة شبه مستمرة مما أدى الى زعزعة نفوذ الكتاب في جهاز الادارة المركزي. لكن من ازيد عدد الجنود والعلماء الاثراك جعل القادة العسكريين يعون حقيقة واضحة هي ضرورة تأمين الارزاق للجنود لتلافي الفتنة التي قد تحدث من جراء تأخيرها. واختار القادة امام هذه المشكلة ان يدعموا الجهاز الاداري والكتاب القيم عليه اي الوزير. من هنا استمدت الوزارة قوتها في الفترة الأخيرة وبلغت اوجها مع ابن الفرات وعلي بن عيسى الوزيرين. غير انه ما لبث ان استولى القادة العسكريون على معظم موارد الضريبة وذلك بتصرفهم بقطائع واسعة يجبون ضريبتها وينفقون من مالها على جنودهم ، مما أدى الى ضعف الجهاز الاداري لان هذا الجهاز يستمد قوته ونفوذه من قدرته على التحكم باموال الضريبة والتصرف بها. نضيف الى ذلك الضعف الذي اصاب الوزارة في مطلع القرن الرابع من جراء تغيير الوزارة بصورة مستمرة وتغيير الجهاز الاداري مع ما يرافق هذا التغيير من تشكييل بالعاملين في الادارة وقتل وتعذيب ومصادرة . وكانت فترة عدم الاستقرار هذه هي المقدمة لتولي امير الامراء المرتبة الثانية بدل الوزير.

لم ينعكس تطور الجهاز الاداري الذي بدأ في العصر العباسي على المرتبة الثانية المتمثلة بشخص الوزير وحسب بل انعكس على الكتاب انفسهم اذ تكونت طبقة الكتاب في المركز او الحضرة حيث الادارة المركزية . ولم يكن يجمع الكتاب المنتهين الى هذه الطبقة ديانة واحدة أو نسب واحد انما يجمعهم امتيازهم صناعات الكتابة . لكننا نستطيع ان نقول ان الكتاب هم المسؤولون عن اللون الفارسي الذي طبع المأكّل والملبس ونمط الحياة اجمالا في دار الخلافة وان بعضهم كان من دعاة الشعوبية .

ويقع الكتاب في قلب طبقتهم في مراتب حسب اختصاصهم فهناك اولا رئيس الديوان ثم الكتاب العاملون في الديوان وهؤلاء ايضا

يقعون في مراتب . وتتنوع ارزاق الكتاب بتنوع مرتبتهم لكن الكتاب كاشوا بالاضافة الى ذلك يجنون اموالا في بعض الاحيان بصورة غيسسر قانونية .

اما امتهان الكتاب لصناعتهم فقد خضع لاصول معينة . كان الكتساب يستخدمون ادوات مخصصة للكتابة ويكتبون على مواد معينة جيسري اقتصاصها حسب قياسات محددة . ثم انهم عالجوا ادواتهم الكتابية بصورة خاصة وذلك فيما يتعلق ببراية القلم والاستمداد والتترييب والسحاية والتطيين وغيرها من الامور المتعلقة بالكتابة وكانسوا يكتبون بخطوط تختلف باختلاف النص

اما اخراج الكتب فانه خضع ايضا لاصول معينة تتعلق بالتصديسر والعنونة والدعاء والتأريخ . وكما كان لاجراج الكتب اصول محددة كذلك كان الامر بالنسبة للكاتب الذي املت عليه صناعته اعتناءه بمظهره الخارجي ، واختياره ملبسه ، وضبطه سلوكه العام وكلامسه ، واستخدامه آله على اكمل وجه رغبة في مراعاة صاحب السلطسان ، واحتراسا من الاعداء المتربصين له . اما ثقافة الكاتب فكسسان ينبغي ان تكون شاملة وان تشعدي معرفته بالصناعة نحو المامسه بامور اخرى تتعلق بالادب واللغة وعلم الحيوان والمعارف اجمسالا دون اهمال العلوم الدينية .

المصادر العربية

- الاحكام السلطانية للمارودي، مطبعة الوطن، مصر، ١٢٩٨.
- لدين المعرف،
الادب الصغير،/في رسائل البلغاء، تحقيق محمد كرد علي، الطبعة الرابعة،
مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٤، ٤ - ٣٧.
- ادب الكاتب لابن قتيبة، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة،
المكتبة التجارية، مصر، ١٩٥٨.
- لدين المعرف،
الادب الكبير،/في رسائل البلغاء، تحقيق محمد كرد علي، الطبعة الرابعة،
مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٤، ٤٠ - ٧٠.
- ادب الكتاب للصولي، تحقيق محمد بهجت الاثري، المكتبة العربية، بغداد،
١٣٤١.
- الاقطشاب في شرح ادب الكتاب للبطلبيوسي، تحقيق عبد الله البستاني،
قلفاط وميداني، بيروت، ١٩٠١.
- الاول للسكري، تحقيق محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة، ١٩٦٦.
- البيان والتبيين (١-٤) للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة
الاولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ٤٨ - ١٩٥٠.
- تاريخ الرسل والملوك (١-١٠) للطبري، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم،
دار المعارف، مصر، ١٩٢٨.
- تاريخ اليعقوبي، تحقيق مارتن تيودود هوتسما، ليدن، ١٨٨٣.
- تجارب الامم وتعاقب الهمم (١-٢) لمسكويه، تحقيق امدروز، مطبعة شركة
التمدن الصناعية، مصر، ١٩١٥.
- تحفة الامراء في تاريخ الوزراء للصابي، تحقيق امدروز، مطبعة الآباء
الكاثوليكيين، بيروت، ١٩٠٤.

- خاص الخاص للثعالبي ، تحقيق حسن الأمين ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ،
١٩٦٦ .
- الخراج لأبي يوسف ، تحقيق محاسب الدين الخطيب ، الطبعة الخامسة ،
المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٩٦ .
- الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر ، تحقيق دوخويه في كتاب المسالك
والممالك لابن خردزبه ، طبعة ليدن ، ١٣٠٦ .
- رسالة الى ولي العهد عبد الحميد الثالث في رسائل البلغاء ، تحقيق محمـ
كرد علي ، الطبعة الرابعة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ،
١٩٥٤ ، ١٧٣ - ٢١٠ .
- رسالة الصحابة لابن المقفع ، في رسائل البلغاء ، تحقيق محمد كرد علي ،
الطبعة الرابعة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ١١٧ -
١٣٤ .
- الرسالة العذراء لابن المدبر ، تحقيق زكي مبارك ، الطبعة الاولى ، مطبعة
دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣١ .
- رسالة في ذم اخلاق الكتاب للجاحظ ، في رسائل الجاحظ (٢) ، تحقيق عبد
السلام هارون ، مكتبة الحانجي ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- الرسالة في علم الكتابة للتوحيدى في رسائل التوحيد ، المعهـ
الفرنسي ، دمشق ، ١٩٥١ .
- رسوم دار الخلافة للصابيء ، تحقيق ميخائيل عواد ، مطبعة العائسي ،
بغداد ، ١٩٦٤ .
- صبح الاعشى في صناعة الانشا (١-١٤) للقلقشندي ، دار الكتب المصرية ،
القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩١٩ .
- الصداقة والصديق للتوحيدى ، شرح وتعليق علي متولي صلاح ، مكتبة
الآداب ، مصر ، ١٩٧٢ .

الصلة في تاريخ الطبرى لعريب، تحقيق دوخويه ، ليدن ، ١٨٩٧.

عهد اردشير، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧.

فتوح البلدان (٣-١) للبلاذري، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة
النهضة، القاهرة، ١٩٥٦.

الفرج بعد الشدة (١ - ٥) للتتويحي، تحقيق/عبود الشالحي، دار صادر،
بيروت، ١٩٧٨.

قانون ديوان الرسائل لابن الصيرفي، عني بنشره علي بهجت، الطبعة
الاولى، مطبعة الواعظ، القاهرة، ١٩٠٥.

الكامل (١ - ١٣) لابن الاثير، تحقيق تورنبرغ، دار صادر ودار بيروت،
بيروت، ١٩٦٥ - ٦٦.

كتاب العرب او الرد على الشعوبية لابن قتيبة في رسائل البلغساء،
تحقيق محمد كرد علي، الطبعة الرابعة، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة، القاهرة، ١٩٥٤، ٣٤٤ - ٣٧٧.

كتاب الكتاب لابن درستويه، تحقيق ابراهيم السامرائي وعبد الحسين
الفتلي، الطبعة الاولى، دار الكتب الثقافية، الكويت، ١٩٧٧.

لبي القاسم

كتاب الكتاب وصفة الدواة والقلم/ البغدادي، تحقيق دومينيك سورديسل
في Bulletin d'Etudes Orientales, 1952-54, vol.14, pp. 131-148

لسان العرب (١ - ١٥) لابن منظور، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٥٥ -
٥٦.

معجم الادباء (١ - ٩) لياقوت، تحقيق دوس مرجليوث، الطبعة الثانية،
مطبعة هندية، القاهرة، ١٩٢٣.

معجم البلدان (١ - ٥) لياقوت، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥ - ٥٧.

نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب للجهمشيارى، تحقيق ميخائيل
عواد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٤.

الهوامل والشوامل لمسكويه، تحقيق احمد امين والسيد أحمد صقر،
القاهرة، ١٩٥١.

الوزراء والكتاب للجهمشيارى، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم
الايبارى، عبد الحفيظ شلبي، الطبعة الاولى، مطبعة البابسي
الحلي، القاهرة، ١٩٣٨.

المراجع العربية الحديثة

تكوّن الكتاب العربي لفرنسوا زبال، معهد الانماء العربي، بيروت،
١٩٧٧.

الجدور التاريخية للشعبوية لعبد العزيز الدوري، الطبعة الاولى،
دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٢.

دير قنّى لميخائيل عواد في مجلة المشرق، ١٩٣٩، ٣٧:٩٨ - ١٨٠.

صناعة الورق وصدق الكتابة في الاسلام لحبيب زيات، في مجلة
المشرق، ١٩٥٤، ٣:٤٨ - ٣٠:٤٥٨ - ٤٥٩.

الموالي في العصر الاموي لمحمد طيّب النجار، الطبعة الاولى،
دار النيل للطباعة، القاهرة، ١٩٤٨.

نظرة جديدة في بعض الكتب المنسوبة لابن المقفع لاحسان عباس،
في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٧، مجلد ٥٢، جزء ٣.

المراجع الاجنبية

- Aghnidēs, N.P., Mohammadean Theory of Finance, New-York, 1916.
- Allouche, S., "Un traité de Polémique christiano-musulmane" in Hespéris, 1939, Tome 26, pp. 129-133.
- Amedroz, "Abbassid Administration and its Decay", in the Journal of the Royal Asiatic Society, 1913, pp. 823-837.
- Cahen, Claude, Islam I, Bordas, Histoire Universelle, Paris, 1970.
- Al-Douri, Abdel Aziz, "Diwān", in EI², vol. II, pp. 333-336.
- Dozy, R., Dictionnaire détaillé du nom des vêtements chez les Arabes, Amsterdam, 1845.
- Al-Gāhiz, Une Charge contre les secrétaires d'Etat, trad. Ch. Pellat in Hespéris, vol. 43, pp. 29-47.
- Grignaschi, H., "rasā'il aristātālīsa 'ila l-iskandar", in Bulletin d'Etudes Orientales, 1965-66, vol. 19, pp. 7-83.
- Lammens, Henri, Calife Omayyade Mo'āwia, Extraits des Mélanges de l'université St. Joseph, Beyrouth, 1908.
- _____ Etudes sur le siècle des Omayyades, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1930.
- Lombard, Maurice, Monnaie et histoire d'Alexandre à Mahomet, Mouton, Paris, 1971.
- Pellat, Charles, "Gahiz à Baghdād et à Samarrā", in Revista degli Studi Orientali, 1952, vol. 27, pp. 47-69.
- Planhol, Xavier de, Fondements géographiques de l'histoire de l'Islam, Flammarion, Paris, 1968.
- Sourdél, Dominique, "Hādhib" in EI², vol. III, pp. 47-48.
- _____ Vizirat Abbasside, 2 Tomes, Damas, 1956.
- As-Sūli, Aḥbār Ar Rādī billāh wa-l Muttāqī billah, trad. de M. Canard, Tome I, Alger, 1946.
- Tyan, Emile, Institutions du droit public musulman, Liban, 1954-56.

نظرة في المصادر والمراجع

الفصل الاول : تكون الجهاز الادارى في الدولة الاسلامية حتى نهاية العصر الاموى.

- I- مقدمة ١
- II- نشأة الادارة الاسلامية ٢
- أ - كتابة الرسائل ٦
- ب - كتابة الخراج ٩
- ج - التعريب ١٢
- III- الوضع الاجتماعي السياسي للكتاب الديوانيين ١٦

الفصل الثاني : تطور الجهاز الادارى في العصر العباسي وأثره فسي ظهور المرتبة الثانية (الوزارة)

- I- الدواوين الحادثة في العصر العباسي ٢٣
- أ - اتجاه الادارة نحو المركزية ٢٣
- ب - تعداد الدواوين ٢٨
- ج - نماذج من ترتيب الديوان ٣٦
- II- المرتبة الثانية (الوزارة) ٤١
- أ - الاقطاب المتنافسة على المرتبة الثانية .. ٤١
- ب - الكاتب ٤٣
- أ - الكاتب رئيس الدواوين ٤٣
- ب - كاتب ولي العهد ٥١
- ب - الحاجب ٥٦
- ب - القائد العسكري ٥٨
- أ - حلول القائد العسكري في المرتبة الثانية ٥٨
- ب - دور القائد العسكري في الصراع القائم في فئة الكتاب ٦٢
- ب - شكل الصراع على المرتبة الثانية : حيلة الكاتب ٦٥
- ج - دور الوزير: المشورة والنصيحة ٧٦
- د - مصير الوزير: الصرف والخذية ٨٤
- III- دور الجهاز الادارى في التوازن الاجتماعي ٩٧

الفصل الثالث : طبقة الكتاب وامتيازاتها

- I-تكون طبقة الكتاب ١٠٥
- II-مذهب الكاتب ١١٤
- III-مرادف الكاتب ١٢٠
- أ - ارزاق الكتاب ١٣٢
- ب - كسب الخسيس ١٤٢

الفصل الرابع : صناعة الكتابة وتكوين الكاتب الاخلاقي والثقافي

- I-آلة الكتابة ١٥٥
- II-قانون الكتابة ١٦٠
- III-سلوك الكاتب واخلاقه ١٧٧
- IV-رؤى الكاتب ١٨٨
- V-ثقافة الكاتب ١٩٤
- خاتمة ٢٠٤
- المصادر العربية ٢٠٧
- المراجع العربية الحديثة ٢١١
- المراجع الاجنبية ٢١٢